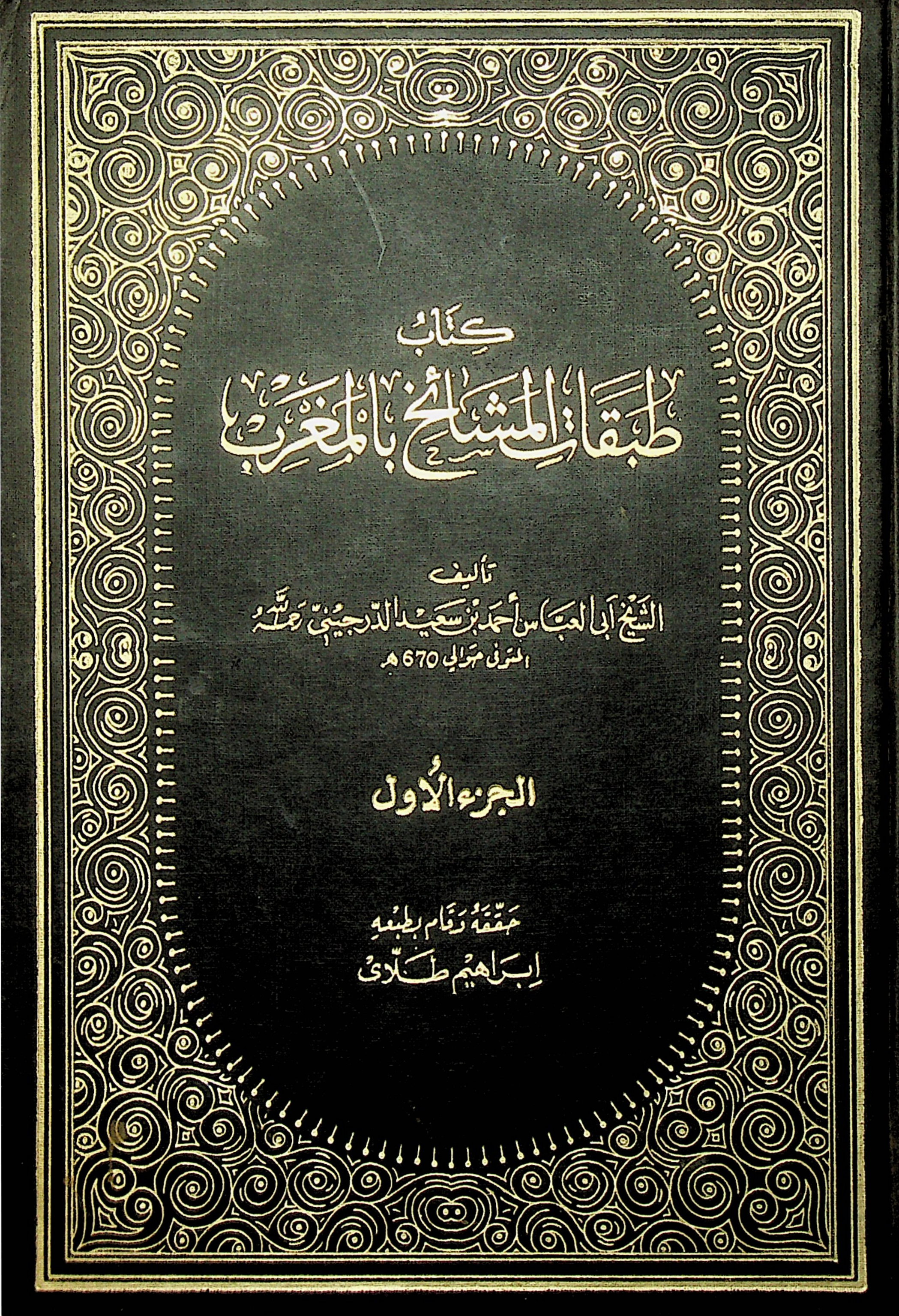

كتاب
طبقات المشائخ بالمغرب
تأليف
الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالي 670 هـ
الجزء الأول
حققه وقام بطبعه
إبراهيم طلاي

كتاب

طبقات المشائخ بالمغرب

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالي 670 هـ

الجزء الأول

حققه وقام بطبعه

إبراهيم طلاي



الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

تقديم الكتاب

أضع بين يديك ايها القارىء الكريم هذا الكتاب القيم، الذى يكتب له لاول مرة ان يخرج من حيز المخطوطات وظلمات خزائن الكتب ، بعد ان تحدث الناس عنه كثيرا ، ونقل منه كتاب السير والتاريخ بالمغرب العربى ، وخاصة تونس والجزائر ، ولم يكتب له الحظ ان يعتني أحد منهم بتحقيقه واخراجه .

وما اقدمنى على هذا العمل المضنى وشجعنى عليه الا ما نحن عليه في مغربنا هذا من حاجة الى احياء تراثنا وابراز معالم شخصيتنا التاريخية ، وربط حاضرنا المشرق بماضينا المجيد ، لنبنى نهضتنا على دعائم من الاصالة والتفتح معا ، لا نفرط ولا نفرط ، ولعلها تكون منى مساهمة متواضعة فى دفع مسيرة النهضة واثرائها ، تلك النهضة الثقافية التى تحياها الجزائر وسائر اقطار المغرب العربى فى هذه الظروف الحساسة .

وقد اعتمدت فى تحقيق الكتاب ثلاث نسخ خطية رأيت فيهن الغناء عن غيرهن ، وهن قلائل ، النسخة الاولى نسخة

خزانة شيخي الفاضل ابراهيم ابن ابى بكر القرارى ، وهى أصح النسخ ، واشدها تحقيقا ، وقد اهمل الناسخ ذكر تاريخ كتابتها وذكر اسمه ، والنسخة الثانية نسخة مكتبة الشيخ اطفيش الحاج محمد ، وهى نسخة قديمة جدا قريبة من عهد المؤلف يذكر كاتبها انه فرغ منها سنة 758 هجرية ، والنسخة الثالثة نسخة خزانة القاضى ابو فاره ابراهيم ، ويرجع تاريخها الى القرن الثانى عشر الهجرى .

وقد حاولت ان اقابل بين النسخ ما استطعت ، واثبت النص صحيحا بعد تحقيقه ، وربما تكون النسخ متفقة فى العبارة مع عدم اتضاح المراد ، أو استقامة العبارة ، عند ذلك اثبت العبارة كما هى مع الاشارة اليها ، وابداء ما يبدو لى صوابا .

وخدمة للكتاب وتقريبا له لمتناول القارىء اضفت عناوين هامشية لمختلف المسائل والمباحث الواردة فى اثناء الكتاب ، واثبتها على هامش الصفحات ، حتى يسهل الرجوع اليها ، واستجلاؤها ، كما اضفت للكتاب فهارس للعناوين والموضوعات الواردة فيه ، وللاعلام والاماكن المذكورة . وسوف يجد القارىء من حين لآخر تعليقا منى على ما اراه لا بد منه للايضاح او ازالة اللبس .

وبودى لو اخرج الكتاب وعليه دراسة علمية وتحقيقات تاريخية لتكون فائدته أكمل وأشمل ، ولكن اعتقد ان هذ االعمل سيكون خطوة ثانية بعد تحقيقه وطبعه ، وعسى أن يجد من ابنائنا الطلبة والرجال المتفرغين للبحث من

ينتدب لذلك ، وحسبى أن أكون قد قمت بأول خطوة في الموضوع .

وقد رجوت من الشيخ الفاضل المحقق عبد الرحمن بكلي ـ وانا فى اثناء تحقيق الكتاب ـ ان يقدم له بمقدمة تكون أمس بالموضوع وأنسب للكتاب ، أكتفى بها عن التعريف بالكتاب وبالمؤلف ، فلبى رغبتي ورحب بها ، فله مِنى كامل الشكر والتقدير ، كما أقدم ثنائي وشكرى الخالص للاخوان الذين قدموا لى يد المساعدة ولم يبخلوا بأي جهد ، فساهموا معى فى اخراج الكتاب بما قدموه من جهود وخدمات ، شكر الله سعيهم وجازاهم خيرا .

البليدة 20 رمضان المعظم 1394 هـ

الموافق ليوم 7 أكتوبر 1974 م

المحقق : ابراهيم طلاي



وصلى الله على سيدنا محمد وآله

مقـــدمـــة

ان دراسة سير الاولين وايامهم الزاهرة التى تزخـــر بالحيوية والنشاط فى مختلف الميادين من علمية وسياسية واجتماعية وعمرانية لما ينير سبيل الحياة امام المتأخرين، فان فيما يتخللها من ايام عصيبة وفى محاولاتهم الجريئة المتكررة لحل ازمتها والتخلص من ورطتها لدروسا وعبرا لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد .

ولقد كان للأسلاف رحمهم الله تاريخ مجيد حافـــل بالمكارم والاعمال البناءة ، جم المشاكل وما يستتبعها من الحلول المبنية على افكار صحيحة ونظريات سديدة ، مـــن الغباوة بالمتأخرين ان يتجاهلوها أو يغفلوا عن الاستفادة من عبرها ، على ان تاريخهم لم يصل الينا سالما كاملا ؛ فان عدم الاستقرار من جراء تحكم النزعـات واستحكـــام المنازعات وبغي الانسان على اخيه الانسان قد شتته هنا وهناك ، فقام على المتأخرين ثمنه باهضا وخسارته فادحة، اللهم الا اذا شمروا عن ساعد الجد لاستخراج كنـــوزه

الدفينة ليستفيدوا منها فى حياتهم الحاضرة ، فكم للاسلام فى تاريخه من مآثر ومفاخر ؟ وكم انجب من عباقرة كان لعرائس افكارهم جمال رائع لو اتيح لها خطاب ؛ فان ما اغفلته الايام فوصل الينا يشير ويرشد الى هذا الارث العظيم .

هذا واذ استعدنا عزتنا المغتصبة وردت الينا دولتنا السليبة وأصبحنا مطالبين بما يدعم كيانها ويعلى شأنها ، ويمكنها من استجلاء ثرواتها واستغلالها وأكثب الصيد ابناء الجزائر فلم لايرومونه ؟ وليعملوا جادين ، فجري المذكيات غلاب .

ومن ذلك ما كان لرجال الاباضية فى القرون الاولى للهجرة من صيت ذائع وحياة روحية رائعة فى مختلف نواحى المغرب الاوسط (الجزائر) وما جاوره .

كان مجتمعهم فى المغرب مجتمعا اسلاميا فى عقيدته وأخلاقه وسمته ، غنيا برجاله وعلمائه وجيوش طلبته ، بله العامة الذين يخضعون لرؤسائهم ومشائخهم ويستميتون فى حمايتهم ، وكانت النواحى الآهلة بهم كالزاب ، واريغ ، وسوف ، وتاجديت ، وبغاى ، وجبال أوراس ، وبادية بنى مصعب ،(ميزاب) تعج بهم عجا . فكانوا الى ذلك على اتصال وثيق باخوانهم اباضية جبل وسلات ، وجبل دمر وقصطالية ، وجربة ، وطرابلس ، وجبل نفوسة . وكان بينهم تجاوب فى الاراء العلمية فيقال : قال علماء جبل نفوسة كذا ، وقال علماء قصطالية كذا . وقال علماء بغاى كذا . وقال علماء جربة كذا . وقال علماء بنى مصعب كذا الخ ... وكانت لهم خطة متحدة الاهداف فى كفاح الجورة الحاكمين بأمرهم قمعا

للظلم وتنغيصا للقاسطين وصدا لهم عن القضاء عليهم واصطلامهم ، كما هى سياسة الحكام الشيعيين يومئذ وخلفائهم من الصنهاجيين (انظر وصية المعز لدين الله معد بن اسماعيل آخر ملوك العبيديين بالمغرب لما انتقل الى مصر سنة 362 هـ لخليفته يوسف بن زيرى الصنهاجى) .

قال ابن الخطيب : لما ارتحل المعز واحتل قابس لوجهته يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الاول سنة 362 هجرية بلغ يوسف بن زيرى مشيعا اياه آبار الخشب ثم امره بالرجوع الى افريقيا ، وقال له عند وداعه : (ان نسيت شيئا مما اوصيك به فلا تنس ثلاثة اشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر (اراد زناتة ومزاته ، كما صرح بذلك فى رواية أخرى) ـ ولا تول احدا من اخوتك وبينك فانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك ـ وأستوصى بالحضر) .

ومما أوصاه به ايضا انه قال : (تركت لك بافريقيا مائة ألف منزل فاجعل فى كل منزل فارسا تكتفى بذلك وتأتى على من حاربك) .

كانوا يعيشون عيشة الروح لا عيشة الجسد ، لا يحفلون بالقشور ، ولا يميلون الى الترف والنعيم . بل صرفوا كامل عنايتهم الى الاضطلاع بدين الله ، الى تصحيح العقيدة ، الى نشر تعاليم الاسلام بين الجماهير الساذجة وحملهم عليها قولا وعملا. فانساقوا فى هذه السبيل سبيل الآخرة ايثارا للآجلة على العاجلة . وساعدهم على ذلك تحررهم من مهام الملك التى تستنزف الجهود والاوقات وتحملهم على الانغماس فى الحياة المادية طوعا أو كرها .

انهم وان لم يعرضوا تماما عن الحياة المادية الا انهم يحيون حياة هزيلة لا تعدو – على عمومها – تربية المواشى وفلاحة الارض وغراسة النخيل والاشجار لاسيما الزياتين، الى شيء من تجارة عمادها المقايضة . واذا قدر لبعض الاشياخ مثلا ان يكون ذا ثروة فانه يفنيها في كفالة الطلبة الذين ينقطعون لخدمة العلم واقامة شعائر الدين والوعظ والارشاد احتسابا وامتثالا لما يامر به الدين ويدعو اليه القرآن الكريم . الامر الذى حفظ للدين تعاليمه . وللعلم حقائقه . ولحسن السلوك منهاجه . فكثرت جيوش العلماء وكثر تنقلهم من ناحية الى أخرى تثبيتا للاقدام ، واصلاحا لذات البين ، وتصحيحا للاخطاء ، وقياما بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على صعوبة المواصلات . وقلة الوسائل . وخوف السابلة . وبعد المسافات ، ناهيك انهم كانوا يسافرون في قوافل من العلماء بتلاميذهم ومعهم مدرستهم المتنقلة وهى عبارة عن حمولة (12) بعيرا من الحصر ينصبونها كلما نزلوا مكانا فسيحا آهلا . وتتألف هذه المدرسة من أقسام : قسم للصلاة ، وقسم للشيخ ، وقسم للنساء ، وبيوت للتلاميذ ، كل وما يخصه الى آخر ما تستلزمه هذه الحركة المباركة . والحق أنهم اوتوا صبرا عجيبا على مجابهة خشونة العيش ، وترك حظوظ النفس ، ارضاء لربهم ، واستعدادا لحمل الامانة التى عرضها الله على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان ؛ يقصرون أول حياتهم على التعلم حتى اذا ما نبغوا تصدوا للتعليم . وعقد الرحلات للدعوة الى الله وتفقد احوال المسلمين ورأب صدعهم ، وجمع كلمتهم ، وتصنيف الكتب فى مختلف

العلوم . وهنا يجدر بنا ان ننبه على ظاهرة حسنة . بل مفخرة انفردوا بها فى ذلك الوقت المبكر . ذلك انهم كانوا أول ـ أو من أول ـ من سبق الى التأليف الجماعي كما هو الشان فى تأليف الموسوعات العلمية فى العصر الحاضر ؛ فتجد اشياخا ياتون من نواحي متعددة فيجتمعون على تأليف موسوعة فقهية كما فعل مؤلفو ديوان الغار بجربة فى القرن الرابع ، وكما هو شان مؤلفى ديوان العزابة او الاشياخ فى القرن الخامس , فقد جاؤوا من نفوسة وقنطرار ، وتجديث ، وأريغ فألفوا هذا الديوان فى خمسة وعشرين كتابا لا يزال موجودا الى اليوم .

على ان هناك بعض النواحي تمتاز عن سائرها بتعاطى التجارة وعقد الرحلات الى البلاد النائية طلبا للرزق كتجار وارجلان الذين يسافرون الى السودان وبلاد غانة ... قال الادريسى عن مدينة وارجلان (ورقلة) : (هى مدينة فيها قبائل مياسير ، وتجار اغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد غانة ونقارة ـ هقاره ـ فيخرجون منها التبر ويضربونه فى بلادهم ـ عملة مسكوكة ـ باسم بلدهم وهم : اباضية وهبية) انتهى .

ولذلك تركت لنا هذه الناحية ـ سدراته وما حواليها ـ خاصة حضارة رائعة ، دلت الحفريات التى أجرتها الآنسة (مرغريت فان بير شايم) ـ الباحثة الاثرية التى انتدبتها الحكومة الفرنسية للبحث عن الآثار القديمة بقطر الجزائر على زخرفة ونقوش فى غاية من دقة الصنع مما يدل على ان الفن المعمارى قد بلغ فى تلك النواحي اوجا بعيدا . واثبتت فى فصول نشرتها بمجلة المصورة الفرنسية (الجيريا وافريقيا الشمالية) عدد جويلية ـ اكتوبر 1953

انها كانت ارقى بكثير من الفن الاندلسى الذى كان مضرب المثل فى تلك العصور ، واطبقت شهرته الآفاق . وقد خصص لاثارها فى متحف الاثار الجزائرى قاعة باسم (قاعة سدراته) .

على ان وضع الاصحاب يأبى عليهم التفرغ للاكتساب فقد كانوا مقلقين فى اوطانهم ، مخاطرين وخائفين فى اسفارهم ، عرضة للنهب والسلب والقتل من غوغائهم ومن جيرانهم . بله امعان الجورة فى تجريدهم مما يملكون . وتشريدهم فى طول البلاد وعرضها ، والتنكيل بهم ظلما وعدوانا (انظر صحيفة 400 من سير الشماخى وهجوم عسكر صنهاجة على قلعة درجين واصطلامها سنة 430 هـ) .

وهل تبقى بربك ثروة وسط هذه الزعازع والاعاصير ادبية كانت اومادية ؟ ولولا الفتن الداخلية والخارجية والحروب المتوالية التى تسلطت عليهم فأفقرتهم من الاموال وأخنت عليهم كما اخنت على لبد وأتت على ما هنالك من ثرات علمى ــ لأبقت تلك القرائح الوقادة والعقول الراجحة لنا وللمكتبة الاسلامية ما يرفع رأس الجزائر عاليا بين أمم التاريخ .

وناهيك بتجديث وما بلغت من ازدهار وتألق انوار ، فقد قصت علينا السير ما يدهش ويبهر . قال الشماخى : تاجديت موضع معلوم بقبلة اريغ وليست ببعيدة منه . اجتمع فيه من أهل الدعوة والعلماء والطلبة وأهل الصلاح ما لم يوجد فى غيرها ، وعد فيها مائة عالم لا يرد احدهم مسألة الى الآخر الا من جهة الادب . وفيها مائتان يحفظون مائتى كتاب ، وثمانون طالبا تؤاما ، وسائر الطلبة كثيرة.

ويحضر الصلاة ثلاث مائة فارس. واذا كبروا تكبيرة الاحرام نفرت المواشى الخ ... ودخل عامل لصنهاجة فرأى كثرة العزابة وكثرة الحلق وضيق المكان فاعتقد انهم يدنسون وجه الارض بالخلاء والسماد فدار فيها وحواليها فلم يظفر بشيء مما تكرهه عينه ، وتعابه نفسه . فقال وقد مد يده بسيفه : (ما يخاف الناس الا من هذا او من الله) فهذا ــ يعنى السيف ــ ليس هذا موضعه ، وما منعهم من ذلك الاخوف الله .

وبالجملة قل ان يخلو موطن من مواطنهم من علماء عاملين وزهاد مخبتين ، وصالحين ذوى كرامات ساطعة الانوار رغم بغي البغاة من امراء وقبائل ومن فتن داخلية، ظهرت عقابيلها بعد . فكانت بمثابة جسم قوى يتمتع بحصانة صحية لا تظهر عليه عوارض المرض وان ظلت جراثيمها كامنة فى دمائه ، حتى اذا ما ضعف الجسم ظهرت العوارض من جديد فتغلبت عليه فأوردته مورد العطب . كذلك مجتمعنا هذا ظلت عوامل المحو والابادة تناوشه ، وظل هو بدوره يقاومها بينما قوة مقاومته تضعف شيئا فشيئا حتى القى السلاح واستسلم لضربات الدهر القاسية القاضية . وهكذا ينقرض المذهب الاباضى من هذه المواطن العديدة . فبموت علمائهم ومفكريهم فشا الجهل فى ناشئتهم وعامتهم، وفقدوا من يأخذ بأيديهم الى صراط الله العزيز الحميد ، فعصفت بهم رياح الزيغ وابتلعهم خضم المجتمع فأصبحهم غيرهم بين عشية أو ضحاها الا من رحم ربك .

ونحن اذا استثنينا البقية الباقية بورجلان وجدنا المذهب الاباضى بالمغرب الاوسط ينحصر فى بادية بنى

مصعب (ميزاب) ـ وان لم يكن ثمت بنجوة مما انتابه في مواطنه الاولى ـ ولو ذهبنا نستعرض ما مني به في ادوار تاريخه من خـوف ونهب وسلب وسطو وفوضى وتسلط الاطماع ومن فتـن داخليـة وقحط ومسغبة وامراض وضيق عيش وغير ذلك من ارزاء الحياة لتعجبنا كيف قدر لمجتمع صغير مثله ان يبقى الى اليوم في الوجود . ولعلـه يظل كذلك ـ ما دام يستمسك بالدين ـ صامدا صمـود الجبال الراسية يهـزأ بالانواء والاعاصير . ويضحك في وجه النوائب والمحن الى ان يرث اللـه الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، ومن يدرى ؟ وما ذلك على الله بعزيز .

هذا وبالرغم مما تقـدم فقد استطاعوا ان يحققـوا الاهداف الآتية :

1 ـ وقوفهم كالشجا في حناجر العبيديين المارقين الذين نشروا الزيغ والالحاد . وعاثوا في الارض فسادا : لـم تسلم من ظلمهم وأذاهم طائفة من طوائف المسلمين غـير الشيعيين . ولولا هذه المقاومة لأتت دولة بني عبيد على معالم الايمان الصحيح في مغربنا. ولا حول ولا قوة الا بالله (انظر ان شئت كتاب معالم الايمان للدباغ) .

2 ـ ابقاؤهم معالم حضارة رائعة في سدراتة ونواحيها كما اسلفنا الكلام على ذلك .

3 ـ انشاؤهم مجموعة قرى هي مدن ميزاب آخر معقل للاباضية بالجنوب الجزائرى . وان ما يمتاز به اهلـه من الاستقامة بصفة عامة لشاهد صدق على ما كنا نصف بـه أسلافهم والحمد لله .

وبعد، فبودنا لو تجافينا اثارة الدفين من تاريخنا القديم ونشر بعض ما يتخلله من صفحات قاتمة . لولا قصدنا ان يتعظ بذلك ابناء الجزائر اليوم . ويستفيدوا من اغلاط الماضى عسانا ــ ونحن على اعتاب تشييد دولتنا من جديد ــ ان نقيمها على أسس متينة من العدالة والوحدة والتسامح وتجافى عوامل الانهيار واسباب السقوط التى وقع فيها من سبقنا ، والعاقل من اتعظ بغيره .

يكفى الجزائر ما عانت من عنت الاستعمار ، وما قاست من ويلاتــه وبوائقه ، وما أصل فيها من الجهــل واسباب التفرقة والعداوة والفساد . فــلا ينبغى لنــا بحــال ان نرتكب فى سلطاننا ما نشكوه من غيرنا . وهذا لا يتحقق الا اذا سادت فى الامة الروح الدينية والحصانة الخلقية ، والا فلن تنفع وحدها الجيوش الجرارة فى قمــع الظلم ، ولا كتائــب البوليس والجندرمة فى حفظ النظــام ، ولا محاضرات المرشدين وخطب الائمــة من علياء المنابر فى ايقاف تيار الفساد والاخلال بالامن الذى تتوقف عليــه سلامة البلاد وراحة العباد .

ان ازدهار الاســلام فى عهوده الذهبية التى استطاع فيها انقاذ العباد من عبادة العبــاد . وتحرير الشعــوب المستعبدة من براثن الاضطهاد والاستبداد . انما كــان باقامة الــدين والتخلق بخلق القــرآن الكريم . وسوس الرعية بالعــدل : لا محسوبية ولا محاباة ولا عصبية ولا مداجاة . بهذا ــ لا غير ــ ندعم كياننا ونحافظ على وجودنا ونكسب رضا الخالق والمخلــوق ، ونبقى لنــا فى سجــل التاريخ صفحة ذهبية يتأسى ويعتزى بها مــن ياتى بعدنا من ابنائنا . فاللهم يسر وأعن .

كتـــاب الطبقـــات

لا شـــك ان نهضة علميـــة ظلت قرونا متصلة الحلقات تترك ميراثا ادبيا خصبا يغنى المكتبة الاسلامية عن اللجوء الى مصادر غيرها لمعرفة تاريخها ، ولكن هيهات هيهات ان تبقى ثروة مع الفتن ، والفوضى وجور السلطان وغزوات المغيرين . ونحن اذا اقتصرنا على ما وصل الينا من هـــذا التاريخ ــ كسير أبى زكرياء يحيى الورجلانى ، وسير أبى عمار عبـــد الكاف التناوتى ، وسير أبى سهـــل ابراهيم ، وســـير أبى نوح صالح بن ابراهيم ، وســـير أبى الربيع سليمان بن عبد السلام الوسيانى ، وســـير أبى القاســـم البرادى الدمرى المعروف بكتاب (الجـــواهر) ، وسير أبى الربيع سليمان بن يخلف المزاتى ــ اذا اقتصرنا على ذلك فانه لا يعطينا الا صورة مصغرة لا كاملـــة لتلك الحيـــاة الخصبة . أما غيرها مما اشارت اليه كتب السير ولم يصل الينـــا ككتاب : (المغرب فى تاريخ المغـــرب) للامـــام أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلانى الذى شيد بذكره ، وقيل عنه انه في بعض مكاتب اروبا ــ فمن ميراثنا الضائع، فهو : اما مما قضت عليه بوائق الدهر . واما ان يكـــون مما بقى فى زوايـــا بعض الخزانات فعثت فيه الارضـــة فذهب ضحية الاهمال والامتراش ، والامر لله .

ومن بين الكتب الباقية التى نشرت صحائف ناصعة عن رجال الاباضية العاملين بالشمال الافريقى الى حدود القرن السابع للهجرة ، وفصـــل كثيرا مما اجملناه فى مقدمتنا كتـــاب الطبقات للشيخ أبـــى العباس احمـــد بن سعـــيد الدرجينى . وكتاب الطبقات من مصـــادر ســـير الشماخى الذى يعتبر المرجع الرئيسى في التعريف برجال الاباضية.

والشيخ أبو العباس أحمد الدرجيني من علماء القرن السابع الهجرى ومن أسرة ماجدة ، أسرة علم وتقوى وكفاح ، كان لها المكان الاسمى فى توجيه الجماهير ومشيخة العلم بنفطه ، وقصر درجين وقصطالية من بلاد الجريد ، فهو أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن على بن يخلف المزاتى ، خمسة فى نسق علماء نحارير ، لم يتخلل سلسلتهم الذهبية جاهل أمى ، وزيادة على ذلك فان أبا العباس شاعر ، وأبوه سعيد شاعر ، وجده سليمان شاعر ، بيد أن صاحب الطبقات كان اشعرهم ، كما صرح له بذلك أبوه سعيد اذ قال له : (انت أشعر منى ، وأنا أشعر من والدى) والجد يغلب عليه الشعر الملحون باللغة البربرية ، وبودنا لو اطلعنا على هذه القصائد اذا لتأتى لنا دراسة انفاس شاعر من شعراء ذلك العصر ، وانت خبير ان الشعر الملحون ترجمان الجماهير الشعبية فى احاسيسها وتعبير صادق عن الروح السائدة بينهم .

اما تاريخ ولادته فهو فى مطلع القرن السابع ، قال الشيخ البرادى فى كتابه « الجواهر المنتقات مما اخل به كتاب الطبقات » نقلا عن أبى العباس الدرجينى نفسه يحدث عن بداية تعلمه اذ يقول : (وذلك انى دخلت حلقة وارجلان ـ حرسها الله ـ عام ستة عشر وستمائة فى ربيع الآخر منها فى أول ما وجب علي الصوم ، والبال خال من الهم ، وكنت اعجب ممن ينفرد ولا يجتهد ، وممن يخلو بالمفيد كيف لا يستفيد ؟ ...).

أخذ العلم عن أبى سهل يحيى بن ابراهيم احد علماء وارجلان ، وأيمتها المشاهير فى القرن السابع ، وكان أبو العباس نسيج وحده ذكيا المعيا ، مقبلا بكليته على

التحصيل ، عاملا بوصية ابيه الذى وجهه توجيها صادقا ، ودفع به دفعا قويا بقصيدته التى حظه فيها على الجد فى طلب العلم ، والاكتراع من مناهله العذبة الصافية ، نقطف منها الابيات الآتية :

مضت سنة واستقبلت بعدها أخرى
فياليت شعرى ما تجىء به البشرى ؟

ابالعلم فزتم ، أم الى اللهو ملتم ؟
ونحن نعد العام ، والفصل ، والشهرا

ألا انها تحصى عليك لياليا
فما الترك والاهمام للحر بالاحرى

فحاسب أبا العباس نفسك ، جاهدا
وناقش ، ولا تنس الصغيرة والكبرى

ألا فانتهزها يا أحيمد فرصة
فمن لك دأبا فى استقامتها دهرا

ومهما استقمت قوم الله سعدها
فلست بمبعوث هناك الى عمرا

فكن طالبا جزلا ، اديبا ، مهذبا
ولا تخش حسادا ، وان نظروا شزرا

فان تك تلميذا نبيها ، وحاذقا
فشيخك بحر العلم اعظم به بحرا

فما عذر من استاذه فذ عصره
« أبو سهل » الحبر الذى قد علا فخرا

حوى العلم ، والدين القويم وراثة ،
فاصبح فى ذا العصر أطيبهم ذكـــرا

فقيــه تنــاهى فى العلــوم فحسبــه
بكـــل فقيـــه ماهــر فطــن أزرى

به « ورقــلا » تزهو جمــالا وبهجــة
به اشرقت نورا ، به ابتسمت فخــرا

هذا وقد صرح فى صدر الكتاب انه قسمه الى جزئين ، جزء التاريخ ، وجزء السيرة ، كما قســم كل قرن ــ على غرار أبى عمار عبد الكافى ــ الى طبقتين، الخمسين الاولى، والخمسين الثانية ، وقد سد بهذا التقسيم ثغرة طالما شكا منها الباحثون ، هى خلو المراجع الاولى غالبا مــن تاريخ الميلاد أو الوفاة ، فانبهم لذلك عصر كثير من رجال التاريخ على الباحثين ، فكان فى طريقــة الدرجينى تخفيف مــن مؤونة البحث ، وحصر لعصر كل ــ وكم للنظام من يد فى تيسير العسير ــ ترسم خطى أبى زكرياء يحيى بــن أبى بكر البراسنى فى سيره ، قدما بقدم ، بيد انه فصـــل فى طبقاته ما اجمله أبو زكرياء فى سيره .

على اننا اذا تصفحنا الكتاب لا نجده يقتصر على ذلك ، بل يسير على نهج علماء السير السابقين ، لا تخلو تراجمهم من استطرادات مهمة ، ومحاورات علمية ، قيمة ، لا سيما اذا كانت تتصل بالمترجم لــه مباشرة ، او بسبب قــريب الامــر الذى كانت به كتب التراجــم مشحونة بالابحاث العلمية ، وقــد يشغل مجموعها احيانا الحيز الاكبر مــن الكتاب ، ولذا نجد مصنفنا كثيرا ما يسوق مسالة ثم يكــر عليها جرحا وتعديلا ، وأخيرا يقرر فيها القول المعتمد .

وهكذا ينتقل بنا من تاريخ الى سيرة الى مسائل شرعية وبيـان احكامها الى غـير ذلك مما يجعـل الكتاب سائغا ، مستساغا .

وبالجملة فكتاب الطبقات يعطينا صورة اجمالية عـن رجـال الاباضية الى حـدود القـرن السابع ، والدارس للتاريخ الاسلامى فى الغرب الاسلامى لا يمكن أن يستوفى معلوماته دون الاطلاع على هذا الكتاب القيم ، فتتبعه أيها القارىء الكريم بتـدبر وامعان تجـد الخبر اليقين (ولا ينبئك مثل خبير)

هذا ، وقد شاءت همة الاستاذ ابراهيم طلاي ـ أحـد ابناء الامة النابهين واستاذ الادب بثانـوية البليدة ـ ان يكشف عن هذا الكنـز الدفين ، ويقوم بطبعه وتحقيقه ، وسوف لا يلبث ـ نظرا لمقدرة الاستاذ وعنايته المعهودة ـ ان يقدمه الينا بحول الله وقوته ، تحفة ثمينة ، ودرة غالية ، تسر الناظر ، ويتحلى بها جيد العلم ، وفقه اللـه وسدد خطاه ، انه ولى التوفيق ، نعم المولى ونعم النصير .

ميزاب ، بكلي عبد الرحمن بن عمر



وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور يعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور، خلق الانسان عمله البيان وكل شيء عنده بمقدار سبحان من جعل له عينين ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ، فسعيد يسره لليسرى وشقى يسره للعسرى ، هو الذى خلقكم وما تعلمون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، احمده حمد من عرف جلاله وكبرياءه وأقدس من دون التشبيه صفته واسماءه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين الذى ارسله الله رحمة للعالمين ونسخ بشريعة دينه كل شريعة ودين ، وعلى آله واصحابه الاكرمين ، وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ، وتابعى التابعين صلى الله عليه وعليهم اجمعين صلاة دائمة الى يوم الدين .

وبعد : فان العلم دليل يقتدى به،والى طريق الرشد هاد يهتدى به«انما يخشى الله من عباده العلماء» «والعلماء ورثة الانبياء » وفى الآية والخبر دليل على ان العلم ما صاحبه العمل ، وصادفته الخشية والوجل، فانه من خشي الله تعالى لما لديه ، ويسعى فيما يقدم بين يديه ، وهل لمن عرى من الخشية فوز بعمل الحسنات ، واستحقاق وراثة تلك الدرجات ؟ وينبغى لمن نزع الى هذا النزع وطلب هذا العمل الارفع، ان يتعرف مناقب السلف والاخبار ، ويحصل سيرهم الصالحة ليقتدى بحميد تلك الآثار ، فان ذلك مما يقوى الرغبة والاشتياق (1) والحرص على المصير الى تلك المنازل السنية واللحاق ، ويحض على الطريق الاقوم ، وينهى عن اهواء الهاوين فى هواء الخسران والندم ، فما اقمن من عرف طريق الصلاح ان يتبعه ! وما اقبح من جهة ان يضيعه ! وقد استمرت عادة اصحابنا ان أول ما يمرن عليه المبتدىء اذا وصل ، السكينة والوقار وتعليم سير السلف ، لتكون لهم على اتباعهم معينة ، فاذا اكتسى تلك الحلة قلما بدلها ، ثم بعد ذلك « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » . فالله ينفعهم وينفع بهم فى الدنيا والدين ، ويجعلنا لآثارهم مقتدين ، لا مبدلين ولا مغيرين، وينقذنا برحمته اجمعين ، وهو ارحم الراحمين .

وقد سأل من وجبت طاعته ولم يسع اهمال أمره واساءة طاعته ان اجمع من سير اسلافنا واخبارهم ما تيسر لى جمعه وأضع فى ذلك تصنيفا ، واحرز كل خبر بما يليه من

(1) فى نسخة : الاستيثاق

كتاب ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر رضى الله عنه (1) ، استخلص ذلك وانتقيه فبادرت لاجابة سؤاله ايجابا لمعظم حرمة السؤال وان كان ينبغى ان اكـــون ممن استعفى واستقال فرأيت عصيانه من النكير بل المحظور ، فأخذت في تهذيب الكتاب المذكور واضيف الى ذلك ما لا بد منه من خطبة وشعر غير مشهور ، عـــلى انى معترف بالقصر والفهاهه ، وراغب في الاغضاء من ذوى الفطان والنباهة متيقن ان الماء يطيب بطيب موارده ، وان كان اجاجا ، وقد يعود مرا معافا وان كان عذبا ثجاجا ، ولا شك انى قصدت الفن الذى بدأت بذكره لم احفل بعيب عائب، ولا بشكره ، فان ظفرت بموافقة من أجبت سؤاله فقد ظفرت بالمرغوب، فان قصرت فلا غرو لابطاء السكيت (2) عن شأوى المجلى ، والله اساله . التوفيق والارشاد الى سواء الطريق ، وقـــد رأيت ان اقدم مقدمة تكون فراشا للكتاب ، تفهم منهـــا ألفاظ اصطلح عليه اصحابنا المتأخرون ، وفيها عند مـــن لا يعرفها اضطراب، ثم آتى بتسمية مشائخها وذكر طباقتهم خلفا عن سلف ، على ترتيب يتأتى بيانه ، ليتم المقصـــود ويتألف ، ثم اجرد السيرة وانقلها من الكتاب المذكور ، على حسب ما وقعت فيه ، وما كان فى الفاظه خشونة نقلـــت معانيه فيكون تفهم ما سئلت سهلا على قارئه .

ذكر الفاظ مما اصطلح عليها أهل الطريق وتعارفوه بينهم

فمن ذلك العزابة واحدهم عزابى ، هـــذه اللفظـة

على مـن تطلـق للفظـة العـزابى

---

(1) يشير الى تاريخ ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر الذى لا زال مخطوطا وهو أصل هذا الكتـاب

(2) السكيت بصيغة التصغير : آخر الخيل فى الحلبة عكس المجلى

استعملتها لقبا لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير ، وحافظ عليها وعمل بها ، فان حسن جميع هذه الصفات سمي عزابيا ، وان حافظ على السير والعمل بها فقط سمي به ، وان حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم ، واعلم ان لهذا الصنف سيما انفردوا بها ، واحوالا عرفوا بها ، لا يتفضل عليهم فيها سواهم ، وذلك فى تسميتهم ، وخطابهم ، ومؤاكلتهم، ولباسهم، واوقات نومهم، وقيامهم، واورادهم وصيامهم ، وعبادتهم ، وعندهم فى ذلك قوانين يعتادونها وحدود لا يتعدونها ، وهذا الاسم مشتق من العزوب عن الشيء وهو البعد عنه ، فاستعير لمن بعد عن الامور الدنيوية الشاغلة عن الآخرة ، ولو استقصينا وصف تلك الاحوال لاتسع القول فطال ، وسيأتى ذكر ما امكن من ذلك فى موضعه ان شاء الله ، وأول ما استعمل هذا اللقب فى أيام ابى عبد الله محمد بن ابى بكر رضى الله عنه ، لما أسس الحلقة ورتب قوانينها .

الحلقة ، اسم لجماعة تشتمل على الشيخ يعلمهم العلم ويلقنهم السير ويبصرهم فى الدين بحسب ما يفتح الله على كل واحد منهم ، يحصل البعض ، وان أعياه الكل ، « فان فان لم يصبها وابل فطل » ، فكانهم محلقون ولو انهم مفترقون .

التلميذ اسم للواحد المبتدىء عند الدخول فى الطريق سواء كان طالب فنون أو مقتصرا على الصلاحية فقط ، وأصل هذه اللفظة فارسى .

الختمة

الختمة : اجتماعهم لذكر الله والدعاء عند طلوع الشمس وعند غروبها بشيخ أو بغير شيخ ، وكأنهم يختمون به عمل الليل وعمل النهار .

المجتمع والجمع والميعاد ، ألفاظ مترادفة على معنى واحد وهو ان يجمعهم الشيخ على وعظ يفيدهم ، أو لتذكير أمر مهم يكون شورى من اصلاح فساد أو تلافى فوات ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، فمع الاختيار ان يكون ذلك يوم الاثنين ويوم الخميس ، ويكون فى أى وقت دعت اليه الحال ، ليلا أو نهارا ، فى أى يوم كان ، أول من رتبه ابو الحر على بن الحصين بمكة (I) .

الهجران

الهجران والابعاد ألفاظ تترادف على معنى واحد وذلك متى أجرم واحد من أهل الطريق جرما ، أو ظهرت عليه خزية أو أتى بنقيصة فى قول أو عمل أو تضييع ، فأنه يهاجره كل أهل الصلاح فلا يكلم ولا يحظر جماعة ولا يؤم ولا يؤاكل ، ولا يجالس ، وكانت خطة حالت بينه وبين أهل الخير ، فان تاب واستغفر قبل منه ورجع الى الجماعة ، وزال عنه شين ذلك الوسم ، وكان بقاؤه فى وحشة الهجران بقدر عظم الجرم وصغره ، وتوبة المجرم واصراره ، فمنهم من يتوب فيرجع فى الحال ، ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوما أو يومين أو اياما أو اعواما أو عمره ان عظم الجرم وداوم المجرم على الاصرار ، وترك الاستغفار ، أسأل الله ان يقينا شر انفسنا وشر كل ذى شر .

(I) أبو الحر على بن الحصين العنبرى الشارى من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهما من الشراة ، عاش فى اوائل القرن الثانى للهجرة بجنوب الجزيرة العربية رحمه الله

الظهور : تولية امام عدل يسند اليه الامور .
الكتمان : ملازمة الامر سرا بلا امام .
ولاية الدفاع : ان يدهم أهل الكتمان بداهمة ، فيولوا عليهم من يدفع عنهم العدو .

ذكر طبقات المشائخ وتسمية المشاهير منهم جيلا بعد جيل

هذا الفصل نقتله مما فعله الشيخ ابو عمار عبد الكافى رضى الله عنه : وذلك انه لما رأى العزابة يسندون أمر دينهم واحدا عن واحد ، اكابر عن اكابر ، وثقة عن ثقة ، رأى من حسن نظره ان يكون ذلك جملة عن جملة ، ولم يتخللها خلل ولا اختلال ، لان ذلك اذا كان واحدا عن واحد دخله الغلط ووقع فيه الطعن ولان اخبار الآحاد ضعيفة عند اصحاب الحديث فرتبها رحمه الله على المبين من سني الهجرة ، والتاريخ الذى بينه وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الخمسين من كل مائة ، وسمى من تيسر ذكره ممن اشتملت عليه كل خمسين سنة من المئين المذكورة .

قائمة في اسماء المشائخ

فالذين اجتمعت عليهم الخمسون الاولى من المائة الاولى هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفضيلتهم رضي الله عنهم ، واسماؤهم ومزاياهم أشهر من ان نحتاج الى تعدادهم ، فهم نجوم الهدى ومصابيح الدجا، وانما نعتت على مكانتهم من امهاد الفضل ، تبركا بذكرهم ، ولئلا يكون السكوت عن ذكرهم فى محالهم من التقدم اعراضا ، أو التجوز عن شرفهم غمضا (1) واغماضا . (2)

---
(1) تساهلا . (2) التجاوز عن الشيء وتركه

ومن اشتملت عليهم الخمسون الاخرى من المائة الاولى :
جابر بن زيد الازدى ، وعبد الله بن اباض المدنى ، وعمران بن حطان الشيبانى ، وجعفر بن السماك العبدى وابو بلال مرداس وعروة ابنا ادية ، وهى جدة لهما وهما ابنا جدير حنظليان فيما ذكره المبرد ، وصحار العبدى ، وقريب ، وزحاف ، وسالم بن عطية الهلالى ، والخباب بن كليب، والاحنف بن قيس، واياس بن معاوية، ونظراؤهم كثيرون .

ومن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الثانية :
ابو عبيدة مسلم بن ابى كريمة التميمى ، وضمام بن السائب ، وابو مودود حاجب الطائى ، وابو عبيدة عبد الله بن القاسم ، وابو نوح صالح بن نوح الدهان ، وعبد الله بن يحيى الكندى، وابو حمزة المختار بن عوف الشارى، وبلج بن عقبة، وابرهت ابن عبد الرحمن، وابو الحر على ابن الحصين العنبرى ، وابو يزيد الخوارزمى ، وابو محمد المهدى ، وابو روح ومازن ابنا كنانة ، ونظراؤهم كثير .

ومن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الثانية ومن هنا انتشار المذهب بالمغرب، ولذلك كان رجاله شرقيين وغربيين عربا وبربرا تلامذة ابى عبيدة وغيرهم ، الربيع ابن حبيب ووائل بن ايوب الحضرمى وابو غسان مخلد بن المعرد ، وعبد السلام بن عبد القدوس ، ومحبوب بن الرحيل ، وابو الخطاب المعافرى وهو عبد الاعلى بن السمح وعبد الرحمن بن رستم الفارسى ، وعاصم السدراتى ، وابو داود القبلى ، واسماعيل بن درار الغدامسى ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم ، وابو حاتم الملزوزى وابو سفيان ، ونظراؤهم كثير .

ومن اشتملت عليهم الخمسون الاولى من المائة الثالثة :
أفلح بن عبد الوهاب ، وابو مرداس ، ومهدى ، وابان بن وسيم ، ومحمد بن يانس ، وابو مهاصر ، وابو زكرياء التوكيتى ، وعبد الحميد ، ونظراؤهم كثير .

ممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الثالثة :
محمد بن افلح وابنه يوسف وسعد بن ابى يوسف وعمروس ابن فتح ، وابو منصور الياس ، وابو معروف ، ونظراؤهم كثير .

ومن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الرابعة :
حسنون ابن ايوب ، وابو مسور اليهراسنى ، وابو الخطاب وسيل بن سيتتن (I) الزواغي ، وابو القاسم يزيد بن مخلد ، وابو خزر يغلى بن زلتاف ، وهى امه وهو ابن ايوب ، وعبود المزاتى ، وجنون بن يمريان ، وسليمان بن ماطوس ، وسليمان بن زرقون النفوسى ، ومحمد بن مسلم وابو سهل الفارسى ، ونظراؤهم كثير .

ومن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الرابعة :
أبو نوح سعيد ابن زنغيل وابو صالح بكر بن القاسم اليهراسنى ، وابو زكرياء فصيل بن ابى مسور ، وابو عمر النملى ، وابو موسى عيسى بن السميح الزواغى ، وابو نوح سعيد بن يخلف المدونى ، وابو محمد ويسلان ابن يعقوب ونظراؤهم كثير .

ومن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الخامسة :
ومن هنا ابتداء العزابة ابو عبد الله محمد بن بكر ،

(I) اثبته صاحب السير باسم وسيل بن سنتين ، وكذلك صاحب الاباضية فى موكب التاريخ وهو اصح

وزكرياء ويونس ابنا فصيل بن ابى مسور ، وعبد الله بن مانوج ، وعبد الله بن زورزتين ، وويسلان بن ابى صالح وابو بكر الزواغي ، وورسفلاس ابن مهدى ، وعبد اللـه ابـن الخـير ، وورسفلاس بن عبـد الله ، وابـو مكدول مطكودانس الزنزفى ، وأهل غار « أمجاج » وابو جابر بن سدرمام ، وابو عمران موسى بن زكرياء ، وكباب ابـــن مصلح وابو يحيى زكرياء بن جرنان ، وعبد الله المدونى ونظراؤهم كثير .

وممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الخامسة سليمان بن يخلف ، وابو سليمـان داود بـن ابى يوسف ، وابو العباس احمد بن محمدبن بكر،وعيسى بن يرشوكسن ويحيى بن ابى بكر ، وزكرياء بن ابى زكرياء ، وماكسن ابن الخير، ومزين بن عبد الله، ومصالة بن يحيى، وسليمان ابن موسى ، وعبد الله ابن سلام ، واسماعيل بن بيدير .

وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة السادسة عبد الرحمن بن معلى ، ويحيى بن زكرياء ، وايوب بـن اسماعيل، واسماعيل بن المعيز، وعبد الله بن محمد. فالى هنا انتهت تسمية من سمينا ــ ثـم قال فهـؤلاء ائمتنا فى الدين وقاداتنا فى الاسلام رحمهم الله .

« قال الشيخ ابو العباس » ، فهذا الترتيب الذى رتبه الشيخ ابو عمار عبد الكافى رضى الله عنه حسن فى المعنى الا انه لم يذكر الطبقة التى فيها شيوخـه ومعاصروه الا بعضا من الكل واستغنى فيها عن كثير من العدد ، وفيمـن سمى كفاية ، ولولا قصده الاكتفاء بتسمية من سمى لزدت من معاصره عدة مشائخ ، أئمة أهل علم ودين ، واصحاب

تواليف اضراب عثمان بن خليفة السوفي وقرناؤه ولكنى عدلت عن ذلك اذ المقصود تسمية جماعة فالمحصول قد حصل ، ورأيت ان اذكر جماعة الاشياخ الذين أخذوا عن الجماعة التى انتهى اليها ترتيب الشيخ ابى عمار واضمهم الى الخمسين من المائة التى نحن فيها وهم الذين اخذنا نحن عنهم وفى آخر الكتاب اذكر ان شاء الله ما وصل لى وصح عندى من مناقبهم ، وكراماتهم ، فيتقدم ذكر مناقب من تقدمهم فيكون كل واحد فى رتبته ، ويجرى كل سابق فى حلبته .

فممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة السادسة ابو عمار عبد الكافى بن يعقوب التناوتى ، وابو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي ، وابنه ابراهيم ، وزكرياء ابن صالح ، وفصيل بن ابى مسعود ، واسحاق بن ابراهيم ومحمد التميجارى ، وموسى النفوسى ، وابو نوح بن يوسف وابنه يحيى ، ويوسف بن خلفون ، ومحمد بن ابى على السوفى ، وعبد السلام بن عبد الكريم ، والفضل بن ابى سفيان ، واسماعيل بن صالح ، ويوسف بن محمد الوسيانى ، وفى هذه الطبقة ادركتهم يعدون جدى سليمان ابن علي، وجدى يخلف بن يخلف النفوسى،ونظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة السابعة مشائخ جيلنا فمنهم من صار الى الله ومنهم الاحياء ، فمن الاموات محمد بن ابى جميل ، وسعد بن معاذ ، وابراهيم ابن اسحاق ، وابو سهل يحيى ، وابو يعقوب بن عبد الله ، وميمون بن معدين ، وقد اشير علي بان انظم والدي فى سلكهم، ومن الاحياء ، يحيى بن فصيل، وعيسى بن زكرياء

وصالح بن سليمان الزواغى ، ويحيى بن داود السعيدى(١)
ويبيب بن محمد ، واحمد بن محمد ، وعمر بن يخلف
الزواغى ، ومن هذه الطبقة معاصرون من أهل الاجتهاد
والزهد والكرامات وليسوا هنالك فى العلوم : عبد الكافى
ابن ونمو الريفى، وابراهيم بن عيسى المديونى، وسليمان
ابن يكنى ونظراء النوعين كثير .

فهؤلاء اشياخنا وقادتنا وائمتنا وساداتنا جعلهم الله
اعلاما للهدى وجنبنا باتباعهم سبيل الموبقات والردى
وحشرنا اجمعين فى زمرة أوليائه المتقين .

ثم نأخذ فى ذكر ما بسطنا لاجله مقدمة الكتاب ، ونذكر
الامم فالامم من اخبار المتقدمين ، ونأتى بعده بمناقب
الصالحين ، وربما اندرج ذكر بعض المناقب فى اثناء
التاريخ والاخبار ، والله الموفق وبه نعتصم وهو حسبنا
ونعم الوكيل ، ومن هاهنا ابتدائى فى استخراج ما انبه
عليه من الكتاب المذكور فأول ذلك ذكر سبب مصير مذهب
الاباضية ببلاد المغرب وابتداء أمرهم ونقتله من أرض
المشرق واخبار حملة العلم الخمسة النفر .

اول داع لمذهب الاباضية بالمغرب

حدث غير واحد من اصحابنا عن الامام افلح عن ابنه
عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن بن رستم انه قال : أول
من جاء يطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية ،
سلامة بن سعيد قال قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة
مولى ابن العباس متعقبين على بعير فسلامة يدعو الى مذهب
الاباضية وعكرمة يدعو الى مذهب الصفرية ، فسمعت
سلامة يقول وددت ان لو ظهر هذا الامر يعنى مذهب

---

(١) كذا بالنسخ ولعله بالصاد نسبة الى صعيد مصر

الاباضية يوما واحدا من أول النهار الى آخره فلا أسف على الحياة بعده ، فقام عبد الرحمان مجتهدا فى ذلك الامـــر ، فقال له رجل من أهل الدعوة ان كنت تريد العلم بما كلفت به وعلقت مطلبه بخاطرك ، فدونك أرض البصرة ، فـــان بها رجلا عالمـــا يكنى : ابا عبيدة مسلم بن ابى كريمـــة التميمى ، فانك تجد عنده ما تطلب ، فلذلك توجه عبـــد الرحمن بن رستم الى البصرة رحمه الله ، وقيل ان أمـــه هى التى ارشدته الى ذلك وله حديث سأذكره بعد ان شاء الله عند ذكر الخمسة النفر الذين قرأوا على ابى عبيـــدة واذكر ما صح عندنا من خبرهم فى موضعه من الكتاب .

ذكر فضائل الفرس من العجم

بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى : « يايها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه » الآية اشار الى سليمان الفارسى وكان جالسا بين يديه قال : لعلهم ان يكونوا من رهط هذا ، وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « ان لله كنزا ليس من ذهب ولا من فضة ، لكنه فى بطون ابناء فارس » ، وذكر ابن داب عن عمر بن الخطـــاب رضى اللـــه عنه انه مشى ذات يوم مـــع المغيرة بن شعبة ، وكان المغيرة اعور ، فقال له عمر رضى الله عنه : هـــل أبصرت بعينيك هذه قط شيئا يا مغيرة ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين قال لـــه عمر سيعور الاســـلام كما عورت ثـــم ليعمن حتى لا يدرى من له ولا من عليه ، فاذا اتى عليه مائـــة وستون سنة رد عليه سمعه وبصره ، بوفد كوفد الملوك ، طيبـــة ارواحهم ، صالحة اعمالهم ، فقال لـــه المغيرة من أى مـــاء يا أمير المؤمنين ؟ امن ماء الحجاز ام من ماء العراق ام من ماء

الشام ؟ فولى عنه عمر وتركه ، فوليت الفرس تاهرت على رأس ستين ومائة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو تعلق الدين بالثريا لنالته رجال من العجم ، واسعدهم به فارس ، وروى زيد بن اسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وقصها على اصحابه ، فقال رأيت غنما سوداء خالطتها غنم بيض ، فتأولتها ان العجم يدخلون الاسلام فيشتركونكم فى نسائكم ، واموالكم ، فتعجبوا من ذلك ، فقالوا : العجم يدخلون بلادنا يا رسول الله ! فقال : أي ، والذى نفسى بيده لو ان الدين تعلق بالثريا لنالته رجال من العجم ، واسعدهم به أهل فارس ، ومن طريق آخر ان النبىء صلى الله عليه وسلم قال : لو تعلق العلم بالثريا لنالته الفرس ، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : « ستدعون الى قوم أولى باس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » هم بنو حنيفة وقال بعضهم هم فارس .

قصة سقوط شرافات الايوان وملوك فارس

وذكر ابن قتيبة وعمرو بن بحر الجاحظ وغيرهما من اصحاب التاريخ عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لما كان ليلة مولد النبىء صلى الله عليه وسلم ، ارتج ايوان كسرى ، فسقطت منه اربع عشرة شرافة فعظم ذلك أهل مملكته فما كان باوشك من ان كتب اليه صاحب اليمن يخبره ان بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وكتب اليه صاحب الشام يخبره ان وادى السماوة انقطع تلك الليلة وكتب اليه صاحب طبرية يخبره ان ماء تلك الليلة لم يجر فى بحيرة طبرية ، وكتب اليه صاحب فارس يخبره ان بيوت النيران خمدت تلك الليلة ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة فلما تواترت الكتب عليه ابرز سريره وظهر لاهل مملكته ، فاخبرهم الخبر ، فقال : الموبذان ايها الملك انى رأيت تلك

الليلة رؤيا هالتنى ، قال له وما رأيت ؟ قال له : رأيت ابلا صعابا تقود خيلا عرابا حتى اقتحمت دجلة وانتشرت فى بلادنا فقال له : لقد رأيت ، فما عندك فى تأويلها ؟ فقال له:ما عندى فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن ارسل الى عاملك بالحيرة يوجه اليك رجلا من علمائهم فانهم أهل علم بالحدثان فبعث اليه فوجه اليه عبد المسيح بن نفيلة الغسانى ، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر فقال : ايها الملك والله ما عندى فيها ولا فى تأويلها شيء ، ولكن جهزنى الى خال لى فى الشام ، يقال له سطيح فقال : جهزوه ، فلما قدم على سطيح وجده احتضر فناداه فلم يجبه وكلمه فلم يرد عليه فقال عبد المسيح :

اصم ام لم يسمع غطريف اليمن
يا فاضل الحطة اعيت من ومن

اتاك شيخ الحى من آل سنن
ابيض فضفاض الرداء والبدن

رسول قيل العجم يهوى للوثن
لا يذهب الوعد ولا ريب الزمن

فرفع اليه سطيح رأسه فقال : عبد المسيح على جمل مشيح الى سطيح ، بعثك ملك بنى ساسان لارتجاج الايوان وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى ابلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، حتى اقتحمت الوادى ، وانتشرت فى البلاد ! عبد المسيح : اذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وغارت بحيرة ساوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليس الشام بشام ، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرافات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قال :

ان كان ملك بنى ساسان افردهـــم
فان ذا الدهـــر اطـوار دهاريـــر

منهم بنو الصرح بهـرام واخوتـــه
والهرمزان ، وسابـور وسابـــور

فربما اصبحـــوا منهـــا بمنـــزلة
تهـاب صـولهم الاسـد المهاصـير

حثو المطى ، وجـــدوا فى رحالهـــم
فما يقـوم لهـم سرج ، ولا كـــور

والناس أولاد عـــلات ، فمن علموا
ان قـــد أفـل فمحقور ومهجـــور

والخـير والشر مقـرونان فى قـــرن
فالخـــير متبـــع ، والشر محـــذور

ثم اتى كسرى فأخبره الخبر فغمه وهاله ثم تعزى ، وقال الى ان يملك اربعة عشر ملكا يدور الزمان ، فملك منهـم تسعة الى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن قتيبة فالله أعلم ممن التمام، وليس الا الخمسة الائمة الذين ولوا بتاهرت من أرض المغرب ، ولوها نيفا عـلى مائـــة وخمسين فيما ذكر بعض الرواة ، قال ابو العباس احمـد رحمه الله . اما قول الشيخ ان التمام كان بالائمة الخمسة وانهم منهم فانما اراد فى النسب لا فى غيره ، واراد ان ولايتهم اذ ولوا صحيحا الا ان ولايتهم على دين الاسـلام ومذهب العدل والقوام .

فضائل البربر من العجم

وعن فضائل البربر من العجم ما بلغنى ان عائشة رضى

الله عنها ، دخل عليها ذات مرة رجل من البربر وهي جالسة ومعها نفر من المهاجرين والانصار ، فقامت عائشة عن وسادتها فطرحتها للبربرى دونهم ، فانسل القوم واجلين بذلك ، فلما قضى البربرى حاجته وخرج ارسلت اليهم عائشة ، حتى اجتمعوا اليها ، فقالت لهم : ما الذى اوجب خروجكم على تلك الحال ؟ قالوا : لايثارك علينا وعلى نفسك رجلا كنا نزدريه ، وننتقص قومه ، فقالت انما فعلت ذلك لما قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت أتعرفون فلانا البربرى ؟ قالوا نعم ، قالت كنت انا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات مرة جالسين ، اذ دخل علينا ذلك البربرى ، مصفر الوجه غائر العنين ، فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما دهاك ؟ أمرض ؟ فارقتنى بالامس ظاهر الدم ، فجئتنى الساعة كأنما انتشرت من قبر ، فقال ، يا رسول الله صلى الله عليه وسلم،بت في هم شديد ، فقال ما همك ؟ قال : تردد بصرك في بالامس خفت ان يكون نزل في قرآن ، فقال : لا يحزنك ذلك ، فانما ترديدى البصر فيك لأن جبريل عليه السلام جاءنى ، فقال أوصيك بتقوى الله وبالبربر قلت : وأى البربر ؟ قال قوم هذا ، واشار اليك، فنظرت اليك ، فقلت لجبريل ما شأنهم ؟ قال : قوم يحيون دين الله بعد ان كاد يموت ويجددونه بعد اذ يبلى ثم قال جبريل : يا محمد دين الله خلق من خلق الله نشأ بالحجاز واهله بالمدينة ، خلقه ضعيفا ثم ينميه وينشئه ، حتى يعلو ويعظم ، ويثمر كما تثمر الشجرة ، ثم يقع وانما يقع رأسه بالمغرب ، والشيء اذا وقع لم يرفع من وسطه ، ولا من اسفله ، انما يرفع من عند رأسه .

وفد من البربر يفد على عمر ابن الخطاب

وبلغنا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قدم عليه

وفد من البربر ، من لواتة ارسلهم اليه عمرو بن العاص وهم محلقو الرؤوس واللحا ، فقال لهم عمر من انتم ؟ قالوا من البربر من لواتة ؟ فقال عمر لجلسائه : هل فيكم من يعرف هذه القبيلة في شيء من قبائل العرب والعجم ، قالوا : لا ، قال : العباس بن مرداس السلمي عندى منهم علم يا أمير المؤمنين هؤلاء من ولد بنى قيس ، وكان لقيس عدة من الاولاد ، احدهم يسمى بربر بن قيس ، وفى خلقه بعض الرعونة فقال : اخرق ذات مرة فخرج الى البرارى ، فكثر بها نسله وولده ، فكانت العرب تقول تبربروا أى كثروا فنظر اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستحضر ترجمانا يترجم كلامهم ، فقال لهم مالكم محلقو الرؤوس واللحا ؟ فقالوا شعر نبت فى الكفر ، فاحببنا ان نبدله بشعر ينبت فى الاسلام ، فقال هل لكم مدائن تسكنونها فقالوا : لا ، قال : فهل لكم حصون تتحصنون فيها ؟ قالوا : لا ، فقال : هل لكم اسواق تتبايعون فيها ؟ قالوا : لا ، قال : فبكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له جلساؤه وما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر أبكانى حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم حنين ، حين انهزم المسلمون فنظر الي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبكى فقال ما يبكيك يا عمر ؟ فقلت أبكانى قلة هذه العصابة من المسلمين ، واجتماع أمم الكفر عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تبك يا عمر ، فان الله تعالى سيفتح للاسلام بابا من المغرب بقوم يعز بهم الاسلام ويذل بهم الكفر، أهل خشية وبصائر يموتون على ما أبصروا، وليست لهم مدائن يسكنون فيها ولا حصون يتحصنون فيها ، ولا أسواق يتبايعون فيها ، فلذلك بكيت الساعة . حين ذكرت

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ذكر من الفضل عليهم فردهم الى عمرو بن العاص وأمره ان يجعلهم في مقدمات العسكر ، واحسن اليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأكرمهم ، وأمر عمرو بن العاص ان يحسن اليهم ، فكانوا مع عمرو بن العاص حتى قتل عثمان ، فلما كان هذا الخبر في عصابة من أهل المغرب عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجونا ان يكونوا ائمتنا ومن اقتفى آثارهم ، وان يكونوا أهل تلك الفضيلة .

كانوا يقاتلون ليقيموا دين الله

وبلغنا ان رجلا من ذرية ابى بكر الصديق رضى الله عنه عن بعض الخلفاء انه قال : يا اهل مكة ويا اهل المدينة أوصيكم بالله وبالبربر خيرا ، فانهم سيأتونكم بدين الله من المغرب بعد ان تضيعوه ، هم الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » . لا ينظرون في حسب أمرىء غير طاعة الله ، قال البكرى : فمن حين وقعت الفتنة انما نقاتل نحن العرب على الدينار والدرهم وأما البربر فانهم يقاتلون على دين الله ليقيموه ، قال : وهو يرفع الحديث الى ابن مسعود رضى الله عنه ان آخر حجة حججنا قام خطيبا فقال : يا اهل مكة ويا اهل المدينة أوصيكم بتقوى الله وبالبربر فانهم سيأتونكم بدين الله من المغرب ، وهم الذين يستبدل الله بكم اذ يقول : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم » والذى نفس ابن مسعود بيده لو ادركتهم لكنت لهم أطوع من امائهم ، واقرب اليهم من دثارهم ،

وبلغنا عن عائشة رضى الله عنها انها أبصرت صبيا له ذؤابتان ذا جمال وهيئة فقالت من أى قبيل هذا الصبى الشقى ؟ قالوا من البربر ، قالت عائشة البربر يقرون الضيف ويضربون بالسيف ويلجمون الملوك لجام الخيل .

تفضيل البربر لا يعني تفضيلهم على العرب فهم فى الدرجة الاولى

قلت وانما قدم الشيخ رحمه الله ذكر الفرس والبربر تنبيها على فضيلة ائمتنا اذ كانوا من الفرس وفضيلة من انتهى اليه مذهبنا بالمغرب اذ كانوا جلهم البربر ولم يقصد بذلك تأخير العرب عن الفضيلة اذ فضيلة العرب افضل وشرفهم أقدم فمنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واصحابه ، وعلى ألسنتهم أنزل القرآن ، ومنهم كان اسلافنا من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، ولكل خصلة من الفضل بحسب عطاء الله ويسره له ، والله يؤتى من فضله من يشاء والله واسع عليم .

سوق الحديث الى ذكر النفر الخمسة الحملة العلم وأخبارهم

أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى ، وعبد الرحمن بن رستم الفارسى، وعاصم السدراتى، واسماعيل ابن درار الغدامسى ، وابو داود القبلى ، وتحدثهم الى ابى عبيدة رحمه الله وأخبارهم الاول فالاول .

أخبار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسى رحمه الله

كان مولده بالعراق وكان ابوه منجما وكان يرى فى علم مدخر عندهم ان ذريته ستلى أرض المغرب ، وكان أبوه رستم متوجها من العراق ومعه عبد الرحمن ابنه وزوجته

ليصل الى أرض المغرب ، فلما كان بمكة أو قريبا منهـــا ادركته حمامه ، وانتقضت ايامه ، فلقي عبد الرحمـــن وامه الحجاج من أهل ارض المغرب بمكة فتزوج رجل من القيروان ام عبد الرحمن ، فأقبل بهما حتى قدموا أرض القيروان ، ونشأ بها عبد الرحمن .

انتقـال عبد الرحمن ابن رستم الى المشرق طلبا للمعلـم

فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وتصفح ، نظر اليه رجل من أهل مذهبنا ، فقال له يا بنى ، ان كنت جادا فيما أراك تطلبه فاقصد أبا عبيدة مسلم بن ابى كريمة ، تجد عنـــده ما تطلب . فسار عبد الرحمن بن رستم الى ابى عبيـــدة رحمه الله فاجتمع بالنفر الذى ذكرنا ، فقصدوا ابا عبيدة فصافحهم ابو عبيدة وسألهم عن أحوالهم ، ومن أين أقبلوا فاخبروه انهم أرادوا تعلم العلم، فاجابهم الى ذلك ، ومكثوا عنده عدة سنين ، وكان ابو عبيدة رحمه الله مستخيفـــا تخوفا من بعض امراء البصرة (I) فادخلهم سربا وجعـــل فيه سلسلة وطفـــق يعمل القفاف بباب السرب فمتى رأى شخصا مقبلا حرك السلسلة فسكتوا فاذا انصرف حركها فيأخذون في دراستهم ، وكان عبد الرحمن شابا جميـــلا حديث السن وكان ابو عبيدة يجعل بينه وبين الناس سترا لئلا يشغلهم بجماله ، فلما بلغـــوا من العلم ما شاء اللـــه وأرادوا الانصراف الى بلادهم رغب عجائز متصلحات من المذهب الى ابى عبيدة فى ان يريهن عبد الرحمن ليودعنه ويزودنه بالدعاء ، فقالت احداهن : بارك الله فيك كما بارك فى عين الشمس ، وقالت الثانية بارك الله فيك كما بارك فى انسان العين ، وقالت الثالثة : بارك الله فيـــك كما بارك فى مطيب الطعام من الملح . فلما عزموا عـــلى

يدرسون فى سرب خفيـــة

(I) هو الحجاج بن يوسف امير الامويين على العراق

المسير الى بلادهم كلموا ابا عبيدة وشاوروه فيما يستقبلون من أمورهم ، فقالوا له : يا شيخنا أرأيت ان لو كانت لنا قوة بالمغرب ووجدنا فى انفسنا طاقة أفنولى علينا رجلا منا ؟ فقال لهم ابو عبيدة توجهوا الى بلادكم فان يكن فى أهل دعوتكم من العدد والعدة ما تجب معه التولية عليكم ، فولوا على انفسكم رجلا منكم ، فان ابى فاقتلوه ، واشار الى ابى الخطاب رحمه الله تعالى .

اسماعيل بن درار يسال الشيخ ويستفتيه ورجله فى الركاب

قالوا فلما أرادوا الخروج من عنده هيأ الشيخ المركوب لتوديعهم ، ووضع رجله فى الركاب فسأله اسماعيل عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الاحكام قبل ان يستوى على متن الدابة ، فقال له : ابو عبيدة اتريد ان تكون قاضيا يا ابن درار ؟ قال له : أرأيت ان ابتليت بذلك ! فبماذا تأمرنى يرحمك الله ؟ وقد ذكر انه انما قال له ذلك فى موطن قبل الموطن المذكور . ثم توجهوا الى المغرب فلما وصلوا عرضوا الامامة على عبد الرحمن فاعتذر بامانة كانت عنده للناس فقبلوا عذره وأرادوا تولية ابى الخطاب رحمه الله .

فلنذكر ولايته وايامه وسيرته .

قال الشيخ أبو العباس رحمه الله انما وضع الشيخ رحمه الله فى هذا الموضع من كتابه ذكر ولاية ابى الخطاب ، ثم ولاية الفرس ، لما اعتمده من ذكر ولاية الفرس وانتشار المذهب وائمته ونقله الى أرض المغرب فلما كان ذلك هو المهم جعله أولا ، والذى ينبغى ان نقدم نبدأ بذكر من استخلف من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم امامة عبد الله بن وهب الراسبى رحمه

الله ونبذاً من اخباره ، ثم نأخذ السير على التدريج ، ولعل فعله اصلح والذي رآه انجح ، اذ علم ما عداه قد انتهى حفظ الاكثرين اليه واغنت شهرته عن الدلالة عليه ، فنشرع في ذكر ولاية من ولى بالمغرب ، ولنبتدىء بذكر ابى الخطاب رحمه الله ، وله التقدم لسبقه اليه ولاستحقاقه اياه ، وسبق فضيلة العرب ثم لا بد ان شاء الله من ذكر ما امكن من اخبار من اشرت اليهم فى موضع يفرد لذلك ان شاء الله تعالى .

امامة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح
رحمه الله ورضى الله عنه

ذكر بعض اصحابنا انه لما قدم ابو الخطاب واصحابه من المشرق الى اطرابلس اهتم بامور الناس ومصالح المسلمين من له فيهم نظر من المشائخ والاعيان ، وافاضل الناس ، واجتمعت جماعة ممن وصفته، وذلك بعد قتل الحارث وعبد الجبار ، والناس حينئذ فى الكتمان فكانوا يتفاوضون فى عقد الامامة ، وفيمن هو اهل لها ، فاجالوا افكارهم فيمن يولونه امورهم ، ثم اذا اجتمع رأيهم على امضاء ذلك جعلوا يرددون النظر فيما عزموا عليه هل لهم به طاقة ؟ وهل يستطيعون مدافعة عدوهم ام لا ؟ فكانوا يجتمعون فى موضع يقال له « صياد » بخارج مدينة طرابلس ويظهرون انهم يجتمعون فى قضية أرض مشتركة بين قوم ارادوا قسمتها ، وذكر انما اظهروا انهم اجتمعوا فى قضية لرجل وامرأة تخاصما فيها وتفاقم امرهما فكانهم يريدون اصلاحهما، وكلما انقضى مجلس وانفصلوا دخل منهم جمع الى والى المدينة فسلموا عليه مداراة له ، حتى اذا اتفق

رأيهم على عقد الامامة اجتمعت كلمتهم على مبايعة ابى الخطاب رحمه الله .

مبايعة ابى الخطاب بالامامة خارج طرابلس

وذكر بعض اصحابنا انهم لما اتفقوا على ذلك جعلوا بينهم موعدا معلوما ليجتمعوا فيه بصياد ، فاتفقوا على ان يأتي كل واحد منهم بجماعة رجال من عشيرته واتباعه ، وان يأتوا بالاسلحة ويجعلوا الدروق في الجواليق ويخفونها بالتبن ، وجعلوا امارة بينهم وبين من فى المدينة من مشائخ أهل دعوتهم ومن لا يقدر على النهوض معهم انهم اذ رأوهم دخلوا المدينة بجماعتهم ان يشهروا السلاح ، واخبروهم سرا ان الامام ابو الخطاب، فلما كانوا بالموعد الذى يجتمعون فيه بعامة المسلمين من شيوخ القبائل من نفوسة وهوارة وزريشة ، وزناتة وغيرهم فتوافوا بصياد ، ومعهم ابو الخطاب ، حين عمدوا لعقد ما اعتقدوا قالوا له امض معنا على بركة الله الى الامر الذى ترددنا فيه منذ زمان ، قال فخرج معهم ابو الخطاب ولم يدر ما يريدونه فلما وصلوا صياد تكلم متكلمهم ، فقال أليس قد اجتمع رأينا على ما قد علمتوه ؟ قالوا بلى ، قال فأتموا أمركم اذا ، فقامت منهم طائفة ناجية فتناجنوا ساعة، ثم رجعوا فقالوا لابى الخطاب أبسط يدك لنبايعك على ان تحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيئه صلى الله عليه وسلم وآثار الصالحين ، فقال لهم ابو الخطاب ما حسبت ان لهذا كان خروجى معكم ، فقالوا لا بد لنا من تقليدك أمور المسلمين . فلما رأى جدهم ، قال لا اقبل ان اتحمل امانتكم الا على شرط، قالوا كل شرط يجوز فنحن نعطيكه ، ونعطيك فيه ، فقال لهم : شرطى عليكم ان لا تذكروا فى عسكرى مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفا من ان يكون فى جماعة المسلمين اختلاف وفرقة .

بيان مسألة الحارث وعبد الجبار واختلاف الناس فيها

وقد حدث بعض اصحابنا ان مسألة الحارث وعبد الجبار اتصلت الى المشرق فكان بين اصحابنا الذين في المشرق بهذه المسألة اختلاف وفرقة وفى المغرب اشد من ذلك ، حتى كتب اليهم ابو عبيدة وابو مودود حاجب الطائى رضى الله عنهما بالكف عن ذكرها . قال الشيخ ابو العباس الخلاف الذى فى المسألة قديما وحديثا اصله فى الولاية المعينة هل تنتقل الى الوقوف أم لا الا ان انتقلت بحكم متعين الى البراءة ؟ وهذه المسألة مبنية فى العقائد وفى الفقه ، على اليقين هل يدفعه الشك ؟ فعند اصحابنا ان اليقين يدفع الشك ولا يدفعه الشك ، فالولاية لا تنتقل الى الوقوف ، وعند الزيدية انها تنتقل الى الوقوف ولهم فى ذلك اشكالات يأتى ذكرها ومدافعتها ، وذلك ان الحارث وعبد الجبار كانا رجلين موصوفين بالصلاح ، وهما من أهل الولاية ، فوجدا فى موضع واحد مقتولين وسيف كل واحد منهما فى جثة الآخر . فوقع الاختلاف فيهما ، فقائل يقول ان كلا منهما قتل الآخر، فينبغى ان نبرأ منهما فهذا ارذل الاقوال ، وقائل بان كل واحد منهما قتل الآخر الا انا لا ندرى الباغى منهما فنبرأ منه ولا المبغى عليه فنتولاه فلا يسعنا الا الوقوف عن ولايتهما والبراءة منهما هذا قول اصحاب عبد الله بن يزيد ، فقائل انهما باقيان على ما كانا يستحقانه من الولاية لان صلاحيتهما متيقنة وقتل احدهما الآخر مشكوك فيه فلا نتوقف عن ولايتهما فهذا من الاحتمال ، اذ من الاحتمال الذى سبق الى الخيال ان يكون البغاة الذين قتلوهما قد أولجوا سيف كل واحد منهما فى جثة صاحبه وتركوهما لما أرادوه من هذا الخلاف

اليقين هل يدفعه الشك أو لا يدفعه الا اليقين

فهذا قول اصحابنا . وللزيدية (١) هنا افراط بمسئلتين ، احداهما ان يقع اللعان بين الزوجين وهما من أهل الولاية فلا بد ان يكون البعل قاذفا أو تكون المرأة زانية ، وكـــلا الفاحشتين من الكبائر الا انا لا ندرى من ارتكبها منهمـــا فعلينا الوقوف أو البراءة ، والثانية ان ترى من بعـــد رجلين من أهل الولاية وقد جرد كل واحد منهما سيفـــه ، وضرب صاحبه حتى ماتا ولست تدرى الباغي ولا المبغى عليه ، قلنا هذا كله احتمالات ولنا فى رسول الله اســوة حسنة ، اذ نزل عليه : « وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحـــن نعلمهم » ، فلم يبلغنا عنه صلى الله عليه وسلم انه توقف عن مواصلة احد ممن اظهر الايمان من أهل المدينة ولا من الاعراب ولا انه تجنب احدا مع انه صلى الله عليه وسلـم اعلم انه لا يعلمهم ، وان الله تعالى يعلمهم ، بل أبقاهم على ما هـــم عليه مـــن الولاية المتقدم اليقين بها حـــتى فضحتهم الآية من سورة براءة فى قوله تعالى : ومنهـــم ، فلما عرفوا يقينا انتقلت الولاية الى البراءة ، فاطلب ذلك فى موضعه تجده .

وبلغنى عن ناس من اصحابنا الذين بالشرق . بل قد وقفت عليه من قولهم : انهم رجحوا قـــول اصحابنا فى القتيلين والمقتولين ، ورجحوا قول الزيدية فى الملاعنيين فاعتمد هداك الله على القرآن وما تعلق به يدحض كـــل قول يخالفه ، فهذا هو الخلاف الذى فى المسئلة .

رجعنا ، فأراد ابو الخطاب رضى الله عنه ان يقطـــع الاختلاف من جماعة المسلمين بامامته ، فقالوا له لك ذلك

---

(١) لعله اليزيدية . تامل

علينا ، فبايعوه على القيام بحقوق الله ، وعلى ما فى الكتاب والسنة واتباع الائمة المهتدين ، فقبل مبايعتهم ، وانصرف الى المدينة ومعه جماعة المسلمين ، وذكر بعض أصحابنا ان ولاية ابى الخطاب كانت على رأس اربعين ومائة سنة ، ثم اجتمع رأيهم على دخول المدينة مدينة طرابلس وبها عامل لابى جعفر المنصور ، فعمدوا الى رجال باسلحتهم فحملوها فى الجواليق على الجمال ، وكأنهم عير أقبلت الى المدينة ، وقد جعلوا افواه الجواليق الى داخلها من اسفل ، وجعلوا مع كل جمل رجلين بالسلاح ، فلما توسطوا المدينة ولم يفطن احد بما صنعوا فتحوا الجواليق ، فخرج الرجال والسلاح فى ايديهم ، وقالوا : لا حكم الا لله ، ولا طاعة الا طاعة الله وطاعة ابى الخطاب ، وقصدوا نحو العامل ليقتلوه ، فأبى عليهم ابو الخطاب من ذلك ، وقال : انما دخلنا عليهم بالامان . فلما رءاهم أهل المدينة وقد شهروا السلاح قالوا : هذه غدرة ، فقال لهم اصحاب ابى الخطاب : لا بأس عليكم لسنا بأهل غدر . فمن اراد العافية منكم فليقم فى منزله ، وخير ابو الخطاب العامل فى الاقامة فى المدينة وينخلع عن العمل ، أو الخروج بالامان . فاختار الخروج الى أرض المشرق ، ودفع لابى الخطاب مفتاح بيت المال فأخذها منه .

فاحسن ابو الخطاب رضى الله عنه السيرة وعدل فى سيرته واحكامه ، وكانت ولاية ابى الخطاب اربع سنين وقد ولي على رأس أربعين ومائة ، وبلغنا ان امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة الى الامام ابى الخطاب رضى الله عنه تشكو اليه جور «ورفجومة» تقول فيما كتبت له : « اما بعد (يا أمير المؤمنين) فان لى ابنة وقد بلغت فى الخوف عليها

من ورفجومة والموطة عليها ان حفرت حفرة تحت سريرى وصنتها فيها عنهم خشية ان يفسدوها كما فعلوا بامثالها فانظر الينا والسلام» وكانت ورفجومة ولاة مدينة القيروان فلما وصلت البطاقة الى ابى الخطاب رضى الله عنه صادفته وهو يتوضأ ، فقرأها وجعل يبكى رحمة بما نزل بها، فنادى (الصلاة جماعة) واجتمع اليه الناس وصلى بهم ، ثـــم صعد المنبر خطيبا ، فحمد الله واثنى عليه ثم أخـذ فى ترغيب اصحابه فى الجهاد وامــــر رعيتــــه فى التأهـب والاستعداد ، وان يعزموا على المصابرة والجلاد ، فخرج من المسجد وسل عند بابه سيفه وكسر غمده ، قال : لا حكم الا لله ترغيبا فى الجهاد وغضبا لله ولدينه ، وبلغنا من طريق آخر ان ورفجومة اخرجوا امرأة من القيروان وهى تصيح وتقول : اغيثونى معاشر المسلمين ، فلم تجد احدا يدفـع عنها فلما بلغ ابا الخطاب رحمه الله ما نزل بها ، واستغاثتها بمعشر المسلمين فلم تجد احدا يدفع عنها قال ابو الخطاب مجيبا لها : لبيك لبيك . وقد ذكر بعض اصحابنا ان امرأة من أهل القيروان طلبها ورفجومة فصاحت من القيروان يا ابا الخطاب اغثنى فمد الله في صوتها فسمعها ابو الخطاب من مدينة طرابلس ، فقال لها : لبيك يا اختاه ، قال الشيخ ابو العباس رحمه الله ولا ينكر هذا وامثاله من كرامات الاولياء يؤيده ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله جل وعلا : « لا يزال العبد يخدمنى حتى احبـه فاذا احببته وهبت له عينى فيرى بها وسمعى فيسمـــع بها » الحديث ، ولا تقل العين والاذن ههنا جارحتان ، بل الكلام عليهما كالكلام على امثالهما مما نزل فى القرآن وفيمـا ورد فى السنة ، وكل ذلك محمول على قدرة الله تعـالى ،

ابـو الخطاب يهاجم القيروان ليجعل حدا لافساد ورفجومة

قال : فعند ذلك امر ابو الخطاب مناديه بان ينادى : النفير النفير،فعسكر على طرف المدينة حتى اجتمع اليه من اصحابه جموع كثيرة ، ثم ان ابا الخطاب خرج فيمن اجتمع له من اصحابه ومعه عبد الرحمن بن رستم الفارسى رضى الله عنه ، فخرجوا فى سنة ممحلة ذات جوع وجذب ، فأمدهم الله بالجراد،فاذا نزلوا نزل معهم،واذا ارتحلوا ارتحل معهم.

تخيير ابى الخطاب جنده بين الجهاد او الرجوع

وبلغنا ان ابا الخطاب لما خرج أمر مناديه فنادى : ايها الناس من له ابوان كبيران أو احدهما فليرجع ، ومن له عروس قريب عهدها فليرجع ، ومن اراد الرجوع منكم فليرجع بالليل ، فلما جنهم الليل رجعت طائفة من عسكره. فلما كان بالغد أمر خيلاتقطع وراءه فوجد اثر من رجع من الناس الى أهلهم ، ثم فعل ذلك فى الليلة الثانية وفى الليلة الثالثة ، حتى رجعت خيله فاخبرته بانه لم يبق من يرجع ، وانه لم يبق معه الا من له رغبة فى الجهاد . فعرض عسكره في ستة آلاف،وقال فيما قال : انى لأرجو لمن خرج في عسكرنا ومات مجاهدا ان يكون من أهل الجنة الا من فيه احدى ثلاث : قتل نفس بغير نفس ، وافتراش فى حرام . واقتناء أرض غصبا . فمن كانت فيه هذه الخصال أو واحدة منهن فليعلم انه واجد منهن مخرجا أما قاتل النفس فبان ينقاد لاولياء المقتول ، فان لم يعلم له ولي فليدفع نفسه فى سبيل الله ، واما الاثنتان الاخيرتان فانه ليشهد على نفسه بتركهما والتخلى عنهما . وبلغنا ان ابا الخطاب مر بمدينة «قابس» فحاصر اهلها حتى ضعفوا واذعنوا له بالطاعة فجعل على المدينة عاملا ، وارتحل حتى اذا نزل على القيروان فحاصر

استشهاد عاصم السدراتى فى حصار القيروان

أهلها اشد الحصار ما شاء الله ، وفى مدة حصاره القيروان مرض عاصم السدراتى مرضا شديدا ، وكان من اخيار

أهل العسكر ، وانجدهم، واشهدهم شوكة على أهل القيروان فسمع بمرضه أهل القيروان وانه اشتهى القثاء فبعث أهل القيروان ببائع القثاء ، فسموا واحدة من قثائه ، وأمروه ان لا يبيعها الا لعاصم السدراتى فمضى البياع بما عنده من القثاء الى المعسكر ، فاشترى لعاصم اصحابه تلك المسمومة ، فأتوه بها فاكلها فثار فيه سمها ، حتى هلك ، وقد هرب البياع حين باعها فاستشهد عاصم رحمه الله ، فصاح أهل المدينة اين عاصم السدراتى المقتول بالسم ؟ ثم جعلوا يقولون مات عاصمكم يا بربر . فعلم ابو الخطاب انهم خدعوه وبلغ منه موت عاصم مبلغا عظيما ، فقال لاصحابه : انهم خدعونا وغدرونا ، فسنخدعهم ونغدرهم كما فعلوا ، فخدعهم رحمه الله ، وامر أهل العسكر بان يأخذوا سلاحهم ويخلوا اخبيتهم ويخرجوا تحت الليل ويأخذوا الطريق شبه الهاربين مذعورين ، فاصبح منزل عسكر ابى الخطاب خاليا ، فظن أهل القيروان انهم هربوا منهم ليلا ، وقالوا : انهزمت البربر ، واخذوا بآثارهم ، ومضى ابو الخطاب رحمه الله فيمن معه الى واد وراء فحص رقادة ، وكمن فيه بخيله ورجله، فأخذ اهل المدينة فى طلب ابى الخطاب واصحابه. فلما لحقوا بهم، وجدوهم معسكرين فثار ابو الخطاب واصحابه في وجوههم ، فهزموهم فتبعهم ابو الخطاب واصحابه ، يقتلونهم ، حتى دخلوا معهم المدينة فتحصلت المدينة لابى الخطاب في سنة احدى واربعين ومائة من التاريخ

فلما ولى ابو الخطاب المدينة استعمل عليها عبد الرحمن بن رستم رحمه الله ، وقد أمر ابو الخطاب اصحابه حين كان فى حصار المدينة ان لا يفسدوا زرعا ولا غيره .

انه لا يشبه من ولي عليكم من قبل

وحدث بعض أصحابنا ان شيخا من شيوخ القيروان بعث ابنا له يرتاد مزرعة كانت له بقرب منزل عسكر ابى الخطاب فقال يا بني : اذهب وانظر هـل بقي فى مزرعتنا شيء ، قال : فخرج الغلام الى المزرعة فوجدها سالمة لم ينلها فساد ، فرجع الغلام الى ابيه فأخبره ، فعجب لذلك وعجب الناس لعدل ابى الخطاب وسيرته وطاعة اصحابه له فيما يأمرهم به وينهاهم عنه . وكان من مقالة الشيخ المذكور اذ ذاك لمن حضره من أهل القيروان : أتظنون ان ابا الخطاب يشبه من ولي عليكم قبله دينا وفضلا ؟ وان سيرتهم كسيرته حسنا وعدلا ؟ كلا والله . أين مثل ابى الخطاب فى سيرته وعدله وفضلـه !

وبلغنا ان امرأتين قد خرجتا من القيروان حين فتحها الله لابى الخطاب بعد هزيمة اهلها ، فنظرت احداهما الى القتلى مزملين فى ثيابهم كانهم رقود ، فقالت لصاحبتها : انظرى اليهم كانهم رقود . فسمي ذلك الموضع رقادة الى اليـوم . ولما دخل ابو الخطاب المدينة أمر اهل المدينة بأن يخرجـوا الى قتلاهم ليدفنوهم .

المحارب الموحد لا يحل سلبه

وقد أمر ابو الخطاب من يتفقد القتلى ، فوجد قتيـلا واحدا منهم مسلوبا ، وأمر مناديا ينادى فى عسكره من نزع عن احد من القتلى شيئا فليردده ، فلم يرد احد شيئا . فعلم ان سالبه عمل غير صالح ، فلما أيس من رده سلـب القتيل المذكور طوعا ، ومخافة من عقاب الله تعالى ، دعـا ابو الخطاب ربه عز وجل ان يفضحه ويظهره على اعـين الناس ، فامر ابو الخطاب فرسانا من عسكره بان يخرجـوا ويجروا خيلهم بين يديه وكان فيهم رجل فارس من سدراتة فلما اجريت الخيل انقطع حزام سرج السدراتى ، فوجـد

كساء سفسارية تحت سرجه ، فسقط الكساء على اعـين الناس . وقيل بل كان جبة حرير . قلت والجراد أيضا عند الاحتياج اليه واجابة الدعاء على الخائن كل ذلك من الكرامات فأخذه الامام رحمه الله فعزره حسب ما اقتضاه الاجتهاد .

وبلغنا ان ابا الخطاب رضى الله عنه لما هزمهم احسـن فيهم السيرة وامر اصحابه ان لا يتبعوا مدبرا ، ولا يجهزوا على جريح فقال رجل من لواتة من عسكر ابى الخطاب يقال له خالد أناكل من اموالهم كما يأكلون اموالنا ويعتقدون انها غنيمة احلت لهم ؟ فقال : ابو الخطاب رحمه الله ان فعلنا كما فعلوا فحق على الله ان يرفضنا ويدخلنا معهـم جهنم فنكون كما قال الله تعالى : « كلما دخلت أمـة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكـل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كـان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» (I) ثم ان ابا الخطاب توجه الى مدينة طرابلس وقد استعمـل عبد الرحمن بن رستم رحمه الله على القيروان . وعلى مـا يليها من المدن ، فاستعمل عبد الرحمن على كتابته رجلا منهم يقال له عبد الله بن عقيب ، فصلحت احوال الناس .

ان فعلنا بهم مثل ما فعلوا بنا تكون متساوين فى الذنب

وقد كان الرجل السدراتى لما لم يتجاوز عنه ابو الخطاب رأى ان قد نزلت عليه مصيبة عظيمة فى اجتماع الفضيحة والاعانة عليه ، فسار مغضبا ، متوجها الى بغداد ليستنفر منها جيشا من تلقاء ابى جعفر المنصور ، فلما وصل بغداد طلب الدخول على ابى جعفر فوقف على الباب سنة لا يؤذن له فى الدخول على ابى جعفر ولا بالانصراف ، فبعد تمام

(I) سورة الاعراف : آية 37 ـ 38

قدوم ابن الاشعث من قبل العباسيين لمحاربته

حول اذن له ابو جعفر في الدخول ، فدخل عليه وخلا به ، وسأله عن حاجته ، فقال له : حاجتي ان تنفذ معي عسكرا الى ناحية المغرب ، فامر ابو جعفر بالاستعداد بالمسير الى أرض المغرب ، فانفذ جيشا وجعل عليه محمدا بن الاشعث الخزاعي اميرا . وذكر بعض اصحابنا ان عدد أهل العسكر خمسون ألفا ، وقال : بعضهم سبعون ألفا ، فجعل على طائفة من العسكر رجلا دون ابن الاشعث ، فتوجه ابن الاشعث قاصدا الى ابى الخطاب، فلما انفصل العسكر من مصر ارسل عيونه فكانت العيون تختلف بين الفريقين باخبار كل منهما الى الآخر ، وبجميع ما يحدث عندهم . فقدمت عيون ابن الاشعث من عند ابى الخطاب فسألهم عن اخباره ، فقالوا له أنجمل ام نفصل ؟ فقال : بل اجملوا ، فقالوا رأينا رهبانا بالليل واسدا بالنهار ، يتمنون لقاءك كما يتمنى المريض الطبيب ، لو زنى صاحبهم لرجموه ولو سرق لقطعوه ، خيلهم من نتاجهم ، ليس لهم بيت مال يرتزقون منه وانما معاشهم من كسب ايديهم . فلما سمع ابن الاشعث ما وصفوه هاله ذلك ، فشاور الامير الذى دونه فى الرجوع فأبى له من ذلك .

مناورة ابن الاشعث

ولما رأى ابن الاشعث ذلك وخاف تفرق الكلمة ، عمد الى رجال من عسكره فامرهم ان يتزيوا بزي الرسل ، كأنهم قدموا من ارض المشرق ، واودعهم كتابا استخرجه على لسان ابى جعفر ، وامرهم ان يتنحوا عن العسكر ، فاذا كان وقت الضحى من الغد اقبلوا كأنهم قادمين من بغداد بكتاب خليفتهم ، فلما كان الوقت الذى وعدهم بالقدوم فيه اقبلوا ، فلما رءاهم أهل العسكر تبادروا ، وأتوا بهم الى ابن الاشعث ، فناولوه الكتاب الذى

قدموا به ، فقرأه وأظهر ان ابا جعفر امره بالرجوع ، فرجع بالعسكر لما اعتل به من أمر ابى جعفر اياه بالرجوع لامر هو إحوج اليهم فيه مما توجهوا اليه ، فرجع ، وكره صاحب ابن الاشعث الرجوع فلما رءاه كذلك أرسل اليه وأمر به فقتل ، فخيل الى الناس ان ابا جعفر امره بذلك ، وضم الى نفسه العسكرين . ثم انه كر راجعا الى المشرق وتباطأ في سيره، وقرب المراحل، والعيون تختلف باخبار الفريقين فاذا ارتحل ابن الاشعث أول النهار نزل عند انتصافه ، فاذا كان غدا ارتحل، وعيون ابى الخطاب كلما رأت ابن الاشعث ارتحل مرحلة رجعت منهم طائفة ، وابن الاشعث كلما ارتحل مرحلة أمر خيلا تقطع الاثر خلفه لتنظر هل بقي في عسكره من عيون ابى الخطاب أم لا ، وعيون ابن الاشعث في عسكر ابى الخطاب مقيمة ، فلما وصلت عيون ابى الخطاب اليه من عسكر ابن الاشعث تخبره برجوعه ـ وقد اجتمع على ابى الخطاب زهاء تسعين ألفا ـ ابتدرت الناس الى مواطنهم وذلك في زمان الحصاد ، فقال لهم ابو الخطاب يا قوم : ان العرب أهل مكر وغدر ، فلا تفترقوا عن ملككم ، حتى تستيقنوا برجوع القوم ، وغلبت عليه العامة فأذن لهم بالحاق (1) أهليهم فساروا وتفرقوا عنه ، وفي كل ذلك لم تزل عيون ابن الاشعث في عسكر ابى الخطاب .

مباغتة ابن الاشعث لابى الخطاب

فلما تيقنوا تفرق جموع ابى الخطاب اسرعوا بالمسير الى صاحبهم ، فاخبروه بافتراق العسكر عن ابى الخطاب ، فكر ابن الاشعث راجعا يطوى المراحل ، فلم يشعر ابو الخطاب الا وعسكر ابن الاشعث قد غشي حيز طرابلس ، وأبو الخطاب بها مقيم فقال لاصحابه ان العدو قد غشي

(1) كذا في النسخ لعله باللحاق باهليهم

حريمي فلا يسعنى القعود عن المدافعة عن رعيتى ، وقد اعلمتكم من قبل بما كنت اتوقعه من مكر العرب ، قال ففرق الرسل ابو الخطاب فى البلدان تستنفر عسكره ، وتستمدهم فارسل الى عبد الرحمن بن رستم يستحثه ، فأمر ابو الخطاب اصحابه بالخروج فاشار عليه بعضهم بالاقامة حتى تاتيه امداده ، فابى الا الخروج ، وقال : لا يسعنى المقام ، وقد دخل العدو حريم رعيتى ، حتى ادفع عنها ما غشيها أو الحق بالله ، فخرج بمن حضره من اصحابه ومن بقرب المدينة من نفوسة وهوارة وزويشة وغيرهم ، يريد محمد بن الاشعث فالتقيا « بتاورغا » وهو على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس .

« مقتل ابى الخطاب واصحابه رحمهم الله »

حدث غير واحد من اصحابنا ان ابا الخطاب لما سمع برجوع ابن الاشعث اليه خرج بمن حضره من اصحابه فأجد السير اليه ، فوجده ابو الخطاب قد سبق الى الماء نازلا عليه فقال ابن الاشعث لاصحابه : ان نزل أبو الخطاب واصحابه واستراحوا وسقوا كراعهم ، واستقوا فانكم لا تظفرون بهم بشىء ، ولا طاقة لكم بهم ، والا فانتم أقدر عليهم منهم عليكم ، وهذا بتاورغا ، فلما وصلهم ابو الخطاب وعسكره شاقت نفوسهم الى لقائهم ، والجهاد فى سبيل الله على بصيرة فلاقاهم ابو الخطاب فى قلة والعدو فى كثرة ، فاسرع القتل فى اصحاب أبى الخطاب واشتد القتال فكان الرجال بين الصفين تنهدم كالحيطان ، ولم يبرح ابو الخطاب واصحابه رحمهم الله حتى استشهدوا جميعا ، وكانوا فى أربعة عشر ألفا فيما ذكر الرواة ، وقد ذكر بعضهم اثنى عشر ألفا ، فلم ينج من القتل الا اليسير ، فتسامعت رعيته بمقتله ،

فهربوا الى الجبال ، ولجأوا الى الحصون المنيعة والقـــلاع العالية . وبلغنا ان عبد الرحمن بن رستم رحمه الله لما وصلته رسل الامام اسرع ليلحق به ، فلما انتهى الى مدينة « قابس » تلقاه مقتل الامام وعسكره ، فافترقت عساكره وكر راجعا الى مدينة القيروان ، فلما سمع عبد الرحمن بن حبيب بمصاب ابى الخطاب ومن معه وتفرق العساكر ثار من مدينة القيروان ، وطلب عبد الرحمن بن رستم فلـم يجده ، فلم يـزل يبحث على اخباره حتى ظفر به فابتدره رجل من أهل القيروان من اصحاب عبد الرحمن بن رستم الى عبد الرحمن بن حبيب شافعا اليه فيه فقال له ايها الامير لى اليك حاجة ، فقال حوائجكم كلها مقضيـة ، الا عبـد الرحمن بن رستم ، رضى الله عنه ، فقال ان لم أسألك فى عبد الرحمن بن رستم ففيم أسألك ؟ فتركه له . وبلغنـا ان عبد الرحمن بن رستم لما اراد استعمال ابن حبيب على بعض اموال المسلمين قال : يا معشر المسلمين ، لا تولوا ابن حبيب امور المسلمين ، فانه ابليس الا ان عليه بشر ابن آدم ، فحقدها عليه ابن حبيب .

خروج عبد الرحمن الى المغرب الاوسط

فلما تفرق جنود ابى الخطاب وجنود عبد الرحمن بـن رستم وتخلص من ابن حبيب خرج عبد الرحمن هو وابنه عبد الوهاب وعبد لهما خائفين مستخفـين ، متوجهـين الى أرض المغرب ، وليس معه حمولة ولا مركوب غـير فرس واحد ، فمات الفرس فى بعض الطريق ، فدفنوه مخافـة ان تقص أثرهم ، فيطمع فيهم ، وذلك فى خارج قسطيلية ، فسمى ذلك الموضع « قبر الفرس » فلما عدموا الفرس وقد ضعفت قوى عبد الرحمن تعاون عليه ابنه يحمله تـارة ، ويحمله العبد أخرى ، فاذا حمله العبد قال عبد الوهاب :

ان ادركنا العدو فلا تحطط ابى عن ظهرك لما دون خمسمائة ونحوها ، واذا عيى العبد وحمله عبد الوهاب قال : له العبد كقوله له ، فلما وصلوا حول واد ، أجج (١) وهو جبل منيع قصده عبد الرحمن وتحصن به .

تحصن عبد الرحمن بجبل سوفجج

وحدث أبو الربيع سليمان بن يخلف رحمه الله عمن حدثه : ان عبد الرحمن لما تحصن بوادى اجج وتحصن بالجبل ، لحقه هنالك ستون شيخا من شيوخ الاباضية من طرابلس ، وسمع ابن الاشعث بذلك ، فأقبل مجدا معدا فى طلبه ، فأخبر بأنه فى جبل منيع ، حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم بعد ان عسكر على عسكره مخافة ان يأتيه ابن رستم واصحابه ، فأطال المكث تحته فوخم عسكر ابن الاشعث ووقع فيهم الجدرى ومات منهم خلق كثير ، فجمع ابن الاشعت اصحابه فقال لهم مستشيرا : قد رأيتم هؤلاء القوم وما هم فيه من المنعة واقامتنا عليهم لا تجدى شيئا ، فما ترون فى الاقامة عليهم أو الارتحال عنهم ؟ فاختلف رأيهم ، فجد هو على الارتحال ، فرجع الى القيروان وقد يئس من عبد الرحمن واصحابه ودخلها وتحصن فيها .

ولاية ابى حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزى الهوارى رحمه الله ورضى عنه

حدث غير واحد من اصحابنا ان ابا حاتم ولى مدينة طرابلس فى رجب سنة اربع وخمسين ومائة ومكث فيها اربع سنين ، وكانت ولايته ولاية دفاع ، وطلب الحق ، يرسل ثقاته بما يجتمع من مال الصدقة الى عبد الرحمن

---

(١) كذا اثبت فى النسخ . وما تثبته المراجع الاخرى : سوفجج

قبل ظهوره ، وسبب ولاية ابى حاتم ان جماعة من اصحابه من بقية من كان مع أبى الخطاب لما أنسوا من نفوسهم فى حيز طرابلس بعد ابى الخطاب قوة ، هموا بالاجتماع لامر ابرموه ، فاظهروا عن انفسهم غيره ، كما فعلوا أول مرة فى تولية ابى الخطاب ، فعزموا على القيام على حيز طرابلس وواليها من قبل ابى جعفر المنصور فسمع الوالى باجتماعهم فأخرج اليهم خمسمائة فارس ، وأمر عليهم أميرا منهم . فلما وصلتهم الخيل ، قال لهم اميرها : اجيبوا بالطاعة لامير المؤمنين ، قالوا اجبنا بالطاعة لامير المؤمنين . لا يعنون ابا جعفر ، وامير الخيل يعتقد انهم عنوه ، فرجع بخيله الى والى المدينة ، فاخبروه باجابتهم ، فلم يقنعه ذلك منهم . ثم أن جماعة اعيان اهل الدعوة اجتمعوا ليلة منصرف الخيل عنهم ، واتفقوا على عقد الامامة لابى حاتم ولاية الدفاع ، فعقدوها له فى ليلتهم تلك ، فلما اصبح خرج اليهم الوالى بنفسه فى خيل عظيمة ، فلما اتاهم قال اجيبوا لطاعة امير المؤمنين ، قالوا اجبنا لطاعة امير المؤمنين ، قال اجيبوا لطاعة امير المؤمنين ابى جعفر المنصور ، فقالوا عليك لعنة الله ، وعلى أي كافر معك ، يعنون ابا جعفر فناجزهم القتال فاقتتلوا قتالا شديدا فهزمهم أبو حاتم ومن معه من أهل الدعوة ، فاتبعوهم يقتلونهم حتى دخلوا مدينة طرابلس ، فمات من ذوى الجبابرة بشر كثير .

القتيل من اهل التوحيد لا يسلب

وبلغنا ان ابا حاتم لما هزم الله على يديه العدو وقد كان معه من عوام البربر من لا نظر له فى امور الدين وانما حضروا تسليما لامور المسلمين فعمدوا الى أسلاب القتلى فنزعوها عنهم ، فغضب ابو حاتم لذلك ، وقال ليس من سيرة المسلمين اذا قتلوا من بغى عليهم من أهل التوحيد

ان يسلبوه ، بل يقولون لاهل المدينة ارجعوا الى قتلاكم فادفنوهم وخذوا ثيابهم . والآن اما رددتم الاسلاب ، واما اعتزلت اموركم ، وتركت الولاية ، فلما سمعوا ذلك منه اطاعوه وردوا اسلاب القتلى . فدخل ابو حاتم رحمه الله مدينة طرابلس اثر الهزيمة فاقام بها ما شاء الله ، ثم نادى بالخروج الى افريقية ، فبلغنا انه خرج اليه جيش من افريقية ، فتلقاه ابو حاتم ببعض الطريق ، فقاتلهم فهزمهم الله له ، واحسن فيهم السيرة ، فلم يجهز على جريح ولم يسلب قتيلا .

حصار ابى حاتم للقيروان وتسريح جيش ابن الاشعث

فلما نزل بالقيروان حاصر اهلها سنة ، وطال الحصار على اهلها فالقوا السلم واذعنوا واطاعوا ، الا ما كان من ابن الاشعث فانه انحجر في دار الامارة في بقية من أصحابه الذين قدم بهم من أرض المشرق ، فحاصره ابو حاتم سنة أخرى ، بعد دخول المدينة فاجلى ابو حاتم من بها من بقية جند ابن الاشعث فاعطى كل خمسة منهم قربة وخشبة يحملون عليها قربتهم ، واعطاهم خنجرا يصلحون به نعالهم ، واعطى كل رجل من الخمسة رغيفا لزاده ، فتفرق اولئك البقية منصرفين الى المشرق ، وذكر بعض اصحابنا ان السدراتى المجلود على الخيانة الذى جلب العسكر من المشرق ندم على ما فعل من اعانة العدو على قومه ، واهل مذهبه ، واذاءته اياهم ، فخرج ببقية العسكر يريد بهم المشرق ، واظهر لهم انه يريد ان يردهم الى بلادهم فاخذ بهم طريقا مضلة فهلكوا عن آخرهم .

ذكر وقعة مغمداس

وبلغنا ان ابا حاتم سمع بطوالع اقبلوا من المشرق فخرج من مدينة طرابلس فتلقاهم بموضع يقال له (مغمداس)

على مسيرة ثمانية ايام من المدينة ، فلما وصلهم ابو حاتم صفوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فهزم الله على يديه العدو ، فقتل منهم ستة عشر ألفا ، وبلغنا ان رجلا من الحضر لقى رجلا من أهل الدعوة ، فقال له المخالف ما تفسير تاورغا ؟ (يقرعه بمقتل أبى الخطاب واصحابه رحمهم الله) وكان صاحبنا فطينا فاجابه ، بان قال تفسيرها : مغمداس فيه أربعة اكداس ، فى كل كدس اربعة آلاف ، ثم لما هزمهم رجع الى طرابلس وحسنت حالته فيها .

مقتل ابى حاتم واصحابه رحمهم الله

وبلغنا ان ابا حاتم لما تمكن فى مدينة طرابلس دس الكتب الى المشرق من بقي من الطوالع بطرابلس والقيروان الى ابى جعفر ببغداد ، يشكون ابا حاتم . ويستقضون عليه ، فأنفر الى ابى حاتم جيشا كبيرا . وامر عليه يزيد ابن حاتم الازدى قال : فلما انفصل يزيد بن حاتم من مصر بعساكره ، وسمع ابو حاتم بتوجهه ، جمع اصحابه ومن ولى عليه من القبائل ، فحضهم على الجهاد ورغبهم فى الاستشهاد . ولما قرب يزيد من حيز طرابلس خرج اليه ابو حاتم بمن معه من اصحابه ، حين نزل موضعا يقال له « جنى » ومعه قبيلة من البربر يقال لها مليلة ، يزيد بن حاتم على ابى حاتم ، فسأل ابو حاتم من حضره من هوارة . هل أعان ابن حاتم علي أحد من البربر ؟ فقالوا : ليس أحد من البربر الا قبيلة واحدة من هوارة . يقال لها مليلة فقال ابو حاتم : اللهم اذلل مليلة ، فاجاب الله دعوته ، فبقيت فيهم الى اليوم ، فهم اذل البربر ، قيل وكان مع ابن حاتم رجل من نفوسة يقال له عمر بن مطكود لا غير .

مقدوم يزيد ابن حاتم الازدى بجيش من المشرق

استشهاد ابى حاتم ومن معه

فلما التقى الفريقان اقتتلوا قتالا شديدا ، فاستنجز القتل فى اصحاب ابى حاتم ، فلما رأى ذلك ابو حاتم قال لاصحابه : زفونى الى الموت فى سبيل الله زفاف العروس ، وقفوا لى قليلا قال ، فتقدم ابو حاتم رحمه الله حتى استشهد ومن معه من اصحابه وهم .. .. (I) رحمهم الله .

وبلغنا ان الموضع الذى استشهدوا فيه يرى فيه نور ساطع يضىء فى كل ليلة الخميس يبصر من بعيد ، يصعد عمودا فى السماء وكذا ذكر من شاهده من أهل عصرنا على الصفة المذكورة . وحدث يعقوب بن يوسف اليجرانى انه اجتاز هو وصاحب له بالموضع المذكور ، فى ليلة شديدة الظلمة ، وكانت ليلة الخميس ، فلما هبطاه وهو فى مطمئن من الارض ، اضاء لهم النور حتى تبين اثر الحشرات فى الارض ، كما تتبين نهارا ، فلما خرجا منه دخلا فى مظلمة عظيمة ، فالتفتا الى الموضع فاذا الضياء ساطع فى الهواء ، والظلمة تحفهم من كل جانب فعادا ، الى الموضع فطفقا يدعون الله تعالى لما تبيناه من كرامة ، وكان يعقوب رجلا شجاعا شديد المرة لا يروعه هول ولا يصيبه خور ، بل كان ثبتا لايتهم خبره .

امامة عبد الرحمن بن رستم
رحمه الله ورضى عنه

حدث غير واحد من اصحابنا ان عبد الرحمن بن رستم ولى بتاهرت على رأس ستين ومائة ، وذكر بعضهم انه ولى

(I) بياض فى الاصل

سنة اثنين وستين ومائة ، والله اعلم أى التاريخين أصح
وسبب ولايته ان جماعة اهل الدعوة اتفقوا على ان ينتخبوا
موضعا يبنون فيه مدينة تكون حصنا لهم ، فارسلوا رجالا
من ذوى المعرفة ، وفرقوهم فى الجهات يتخيرون مكانا يصلح
لما حاولوه ، ورجعوا وقد وقع اختيارهم على تاهرت ،
فدلوهم عليها ، فاتفق جمهورهم مع أهل تاهرت القديمة
على شيء معلوم يأخذونه على غلتها ، وقد كانت قبل ذلك
رياضا لا عمارة فيها الا السباع والهوام .

انشاء مدينة تاهرت

فلما اتفقوا على عمارتها امروا مناديا ينادى بسباعها
ووحوشها وهوامها اناخرجوا فانا اردنا عمارةهذه الارض
فأجلوها ثلاثة ايام ، وبلغنا انهم رأوا وحوشها تحمل
أولادها خارجة بها منها ، فكان ذلك مما رغبهم فى عمارتها
وقوى عزمهم على انشائها. ثم انهم اطلقوا النيران فاحترقت
اشجارها ، وبقي أصول ما احترق منها فشق عليهم مؤونة
اقتلاعها ، فعمدوا الى حيس فلثوه بعسل ، وجعلوا تحت
اصل كل شجرة منها شيئا قليلا ، فلما جن الليل طرقت
الخنازير تلك الاصول ، فجعلت تتبع رائحة الحيس ، وتحفر
تحت الاصول ، حتى أتت على آخرها ، فلما اصبحوا وجدوها
مقتلعة ، فعمدوا الى مكان فأصلحوه لصلاتهم ، فلما ارادوا
بناءه وقع اختيارهم على اربعة مواضع فاقرعوا عليها ،
ايها يجعل المسجد الجامع ، فوقعت القرعة على المكان الاول
الذى اصلحوا لصلاتهم ، فبنوا الجامع به ، ثم اخذوا فى
انشائها وعمارتها ، فجعلوها ديارا وقصورا .

سبب اختيار عبد الرحمن للامامة دون غيره

ثم ان أهل الخير والصلاح وذوى الآراء السديدة من جماعة أهل الدعوة رأوا ان لهم قوة تجب معها عليهم تولية امام . فتشاوروا فيمن يرون لذلك أهلا من القبائل ، فوجدوا من كل قبيلة رأسا أو رأسين ، فكل منهم أهل لذلك فقال فضلاؤهم : ان عبد الرحمن بن رستم ممن لا تجهلون فضله ، وهو احد حملة العلم وعامل الامام أبى الخطاب رحمه الله ، وقد كان المسلمون عرضوا عليه الامامة قبل تولية ابى الخطاب فاعرض عنها ودفعها عن نفسه فهو أهل للامامة لدينه وعلمه ، وسابقته ، ومكانه ، وغير ذلك من حميد أوصافه ، لا سيما وليست له قبيلة تمنعه ان بدل أو غير . فان رأيتم توليته أموركم فافعلوا ، فاتفق رأيهم جميعا على توليته ، فبايعوه على الامامة ، بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآثار الخلفاء الراشدين ، فأحسن السيرة فى امامته ولم ينقم عليه أحد فى حكومته ، ولم يكن فى ايامه اختلاف ، والاباضية كلها يومئذ مجتمعة متآلفة لم يثر فيها ثائر .

وصف مدينة تاهرت وكيف انشئت

قال الشيخ ابو العباس وقد وقفت فى كتاب المسالك والممالك من ذكر بناء تاهرت على ما هو أوضح وأزيد فائدة ، ورأيت ان اثبته فى هذا الموضع وان كان فى بعضه خلاف لما صححناه عن المشائخ . ذكر ابو عبيدة البكرى « ان تاهرت مدينة مسورة لها اربعة ابواب ، باب الصفاء وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن ، ولها قصبة مشرفة على السوق وتسمى المعصومة ، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع تسمى « نافس » ومنها شرب بساتينها وهى فى شيء ، وفيها

جميع الثمار وهى شديدة البرد كثيرة الغيوم ، والثلـج .
قال أبو عبد الرحمن بكر بن حماد : (1)

ما أحســن البــرد وريعــانـــه
وأطـــرف الشمـــس بتــاهــرت

تبــدو مــن الغيــم اذا مــا بــدت
كأنهــا تنشـــر مـــــن تحــت

فنحـــن فى بحـــر بـــلا لجـــة
تجـــرى بنــا الريــح عــلى السمت

نفـــرح بالشمس اذا مــا بـــدت
كفــرحـــة الـــذمي بالسبـــت

وتاهرت الجديدة على خمسة اميال منها تاهرت القديمة وهى فى شرق الحديثة ، ويقال انهم لما ارادوا بناء تاهرت كانوا يبنون بالنهار ، فاذا جن الليل واصبحوا وجـــدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى ، وهى الحديثة وكان صاحب تاهرت ميمون بن عبد الوهاب بــن عبــد الرحمن بن رستم ، بن بهرام بن ذو شراز بن سابور بــن بابكان بن سابور ذى الاكتاف الملك الفارسى . كان ميمون رأس الاباضية وامامهم ، وامام الصفار ، والواصليــة ، وكان يسلم عليه بالخلافة ، وكان مجتمع الواصلية قريبا من تاهرت ، وكان عددهم ثلاثين ألفا ، فى بيوت كبيوت الاعراب يحملونها ، وتعاقب مملكة تاهرت بنــو ميمون وبنــو اخويه اسماعيل وعبد الرحمن بــن الرستمية الى سنة ستة وتسعين ومائتين 296 ، فوصل ابو عبد الله الشيعى

(1) هو الاديب المشهور والشاعر التاهرتى ولد بها وتوفى بها سنة 292 هـ

مدينة تاهرت فدخلها بالامان ثم قتل فيها من الرستمية عددا كبيرا ، وبعث برؤوسهم الى اخيه ابى العباس ، واطيف بها فى القيروان ، ونصبت على باب رقادة . واقام ملك بني رستم بتاهرت مائة وثلاثين سنة . وذكر محمد ابن يوسف ان عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح بن عبيد بن حرملة ايام تملكه على افريقية ، فلما قتله محمد بن الاشعث الخزاعى وذلك فى صفر سنة اربع وأربعين ومائة 144 هرب عبد الرحمن باهله وما خف من ماله ، ونزل القيروان فاجتمعت اليه جماعة من اصحابه واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجسعهم ، فنزلوا موضع تاهرت البرج وهو غيضة اشب ، ونزل عبد الرحمن منها موضعا مربعا لا شجر فيه ، قال البربر : (نزل تافدمت ، تفسيره : الدف شبهوه بالدف لتربيعه ، وادركتهم صلاة الجمعة فصلوها هنالك فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة شديدة على اسد ظهر فى ألشعراء فاخذ حيا وأوتى به الى الموضع الذى صلوا فيه فقتل هنالك ، فقال عبد الرحمن بن رستم هذا موضع لا يفارقه سفك دم ، ولا حرب ابدا ، وابتدروا من تلك السأعة فبنوا فى ذلك الموضع مسجدا وقطعوا خشبه من تلك الاشجار ، فهو كذلك الى اليوم ، وهو مسجد جامع وهو من اربع بلاطات ، قال : وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من منداس وصنهاجة فراودهم عبدالرحمن على البيع ، فابوا ، فوافقهم ان يودوا اليهم الخراج من الاسواق ، ويبيحوا لهم بنيان المساكن فاختطوا وبنوا ، وسمى موضع تاهرت معسكر عبد الرحمن الى اليوم . (1)

---

(1) راجع المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك من ص 66

امداد من اباضية المشرق لعبد الرحمن

قال الشيخ : و بلغنا ان الوالى على أهل عمان في ايام عبد الرحمن رجل يسمى عبد الوارث ، وابو عبيدة حي اذ ذاك وفى امامة عبد الرحمن رحمه الله . ثم ان ولاية عبد الرحمن بالمغرب اتصلت بمن بالبصرة من أهل الدعوة فبعثوا اليه بثلاثة احمال مالا ، فلما وصلت الرسل تاهرت جعلوا يسألون عن دار الامارة وقد خلفوا المال بخارج المدينة ، فلما وصلوا الدار ، وجدوا الامام رحمه الله فى أعلى بيت يعمل بيده فى السقف ، والعبد يناوله الطين ، فسألوا العبد ان يأذن لهم ، ويستأذن عليهم . وقد علم العبد ان سيده يسمع كلامهم ، فقال له : اخرهم قليلا : فنزل وغسل من الطين جسده ، فأذن لهم ، فدخلوا فسلموا عليه ، وامر بخبز وسمن فقدم بين ايديهم فلما أكلوا استأذنوا للتنحي عنه للنجوى ، فأذن لهم ، فتناجوا واتفقوا ان يدفعوا له المال ، وانهم راضون ما عاينوه من احواله . فلما وصلت الاموال ووضعت للامام ، شاور اصحابه فيها فاشاروا عليه بان يأخذها ، ويبثها فى فقراء المسلمين ، وفى الاسلام ، وفعل رحمه الله ذلك بمحضر الرسل .

يرد مساعدة اباضية المشرق حيث صاروا فى غنى عنها

فلما رجعت الرسل الى المشرق اعلموا اخوانهم بسيرة عبد الرحمن وعدله وفضله ، وبعثوا بعد ذلك باموال اكثر من الاولى ، فلما وصلت الى عبد الرحمن شاور اصحابه أيضا ، فقالوا : رأيك يا امير المؤمنين ، فقال اما اذ رددتم الي الرأي ، فان رأيى ان يرد الى أهله ، فهم أحوج منا اليه فقد قوانا الله واغنانا ، فله الحمد ، فشق ذلك على الرسل وليس لهم بد من طاعة الامام ، فعجب أهل المشرق من زهادة الامام فى الدنيا ورغبته فى الآخرة فأقروا بامامته ووصلوه بكتبهم . فكانت تاهرت حرزا وحصنا لجماعة

أهل الدعوة وسميت المعسكر المبارك . قلت اما كون الامام
رحمه الله وافق اصحابه فى صرف المال الاول فى الوجوه
التى ادلوا بها لما رأى فى ذلك من سد الخلل ، وأما رده المال
الآخر فلعله تعلق بقوله صلى الله عليه وسلم تؤخذ من
اغنيائكم وترد فى فقرائكم ، فقصد التخصيص فى الاضافة
ورأى فقراء موضع أخذت منه الزكاة بها أولى ، ولعله علم
ان فى المال الاول مالا غير مال الصدقة ، وان المال الآخر
كله من مال الصدقة فرأى فيه الرأي الذى ذكرته من
صرفه فى فقراء الجهة التى أخذ منها المال .

يجعل الامامة بعده شورى بين ستة انفار

قال : فلما حضرت الوفاة عبد الرحمن رحمه الله جعل
الامامة شورى فى ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي
الله عنه : احدهم مسعود الاندلسى ، وكان فاضلا فقيها ،
ورعا من شيوخ المسلمين ، وابو قدامة يزيد بن فندين
اليفرنى ، ومروان الاندلسى ، وعبد الوهاب بن عبد
الرحمن ، وابو الموفق سعدوس ابن عطية ، وشكر بن صالح
الكتامى ، فلما مات رحمه الله اجتمع أهل الشورى
يتفاوضون فيمن يولونه أمور المسلمين فتدافعها بعضهم
الى بعض . الا ان عامة المسلمين مالت نفوسهم الى اثنين
من النفر المسميين ؛ احدهما مسعود ، والآخر عبد الوهاب
فبعضهم أراد تولية هذا ، وبعضهم أراد تولية هذا ، فمكثوا
نحو شهرين يرون الرأى ثم ان الجمهور رجحوا مسعود
أو مالت نفوسهم الى توليته ، فتبادروا ليبايعوه ، فهرب
واختفى فابتدروا عبد الوهاب ليبايعوه فلما سمع مسعود
بتركهم اياه وطلبهم عبد الوهاب خرج مبادرا ليكون أول

من يبايعه ، وكان ابو قدامة لما لم تمل قلوب الناس اليه ورأى انه قد خلا منها اراد تولية عبد الوهاب وقال : هو منا أقرب رحما من غيره ، فلعل ذلك يعطفه علينا ، وانما قال ذلك لان ام عبد الوهاب يفرنية فرجوا ان يؤثرهم فى الامر ، فقام ابو قدامة فى نفر من اصحابه فأبوا الا مبايعة عبد الوهاب لما يرجونه من ايثاره اياهم ومع ذلك فقد تخوفت نفوسهم منه .

امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن رحمهما الله

فلما اراد الناس مبايعة عبد الوهاب تقدم مسعود الاندلسى ليبايعه فعارضه ابن فندين واصحابه بالقول ، فقالوا نبايعه على شرط ان لا يقضى أمرا دون جماعة معلومة ، فقال لهم مسعود : لا نعلم فى الامامة شرطا غير ان يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترك ابن فندين واصحابه الشرط . فتقدم مسعود فبايع عبد الوهاب وبايعه الناس بعد ذلك بيعة عامة وحملوه الى دار الامارة ولم يتخلف عن بيعته احد ولم ينقم عليه احد فى حكومة ولا فى أمر من أموره حتى نجم ابن فندين واصحابه .

لا نعلم فى الامامة شرطا غير ان يحكم بكتاب الله وسنة رسوله

أول افتراق فى الاباضية

مع ان طائفة تنتحل اسم الاباضية يقال لهم (العمرية) لم تجمعنا واياهم العمرية من قبل وهم يزعمون انهم اباضية ، ويسندون مذهبهم الى عبد الله بن مسعود رحمه الله وهم تبع عيسى بن عمير ، وسنفرد كتابا فى الرد عليهم ، ونقض ما خالفوا فيه أهل الحق ، ونذكر فيه

الافتراقات والرد على كل فرقة خالفت أهل الحق ، قلت انما نبه الشيخ رحمه الله على ذكر العمرية ليعلم ان الافتراق قد كان من قبل ، وانما عنى هنا أول الافتراق بالمغرب ، قال الشيخ اسماعيل بن صالح رحمه الله سألت الشيخ ابا نوح بن يوسف رحمه الله قلت : أين الكتاب الذى وعد به الشيخ ابو زكرياء ؟ قال قد قام عنه به الشيخ ابو عمار عبد الكافى وهو الكتاب « الموجز » (1) رجعنا . فاما سبب افتراق الاباضية فيما ذكر غير واحد من اصحابنا فهو : ان عبد الوهاب رحمه الله لما ولى المسلمين استعمل على ولايته كلها أهل الورع والزهد ، وكل من علم انه ليست له رغبة فى الولاية ، فاستعان على ما قلده الله من أمور المسلمين باهل العلم والبصائر فى الدين . ولما رأى ذلك ابن فندين واصحابه وتحققوا مخالفة ما يرجونه من ايثاره اياهم ، تغيرت قلوبهم وتنكرت صدورهم وساءت ظنونهم وسقط فى ايديهم وندموا على ما فرط منهم فى مبايعة عبد الوهاب ، واخذوا فى العلل والاباطيل ، وقالوا : انما كانت ولاية عبد الوهاب على شرط ان لا يقطع أمرا دون جماعة معلومة ، ورجعوا فى حاجة (2) امرهم الذى لم يجزه لهم اهل البصائر من قبل ، وجعلوا يفتشون ذلك عند الجهال والطغام ، ومن ليست لهم بصيرة فى الدين يستزلون عقولهم، ويستفزون افكارهم،ويحيلون عقائدهم واشاعوا انه حابى عليهم بعض الناس ، وولاهم الامور دونهم ، وزعموا انهم بذلك أولى من سواهم ، وانه لا ينبغى ان يلى امر جماعة المسلمين احد اذا كان فى الجماعة من هو

---

(1) لا زال الكتاب من جملة المخطوطات ، وقد قام الدكتور عمار الطالبى من جامعة الجزائر اخيرا بدراسة عليه ، واخبرنى انه يقوم بطبعه

(2) كذا فى النسخ ، ولعل الصواب : ورجعوا الى لجاجة امرهم

اعلم منه ، فتفاقم امرهم ، وكثر القيل والقال فى البلد ، وعظم داؤهم ، وكثر النزاع وانتشر الخلاف ، فتارة يقولون نحن وليناه ، وتارة يقولون كيف يلينا وفينا اعلم منه ، وتارة يقولون انما كانت ولايته على شرط .

استفتاء علماء المشرق فى خلاف ابن فندين

ثم ان جماعة المسلمين اجتمع رأيهم مع ابن فندين واصحابه على التوقف ، واصطلحوا على وضع اوزار الحرب ويراسلوا فى هذه القضية اخوانهم بالشرق ، فما اجابوهم به وقفوا عنده ، وعملوا به . فبعثوا رسولين وتوجها الى المشرق ، فلما وصلا مصر وجدا بها شعيب بن المعروف وشيعته فأخبراه بموت عبد الرحمن ومبايعة الناس عبد الوهاب وخروج ابن فندين عليه وادعائه فى امامة عبد الوهاب ، وما زخرف من الاباطيل ، فلما سمع شعيب ما ذكراه من الاختلاف خلا بطائفة من اصحابه ، منهم ابو المتوكل ، فعزموا على المسير الى تاهرت ليكونوا ألتاء على الامام ، ثم ان الرسولين توجها الى مكة فوجدا أبا عمرو الربيع بن حبيب وابا غسان مخلد بن المعرد رحمهم الله فى جماعة من اصحابنا ، واخبراهما بما فيه من ارسال اخوانهم اليهم ، وبما حدث بالمغرب ، فدفعا اليهم كتبهم وقرأوها واجتمعوا ليجاوبوا عنها فكتبوا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما . أما بعد ، فقد اتصل بنا ما وقع قبلكم وما كتبتم فيه ، فأما ما ذكرتموه من أمر الشرط فليس من سيرة المسلمين ان يجعلوا فى الامامة شرطا : ان لا يقطع الامام أمرا دون جماعة معلومة . الامامة صحيحة والشرط باطل ، فلو صح فى الامامة الشرط لما قام لله حق ولا اقيم له حد ، ولبطلت الحدود والاحكام ، وضاع الحق ، والجماعة

يتعذر اتفاقها . على ان الامام ان قدم اليه سارق فلا يمكنه ان يقيم عليه الحق فيقطع يده حتى تحضر الجماعة ، أو زنى احد فلا يرجم أو يجلد حتى تحضر الجماعة ، ولا يجاهد الامام عدوا ، ولا ينهى عن منكر ، الا بمحضر الجماعة ، فيكونوا كلهم اذا اماما ، وكلهم لا امام ، فهذا ابطال ، وتتبعه غير الاستقامة ، ورمي الامامة به بغي ، والسؤال عن هذا غي . واما ما ذكرتم من تولية رجل وفى جماعة المسلمين من هو اعلم منه فذلك جائز اذا كان مستكملا لشروط الامامة ، وكان من أهل الفضل والدين والعدل والسياسة والمنزلة المرضية ، فقد ولى ابو بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وزيد بن ثابت افرض منه ، وعلى اقضى منه ، ومعاذ بالحلال والحرام اعرف منه ، وأبي بكتاب الله أقرأ منه ، كل شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ومع هذا فلم يكن احد منهم أولى منه بالامامة ، فالجواب اثبات الولاية وابطال الشرط، ولوانعقدت عليه ، وتخطئة من اختلفه واحله غير محله » .

ومما ضمنوه جوابهم ان الامامة لا تبطل الا بحدث فى الامام بعد الاعذار والانذار ، وتمادى المحدث على الاصرار والاستكبار ، فحينئذ يجب القيام عليه . وابطال ما صار من أمر المسلمين اليه .

شعيب يتوجه من مصر الى مقر الامامة يؤازر ابن فندين

ونرجع الى ذكر شعيب وذلك انه لما انتهى اليه الرسولان بما قد تقدم ذكره من وقوع الخلاف بالمغرب توجه الى تاهرت فى نفر من اصحابه ، دون مشاورة من بمصر من المشائخ أهل الدعوة ، بل قد نهاه عن ذلك من فطن به منهم فسار طمعا فى الامارة ، فلما وصل هو واصحابه دخل على الامام ولم يكن له بد من الدخول عليه ، فسأله الامام رحمه

الله عن الامامة والشرط فأجابه بان الامامة صحيحة والشرط باطل ، وسأله أيضا هل تجوز تولية رجل وفى جماعة المسلمين من هو اعلم منه ؟ فاجاب بجواز ذلك . ثم ان شعيبا خرج فتوجه نحو ابن فندين ، واصحابه فأطمعوه فى الامارة ، فندم على فتياه للامام رحمه الله فوازر (I) ابن فندين واصحابه على الامام ، وصار لهم عونا على الخلاف ، فخرج من بالمدينة من اكابر اصحاب ابن فندين الى المنازل المتدانية من تاهرت ، وجعلوا يستفسدون قلوب أهلها ويجتمعون فيها بحل ما انعقد من الامامة، ويتناجون بالاثم والعدوان ، ولذلك سموا « النجوية » . ثم بعد ذلك اجتمعوا لاظهار انكار امامة عبد الوهاب فسموا «النكار».

اصل تسمية النكار ومبدا هذه الفرقة

ولما ادخلوا بذلك شغبا فى الاسلام سموا «الشغبية» ، ثم الحدوا فى اسماء الله تعالى فسموا « الملحدة » . وسموا النكاث لنكثهم البيعة بغير حدث، وبلغنا انهم كانوا يدخلون المدينة بالجماعات ، فتكلم جماعة من المسلمين بذلك ، واشاروا على الامام بان ينهاهم عن ذلك ، فنهاهم الامام فلم ينتهوا ، وعاب عليهم خروجهم من المدينة الى المنازل فقالوا : هذه مدينتنا وتلك منازلنا ، فان رأى الامام فى ذلك منكرا تركناه . قال فاعرض عنهم الامام ثم صاروا بعد ذلك يدخلون المدينة بالسلاح ، فاشار أيضا جماعة من المسلمين على الامام بان ينهاهم عن ذلك . فقالوا : ان رأى الامام فى امساك السلاح منكرا تركناه قال : فاعرض عنهم الامام ، وامر اهل المدينة بامساك السلاح مخافة منهم من غدر يحدث منهم .

(I) من وازره موازرة على الامر عاونه وقواه ، مقلوب آزره

وبلغنا ان نفرا منهم اجتمعوا على غدر الامام فأداروا الامر بينهم ، فقال قائلهم كيف لنا بالوصول الى قتله ؟ فلم يتجه لهم ذلك . ثم ان رجلا اشار عليهم بأن يحضروا تابوتا فيجعلوه فيه ، ويمضوا بالتابوت الى الامام كأنهم مختصمون فيه ، وكان الاتفاق قد تعذر ، ليفضي الامر الى وضعه على يد الامين ، ثم لا يرضون الا ان يكون فى امانة الامـام ، فعمدوا الى تابوت وادخلوا فيه الرجل المشير ، ومعه سيفه وكان غلق التابوت من داخله ، فأقبلوا بالتابوت الى الامام رحمه الله، ففعلوا ما عزموا عليه من الملاحاة. حتىاظهروا ان كادوا يقتتلون ، فقال قائلهم للامام : يا امير المؤمنين أفصل بين هؤلاء القوم ، وانزع التابوت من ايديهم جميعا حتى يصطلحوا أو يصح لمن يصح منهم ، فقالوا باجمعهم : قد اصاب فيما اشار به عليك يا امير المؤمنين ، فقـال : دونكم وما اشار به . فقال المختصمون : لسنا نثق بامانة أحد الا ان يكون امير المؤمنين، فتوخى رحمه الله مرضاتهم وساعدهم ، فقال : احملوا تابوتكم الى حيث آمركـم ان تضعوه ، فلما حملوه تبين للامام ان الذى حملوه ثقيـل وقال متمثلا « يا بؤسا للغدر فما اسجاه ! ! » . ثم ان الامام تأمل التابوت فوجده مغلقا من داخله ، فازداد ريبة وغلب على ظنـه انهم ارادوا الغـدر . وكانوا قد رغبوا فى ان لا يوضع التابوت الا فى بيت ينام الامام فيه ، فلما وضعوه خرجوا مستبشرين فرحين ، وظنوا ان قد ظفروا بحاجتهم فخيبهم الله ، ورد عليهم مكرهم وجعل كيدهم فى تضليل .

وقد ذكر انهم قالوا لصاحبهم اذا انت قتلت الامام فأذن لصلاة الصبح عند طلوع الفجر ، فاذا سمعوا اذانه ابتدروا لدار الامام ، وان هو لم يؤذن علموا انه لم يظفر بحاجته

فلما جن الليل أخذ الامام رحمه الله فى صلاته فلما فرغ منها وكانت عادته اذا فرغ منها ان يتناول كتابا فيقرأ فيه حينا من الليل ، فلما كانت تلك الليلة عمد الامام الى زق منفوخ فوضعه على فراشه والقى عليه ملحفة بيضاء ، فلما قضى حاجته من قراءة الكتاب وحان وقت نومه أخذ مصباحا ، وأوقده وكب عليه غطاء يستره ، وتنحى الى جانب البيت واقبل على الصلاة بحيث لا يسمعه ولا يراه من بالتابوت . فلما هدأ صوت الامام عن صاحب التابوت ، وظن ان الامام قد نام ، فتح التابوت فخرج منه فنظر فى البيت يمينا وشمالا ، فلم ير شيئا الا بياضا فى ناحية البيت كهيئة المضطجع ، فظن انه الامام ، فتيممه فجرد سيفه ، والامام رحمه الله يراه ، فلما وقف على الفراش ضرب الزق بالسيف فظن انه قد قتل الامام فلما سمع الامام وقعة السيف على الزق كشف الغطاء عن المصباح واتاه الامام والسيف فى يده فقده نصفين ولفه فى تابوته .

فلما كان من الغد اجتمعوا فسألوا من لقيهم ، هل حدث حادث فلم يخبروا بشيء فقال بعضهم لبعض : أسمع احد منكم عن الامام وعن صاحبكم شيئا ؟ فكل قال : لا، فقالوا : امضوا بنا لنأخذ تابوتنا ، فنقول قد اتفقنا . ففعلوا ذلك فقال لهم الامام : امضوا الى حيث وضعتموه فخذوه . فمضوا حتى دخلوا البيت فوجدوا تابوتهم فى الموضع الذى تركوه فيه فحملوه ، فلما وصلوا الى مأمنهم فتحوا التابوت فوجدوا صاحبهم قتيلا مقدودا نصفين ، فخيب الله سعيهم ، واخلف ظنهم ، والحمد لله ، فخرجوا من المدينة خوفا من ان يوقع بهم الامام والمسلمون لسوء صنعهم .

ابن فندين يهاجم تاهرت

ثم ان شعيبا لما خرج من عند الامام قال لابن فندين واصحابه ماذا تنتظرون به فبادروه ورعيته لتظفروا بغفلته وانما قال ذلك استعجالا وخوفا ان يأتي الجواب من المشرق فتكون عليهم الحجة ويفترق عنه أهل الشغب وقد علم ان الصواب ما افتى به أولا ثم رجع عن الصواب حين طمع فيما طمع فيه ، وكان ابن فندين واصحابه يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويتوقعون فرصة ينتهزونها ويترقبون من أهل المدينة غرة يجدونها ، والامام كما ذكرنا قد أمر بامساك السلاح رعيته واصحابه ، فهم على ذلك ، فلما كان ذات يوم خرج الامام لبعض حاجاته ؛ فبادر يزيد بن فندين واصحابه المدينة ليدخلوها على حين غفلة من أهلها فقامت في المدينة الصيحة فتبادر الناس من كل مكان فخرج افلح بن الامام في سلاحه مبادرا فوجدهم على باب المدينة، وقد كادوا يدخلونها ، فوقف افلح على الباب واثبت احدى رجليه في صفات الباب (1) حتى انسلخ جلد قدمه الى العرقوب وجعل يتقي بدرقته ، حتى لم يجد فيها حصنا يتقي به شيئا ، فرمى بها ، فاقتلع باب المدينة فتترس به ، وعاد يتقي به الطعن ، والضرب ، فتكامل عنده أهل المدينة فوجدوا يزيد بن فندين مقابله ، وعلى رأس ابن فندين بيضتان ، وضربه افلح بالسيف فقد البيضتين والرأس ، ونشب السيف في عمود الباب ، فخر ابن فندين صريعا ، فوجد افلح في يده بعض الشدة حين ضربه فظن ان صلابة في رأس ابن فندين ، فقال « ما اقوى رأسك يا بربرى يا مشوم » ولما رءاه اصحابه صريعا ولوا منهزمين ، فقتل منهم جماعة كثيرة فكان عدد القتلى اثنى عشر ألفا فعثر بهم

(1) كذا في الاصل ، وفي نسخة القطب في صفات بالباب

شؤمهم أول مرة فى هلاك هذا العدد الكثير . وبلغنا ان دم قتلاهم سالت على باب المدينة كالسيل لكثرتهم .

ثم ان أهل المدينة اجتمعوا فى عدد وحاولوا ان يردوا الباب كما كان فلم يستطيعوا ذلك ، فقالوا لأفلح اردد ما نزعت فقال : ردوا علي غضبى آنفا اردده لكم ، ثم ان الامام رحمه الله رجع الى المدينة فوجد على بابها المقتلة فهاله ما رأى فسأل عن ذلك فاخبر بما كان من ابن فندين واصحابه فامر بجمع القتلى فجمعوا ، وصلى عليهم رجاء للصلح وطلبا للعافية لعامة المسلمين ثم ان شعيبا لما انهزم القوم هرب الى مدينة طرابلس ، فاظهر مخالفة الامام والبراءة منه واستقبل الحجاج بذلك ، واتصل ذلك بالربيع رحمه الله وبمن بالمشرق من أهل الدعوة فبرؤوا من شعيب وابن فندين ، ومن قتل معه ، ومن سلك سبيله ، الا من تاب . وكان الربيع يقول فى مجالسه : عبد الوهاب امامنا وتقينا وامام المسلمين ويظهر البراءة ممن خالفه ، فقيل له : كيف تبرأ من شعيب بغير حدث ؟ فقال : أي حدث اعظم من خلافه لعبد الوهاب وبراءته منه ؟ ثم ان بقية اصحاب ابن فندين الذين لم يصابوا يوم قتل عمرت صدورهم ضغائن واحقادا فتنحوا ناحية عن المدينة ، فاجتمعوا بكدية ، فسميت كدية النكار ، وجعلوا يفشون الخلاف والفساد سرا وجهرا ، وفى كل ذلك لم يزل شرهم يعود عليهم ، وبعد ان أهلك الله ابن فندين واصحابه قدم الرسولان بالجواب من فقهاء المشرق مشتملا على ما تقدم ذكره من ولاية عبد الوهاب واستحقاقه الامامة ، وتخطئة ابن فندين واصحابه ، والبراءة منهم . فزاد ذلك يقينا كل من شرح الله صدره للطاعة ، وحمدا

لله على ما وهب له من سلامة دينه ودنياه ، وثبوت عقائدهم على صحة يقينهم

الغدر بابن الامام ميمون

وبلغنا ان ميمون بن عبد الوهاب قتل ليلا وقطع لحمه اربا اربا ، فلما اصبح وجده اهل المدينة على تلك الحال فأوتى به الى الامام رحمه الله فنظر اليه الامام فقال : أى بنى ، اجتمعت فى مصيبتى فيك ثلاثة امثال للعامة ، احدها قولهم فيمن مرت الخيل بكسائه ، والثانية قولهم فيمن اصيب بليل ، والثالثة قولهم اذا مسست ابن السلطان فأمسسه مسا عنيفا . ثم جهز ابنه ودفنه ، ولم يدر من قتله وذلك بعد مصاب ابن فندين واصحابه ورجوع الجواب . ثم ان ابنا لميمون خرج ساعيا ، فلما وصل الى النكار نادوه يا ابن المهدور دمه ، فرجع الى جده عبد الوهاب فاخبره الخبر ، فجعل يبحث عن قاتله حتى حقق ان النكار قتلوه ، فاخرج اليهم عسكرا وامر عليه ابن ميمون فأدركهم بعد أيام فألفاهم مجتمعين علىاهبة ينتظرون . فصادفوه فقاتلهم فهزمهم الله له ، وقتل منهم عددا كثيرا فقصر الناس عن احصاء عدد القتلى ، فقالوا : أي اسماء القوم اقل عددا فصححوا ان اقل اسماءهم هارون ، فقالوا احسبوا كم قتيلا اسمه هارون ، فوجدوهم ثلاثمائة، فما ظنك بسوى هارون فاوهن الله قوتهم ورد كيدهم واذلهم .

مكانة الرستميين فى المغرب

وكان بيت الرستميين بيت العلوم وجامعا لفنونها ، من علم التفسير والحديث ، والفرائض ، والاصول ، والفروع وعلم اللسان ، وعلم النجوم ، وقد حكى عن بعضهم انه قال : معاذ الله ان تكون عندنا امة لا تعرف منزلة القمر ، وبلغنا ان عبد الوهاب بعث ألف دينار الى اخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبا ، فاقتضى نظرهم ان يشتروها ورقا

وتطوعوا بالمداد واجرة النساخ والمفسرين ، حتى اكملوا ديوانا عظيما فبعثوا به اليه فشق (I) جميع الديوان فقال الحمد لله اذ ليس فيه مسألة عزبت عنى الا مسألتان ولو سئلت عنهما لاجبت قياسا على نظائرهما ووافقت الصواب .

محاربة الامام رحمه الله للواصلية

حدث غير واحد من اصحابنا ان الامام عبد الوهاب رحمه الله لما أوهن الله على يديه كلمة النكار واورثهم الخزي والعار ، تحرك الواصلية بعض الحركة ، وهم قوم من البربر اكثرهم من زناتة ، وذلك لما احسوا بوقوع التفرق وحاولوا ان ينتهزوا فرصة ، فبلغ الامام ذلك فاعذر اليهم مرة بعد مرة ، وقد نشأ فى الواصلية شاب حدث السن شجاع لا يقوم له شيء ، وهو ابن اميرهم، وفيهم رجل ينتحل المناظرة فتكاتفت كلمة الواصلية ، واجتمعوا من كل أوب منحازين من تاهرت ، واكثرهم أهل البادية . فاظهروا مخالفة الامام رحمه الله ، فاعذر اليهم ، ثم خرج اليهم ، بعساكر كثيرة فقاتلهم مرة بعد مرة فكان الشاب الواصلى لا يدرك احدا الا قتله، وابوه يحرضه على القتال.

فلما رأى ما نزل به منهم ، وان حربهم مقيم ، أرسل الى أهل نفوسة يستمدهم طالبا منهم جيشا نجيبا يكون فيهم رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين ، ورجل عالم بفنون التفاسير ، ورجل شجاع ، يستعده لمبارزة الشاب الواصلى ، ولما وصلت رسل الامام رحمه الله الى جبل نفوسة ائتمروا فيمن يرسلونه الى الامام ، فاجتمعوا

عبد الوهاب يستمد نفوسه فتمده باربعة رجال

(I) كذا بالنسخ ، لعله فشقق جميع الديوان . فيكون من شقق الكلام : اخرجه احسن مخرج ، فى الحديث : (تشقيق الكلام عليكم شديد)

على ان يبعثوا اربعة نفر احدهم مهدى الويغوى ، والثانى أيوب بن العباس ، والثالث ابن يأنيس ، والرابع قيل اسمه محمد ابو محمد ، وقيل ابو الحسن الابدلانى ، رحمهم الله ، فاستحضرهم عامل جبل نفوسة فلما حضروا اعلمهم بما كان من استمداد الامام ، واتفاق الجماعة على توجيههم وامروهم ان يتأهبوا للمسير .

فبلغنا ان النفر تساءلوا فيما بينهم فقال لهم مهدى اما انا فاكفيكم المناظرة ، وقال محمد بن يأنيس وانا تفسير القرآن ، قد اخذته عن الثقات ، واعتمدوا على أيوب فى المبارزة . وأخذ النفر فى اهبة السفر فخرجوا من جبل نفوسة متوجهين الى تاهرت ، فلما انفصلوا عن الجبل رغب اليهم محمد بن يأنيس فى ان يكون لهم خادما فأبوا عليه ، فالح عليهم الى أن اجابوا رغبته فجعلوا كلما رحلوا،ساروا نهارهم الى الليل ، فاذا نزلوا عمد محمد بن يأنيس الى خيلهم فعلفها ، ثم أخذ فى معالجة معيشتهم فاذا طعموا أو ناموا اقبل على الصلاة راكعا ساجدا الى الفجر، وكان صائما نهاره وقائما ليله ، فكان هذا دأبه ودأبهم ، فلما رأوا تماديه على ذلك شق عليهم ، واشفقوا عليه . فرغبوا اليه ان يرفق بنفسه أو يدع عن بعض ما تكلفه فى سفره ، وينام ساعة من ليله ، فأبى ، فعزموا عليه ان يترك ، والا نظروا فى خادم سواه ، فلما تحقق جدهم وخشي ان يعزلوه عما تولى من خدمتهم . قال : قد اجبت ، على ان تأذنوا لى فى ركعتين لا غير ، فطابت انفسهم وأذنوا له فى الركعتين فلما كان فى الليلة المقبلة وقد فرغ من خدمتهم قام ليأتى بالركعتين فقرأ فى الركعة الاولى نصف القرآن ، وفى الثانية النصف الآخر ، فطلع عليه الفجر ، فلما كان من

الغد وعلم اصحابه بما كان منه شق عليهم اشد مما كان قبل ، فرغبوا اليه فى ان يعودوا الى الحالة الاولى ، ورأوا ذلك ارفق به مما صار اليه .

ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثله سوف لا يجد بها انيسا

وبلغنا انهم ناموا ذات ليلة فاستيقظ احدهم فرأى ابن يأنيس قائما يصلى وكانت ليلة مطيرة شديدة البرد والريح فسمع لكساء بن يأنيس صريرا اذا ضربته الريح ، فقال : ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يا ابن يأنيس فستستوحش فيها . بل الله لطيف بعباده ورحمته واسعة .

وبلغنا ان الامام رحمه الله لما سمع بخروجهم من جبل نفوسة متوجهين اليه قال لعبيده من بشرنى منكم بقدومهم فهو حر ، وكان العبيد اذا اصبح خرجوا من المدينة ينظرون يمينا وشمالا ، وكان احد عبيد الامام أعرج لا يستطيع النهوض مع العبيد فكان يرقى سور المدينة فلما كان يوم قدومهم أبصرهم العبيد الذين كانوا فى خارج المدينة ، فلما تحققوا ذلك بادروا يتسابقون ليخبروا الامام فلما رءاهم الاعرج عن بعد ، عجل الى الامام فبشره ، فخرج حرا فجاءه اصحابه فوجدوا الاعرج قد سبقهم بالبشارة فقالوا «فاز بها الاعرج» فلما وصل النفر المدينة أخبروا الامام بانهم اربعة ، فساءه ذلك ، وكان ينتظر قدوم عسكر كبير فلما دخلوا على الامام رحمه الله ، سألهم عن احوالهم وعن قدومهم فى اربعة نفر دون عسكر . فاخبره كل واحد منهم بما تكفل به ، واعلموه انهم بمعونة الله عز وجل ومساعدة الامام يقومون مقام العسكر . فامر الامام رحمه الله بانزالهم فى دار الضيافة ، فاقاموا فى أبر حال .

وبلغنا ان الامام أجل قبل ذلك الواصلية أجلا ، قبل قدوم النفوسيين ، فلما قدموا قال لهم : تأهبوا للخروج

قالوا له : دعنا حتى نستريح وتستريح دوابنا فقد اساءها السفر ، فأسعفهم ، ولما جرى ذكر المناظرة بينهم وبين الامام واعلمهم مهدى انه يكفيهم المناظرة قال لهم الامام : انه جرى بينى وبين الواصلى المنتحل المناظرة كلام ، اريد ان اعرضه عليك فقال : افعل يا امير المؤمنين ، فجعل الامام يعرض عليه ما وقع بينهما من مناظرة ، ويذكر سؤال كل واحد منهما ، وجواب الآخر ، فكلما وجد من كلام الواصلى حيدة ، قال : يا امير المؤمنين زاغ فى الحجة ، وزاغ عن الحجة ، حتى اطلع الامام رحمه الله على جميع ما لبس فيه المعتزلى ، ومواضع حيداته ، فوثق بان مهديا سيظفر بالمعتزلى .

مهدى يقنع عددا من علماء المعتزلة

وبلغنا ان مهديا لما صار بتاهرت ــ جعل ــ يغيب عن اصحابه اياما لا يدرون له مستقرا ، حتى ساءت ظنونهم ، فلما كان ذات ليلة قدم عليهم ، فقالوا له : قد استبطأناك ففيم كان مغيبك ؟ فقال لهم : انى قد رددت الى مذهب الحق سبعين عالما من أهل الخلاف .

ثم ان الامام بعث الى رئيس المعتزلة بانه سيخرج اليهم فى يوم كذا ، فلما كان ذلك اليوم وقد ساءت ظنون المعتزلة وامتلأت قلوبهم رعبا يتوقعون ما سيجلى لهم من أمر نفوسة فكانوا فى غم شديد ، فامر الامام رعيته بالخروج الى الواصلية والحضور لمناظرة مهدى للمعتزلة . فقال له ايوب بن العباس يا امير المؤمنين : ان فرسى قد اتعبه السفر فلو امر لنا امير المؤمنين بخيل نركبها ، فامر الامام رحمه الله ايوب بدخول دار الدواب فدخل الاصطبل فجعل كلما رأى فرسا حسن الصورة، أخذ بناصيته وجذبه فلا تثبت حوافره على الارض يكاد يسقط على رأسه ، حتى آتى على آخرها

فلم يعجبه منها شيء فقال ايوب للامام اجمع (I) فرسى فان
تعبه علي احسن الي من غيره ، فامر الامام بفرسه فاحضر ،
فلما جذبه كما فعل بكل فرس اجتذبه قبل ولم يال جهدا
فى جبذه فاقنع الفرس برأسه فى الهواء طامحا ، ولم
تزل له حوافر مثبتة فى موضعها ، ثم ردد النظر فى الفرس
فوجد به الحفاء ، فامر باحراق الرمل حتى حمي ، وفرش ،
وأمر عليه فرسه يطأ ذلك الرمل بحوافره ، ففعل به ذلك
ثلاثة ايام ، فبعد ذلك امر الناس بالخروج ، فخرجوا
والتقى العسكران والناس ينظرون الى ايوب ، فيتعجبون
بما يسمعون عنه من الشجاعة ، وانه لا يلقى شجاعا الا
قتله ، فاعذر الامام الى المعتزلة ودعاهم الى ترك ما به
ضلوا ، فأبوا الا المناصبة وسألوا المناظرة ، وقد صفت
الصفوف فخرج مهدى للمناظرة بين الصفين ومعه جماعة
من اصحابه ، فقال مهدى لمحمد بن يأنيس أخرج اليه
فناظره ، فقال له ابن يأنيس رحمه الله : بل اخرج اليه
انت ، ولست باعلم منا ، ولكن اخشى ان يعقدنى العرق
الذى من قبل ابن يأنيس ، فخرج مهدى فتقدم الى المعتزلى،
وقد كان قبل ذلك اسلمته نفسه فارسل الى مهدى فى خفية
من اصحابه : ان انا ناظرتك فظفرت بى سترت علي ، وان
ظفرت بك سترت عليك ، فليس منا احد يدرى لمن يكون
الظفر . فارسل مهدى الى اصحابه ان علامة ظفرى بالمعتزلى
ان انزع القلنسوة عن رأسى ، واضعها تحت ركبتى ، . ثم
تناظرا فجرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما
يقولون ، فلم يظفر احد بصاحبه ، ثم دخلا فى مناظرات
لم يفقهها احد غير الامام ، ثم دخلا فى وجوه لم يفقهها

(I) فى نسخة القطب اجمع عل فرسى

احد ولا الامام ، فما كان باوشك من ان ظفر به مهـــدى والقى القلنسوة ، فكبــر اصحاب مهــدى لعلمهم بظفــره بالمعتزلى ، فلما رأى المعتزلى ذلك قال غدرت يا مهــدى . وافترقا عن مجلس المناظرة ، وقد اظفر الله مهديا ، ونصر حجة أهل الحق ولله الحمد . ثم خرج الفتى المشهور بالشجاعة يطلب المبارزة ، فأخذ ايوب بن العباس فى اهبــة الخروج اليه فجبذ فرسه حتى استوى بين الصفــين واراد ركوبه بحيث يراه كلا الفريقين ، فتجاهل فى ركوبه ، فضحك منه عامة الفريقين وازدروه ، فقال لهم ابو الفتى الواصــلى الآن جاء من يقتل ولدى ، افلا ترون ان فرسه لما ركبه ادلى واسترسل ، ولا يفعل الفرس ذلك الا تحت الفارس الحاذق الممارس ، فخرج ايوب الى الفتى فبارزه فتطاردا قليلا ، وتضاربا حينا ، فحمل عليه ايوب فضربه وقتله ، وذكــر بعض اصحابنا انه شكه بالرمح واحتمله كالجرادة ، فلما رأت المعتزلة رئيسها وفارسها صريعا ، ولوا منهزمين بعد ما حمي الوطيس، وقتل الرئيس واستنجز القتل في المعتزلة وكان افلح بن عبد الوهاب يضرب ناحية وايوب يضرب ناحية أخرى ، وكان سيف ايوب بن العباس ليس له الا حد واحد ، وقيل ان ذلك لانه اذا عيي حمله على عاتقه ، فلما امعن أهل العسكر فى قتل الواصلية ودوخوهم ، وضعت الحرب أوزارها ، ولم يكن بقى من المعتزلة الا اليســير ، وصار المسلمون يعدون من قتله افلح ومن قتلــه ايــوب ، فوجدوا احدهما يزيد على الآخر واحدا ، قيل وصاحــب الزيادة هو افلح ، وذكر بعض اصحابنا ان قتلى افلــح اربعمائة . ولما أوهن الله المعتزلة ، وانهزموا وعسكــر الامام فى سافلتهم ، بلغنا ان ايوب بن العباس رأى شخصا

قائما كهيئة الرجل فى حومة القتال ، فخاله رجلا فضربه بالسيف فأحس شدة ، فلما رجع قال لاصحابه : انى ضربت شيئا فيه شدة ولم ادر ما هو ، فتصفحوا القتلى فوجدوه عمودا قائما ، فلمسوه بايديهم ، فسقط منفصلا من الموضع الذى اصابته ضربة ايوب .

بطولات ايوب بن العباس

ثم بعد ذلك بزمان ارسلت المعتزلة الى ايوب بن العباس بان يأتيهم بعد فعله الافاعيل فيهم ، فعزم على المسير اليهم فمنعه اصحابه فأبى الا المسير فحذروه الغدر ، فلم يعبا بهم ، فسار ايوب حتى وصل بعض احيائهم ، فتيممه فاذا برجال من الحي ينتظرون المامه بهم ، فانزلوه فى خص ورحبوا به ، فلما جن الليل قدموا له العشاء وهى جفنة طعام عليها شاة ووطب من لبن ، قال فأكل جميع ما احضروه وشرب ما فى الوطب من اللبن ، ثم اسند ظهره الى دعامة الخص وجعل يتلو القرآن ، حتى طلع عليه الفجر ، فصلى الصبح بوضوء العشاء ، فلما طلعت عليه الشمس ، امرهم بان يقدموا فرسه ، فقدموه وهم عازمون على غدره ، فلما ركب فرسه تكلم متكلمهم ، فقال : يا ايوب ان فتيان الحي راغبون فى ان تلاعبهم على فرسك ، فقال ايوب اجل ، ثم ان فتيان الحى ركبوا خيلهم ، فتناولوا قضبانا يترامون بها ، وفيهم رجل شجاع قد تكفل لهم بغدر ايوب فلاعبهم ايوب قليلا ، ولم يشعر الا والرجل خلفه قد شد عليه بالرمح ، فتغافل عنه ايوب حين علم به ، فلما اراد ان يضربه اتقى ايوب ضربته ، وشد عليه ايوب فقتله فحمل على اصحابه فقتل منهم ثمانية ، ثم حمل أخرى فقتل ثمانية أخرى، فصاح ايوب بنساء الحي هل يكفيكن، أو ازيدكن ؟ فقلن : قد اكتفينا ، قال فتوجه ايوب فمر بواد فوجد فيه

اسدا ولبوة وأشبالهما، فشد عليهما بالسيف فقطع ارجلهما فتركهما يزحفان ،واجتاز بحى من احياء البربر ، فقال يا اهل الحى من اراد منكم اللحم المكروه فليقصد الوادى عند السدرة ، فابتدر الحى الى الوادى فوجدوا الاسد واللبوة وأشبالهما فطفق القوم يأكلون .

زهد مهدى وورعه

وذكر بعض اصحابنا ان مهديا كان رجلا ورعا زاهدا فى الدنيا طالبا للآخرة ، وكان له أخ أو ابن خالة طالبا للآخرة من غير اعراض عن حظه من الدنيا ، فاختصما يوما بتاهرت الى الامام ، فقال ، مهدى : يا امير المؤمنين ان هذا اخى قد شغلته دنياه حتى كاد يضر بآخرته ، فقال الآخر : ان هذا اخى قد شغله رفض دنياه حتى كاد يضر بآخرته ، فاعرض عنهما ودعا لهما بخير .

ليست الدنيا عدوة الآخرة

ولما توجه الامام رحمه الله الى جبل نفوسة اصابه مطر بين منازل نفوسة وهو مرتحل ، فقصد دار مهدى فوجدها دار عابد زاهد ليست له رغبة فى الدنيا ، فلم يجد بها ما يقى عن نفسه القطر ، فرغب اليه ابن خالته الذى له حظ من الدنيا وسأله انتقال الامام ومن معه الى داره ، واعلمه ان ذلك ارفق بالامام لما هو فيه من اليسار ، واخف عن مهدى لما علمه فيه من الاقتار ، فاجابه سؤاله ، فخرجوا الى دار ابن خال مهدى ، ومهدى معه ، فلما دخلوا داره وجدوها دار ذى نعمة وبسطة ، وسعة رزق ، فخلع على كل واحد منهم ثيابا جديدة لم يصبها مطر ، وفرش فرشا وثيرة واحضر أطعمة حفيلة ، وأظهر لهم من صنوف البر ما استحسنه الامام غاية الاستحسان ، حتى استدعى منه ان

قال لمهدى : الآن خصمك ابن خالتك (1) فيما اختصمتما ، وبان ان حجته قامت على حجتك .

تتزوجه رغم فقره لصلاحه

وبلغنا ان مهديا خطب امرأة بجبل نفوسة فاستشارت في أمره شيخا من المشائخ . فقال لها : ان مهديا رجل له رغبة في الآخرة وزهد في الدنيا واجتهاد في الصلاح وله أرض كريمة محثوث لها سد فوق سد ، قد انهدمت سدودها وخربت جسورها ، ولم تدعه نفسه الى اصلاح شيء منها ، ولا يستطيع اصلاحها العدد القليل من الناس ، واراد ان يتزوجك ، فلا تصلح جسوره الا بتراب تنقليه على رأسك فزادها ذلك رغبة فيه وفي صلاحيته وتزوجها مهدى ، فلما كان بعد ذلك بدهر ، زارها الشيخ فلم يجدها في بيتها فاعلم بمكانها ، فوجدها في الحرث مع مهدى ، وهي تنقل التراب على رأسها لاصلاح الجسور ، فذكرها الشيخ فيما اعلمها من قبل به ، فحمدت الله على ما اعطاها من خدمة ولي من أوليائه . قال الشيخ ابو العباس وانما ساق الشيخ رحمه الله هذا الخبر قبله ليعلمك بمراتب الرجال وما حووا من درجات الكمال ، وهم مع ذلك لا يعتورهم كبر ولا استنكاف ، بل قد سلكوا سبيل من درج من اخيار الاسلاف ، فالله ينفعنا ببركتهم اجمعين .

نزول الامام عبد الوهاب رحمه الله على مدينة طرابلس

حدث غير واحد من اصحابنا ان الامام رحمه الله أراد المسير الى الحج فاخذ في اهبة السفر ، ثم سار متوجها ، فلما وصل الى جبال دمر استعمل عليها رجلا من أهلها

(1) اى غلبك فى الخصام

يقال له فزار ، ثم توجه الى جبل نفوسة ، فاجتمعت عليه جموع نفوسة فأخبرهم بما عزم عليه من تيممه الحج . فقالوا يا امير المؤمنين ان رأيت المقام فعلت، فانا نخشى عليك من المسودة (١) ، فانهم ان علموا بمسيرك عن بلادك وتوجهك الى بلادهم لم تسلم من آفة تصيبك منهم ، من قتل ، أو سجن ، أو نكال . وقد تعين عليك القيام بأمور المسلمين ، والنظر فيما يجمع كلمتهم ، ويصلح شأنهم فاقامتك فيهم آكد ، وواجب . فقد علمت انك لو غبت عنهم لضاعت الحقوق وتفرقت الكلمة ، قال فأرسل الامام رحمه الله الى اخوانه بالمشرق وكان المقدم فى ذلك العصر فى العلم والورع والفضل أبا الربيع بن حبيب ، رحمه الله وابن عباد المصرى ، فلما وصلهم الرسل والقوا اليهما من القول ما دار بين الامام وبين جماعة نفوسة ، واخبروهما ان الامام يستفتيهما مستضيئا علما من نورهما ، مع ما وهب الله له من العلم ، معتمدا ان فتيا غيره فى نازلة مختصة به أولى ، وانهى للنفس عن الهوى . فاجابه الربيع بان من كان مثلك فى العناية بأمور المسلمين ومحل امانتهم وخاف على نفسه من أهل الجور والبغي ، فينبغى له ان يستأجر من يحج عنه.وهو حي . واجاب ابن عباد بان من كان على هذه الصفة فليس عليه حج ، لان امان الطريق من الشروط التى هى مشترطة في وجوب الحج . فمكث الامام رحمه الله ينتظر رسله ، فلما قدمت الرسل بالجوابين أخذ بجواب الربيع وارسل من يحج عنه .

الامام يهتم فى دروسه بمسائل الصلاة

وأقام بجبل نفوسة فى تلك الحالة سبعة اعوام يستدرجهم في تعليم مسائل الصلاة ، وانفصل عنه فيما ذكر

---

(١) لقب العباسيين

قبل تكميلها . قال ابو العباس احمد بن الشيخ ابى عثمان سعيد ، وذلك لان نوازل مسائل الصلاة كثيرة ، وهى اول ما يحافظ عليه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يحاسب به العبد الصلاة » .

الامام عبد الوهاب يحاصر طرابلس

قال وكان الامام رحمه الله لما صرف الرسل الى المشرق جمع جموعا كثيرة وعسكرا ونزل على مدينة طرابلس محاصرا لها ومحاولا دخولها فى الطاعة ، والمصير الى ما عليه أهل الحق ، فحاصرها اشد الحصار ، ثم رأى له الصواب فى الارتحال عنها فارتحل عنها .

الافتراق الثانى فى الاباضية

حدث جماعة من اصحابنا ان الامام رحمه الله لما اراد التوجه الى تاهرت اجتمعت جموع أهل بلاد طرابلس ، فسألوا واليا يوليه عليهم ، وأراد ان يولى عليهم بعض وزرائه فلم يوافق ذلك مرادهم ، ورغبوا فى ان يولى عليهم وزيره السمح ابن عبد الاعلى رحمه الله ، لما رأوا محبة الامام فيه ، وحسن ظنه مع كونه ابن امامهم . فلما علم الامام عبد الوهاب رحمه الله ان رغبتهم فى السمح ، اذ لا يقوم مقامه فى نصيحة وعناية وحسن محبة احد ، ثم قال لهم ومع هذا فانى أوثركم به على نفسى ، فاستعمله عليهم وارتحل الى تاهرت . فلما ولى السمح على حيز طرابلس احسن فيهم السيرة ، وعدل فى احكامه ، فصلحت احوالهم فلم يزل مقرا بامامة عبد الوهاب وناصحا له فى رعيته حتى حضرته الوفاة ، وقد كانت عماله على نواحى طرابلس

تولية السمح ابن ابى الخطاب عبد الاعلى عاملا على نفوسه

سالكين مسلكه ، فى حسن السيرة ، فاجتمع اليه اصحابه فقالوا له : اوصنا وأمرنا بأمرك ، فانا مطيعوك فى الحياة وبعد الممات ، فانك لم تال بيننا رشدا جزاك الله عن رعيتك وعن الاسلام خيرا . فقال لهم السمح رحمه الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله ، والعمل بما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه ، وطاعة امامكم عبد الوهاب وتأييده ما دام على الحق الذى عليه سلفه ، وجهاد من خالفه ، فبذلك تستقيم احوالكم ، وينتظم شملكم ، ويتم خير دينكم ودنياكم .
وتوفي رحمه الله ، فلما توفي عظم مصابه وبلغ فى الناس فقده مبلغا عظيما . وخلف ولدا اسمه « خلف » فلشدة محبة الناس فى السمح وعظم منزلته فيهم أحسنت العامة الظن « بخلف » وأراد من ليست له بصيرة فى الدين ولا نظر فى العواقب توليته عليهم ، فقال أهل البصائر : لا ينبغى لكم ان تفتاتوا على امامكم فى شىء مما قلده الله من اموركم ، وولاه من صالح جمهوركم ، فقال ذووالعقول القاصرة : اما ان فعلنا ذلك رجونا ان يكون وفق ارادة امامنا ، وقال فريق منهم : نوليه على انفسنا ريثما يصل من الامام أمر نقف عنده ، فان اثبته اثبتناه ، وان عزله عزلناه . فابى ذلك كله أهل الصلاح كابى منيف اسماعيل بن درار الغدامسى وابى الحسن ايوب ، وامثالهما . فغلبت العامة وولوه من غير اذن الامام ، ولا رضى من أهل الصلاح فولوه على انفسهم . وكاتبوا الامام بموت عامله ، واقامتهم ولده مقامه، على انه ان اجاز ذلك اجازوه والا عزلوه . فلما وقف على ما خاطبوه جاوبهم بما نصه :

يولون ابن الوالى دون استشارة الامام

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

« اما بعد فاني آمركم بتقوى الله تعالى ، والاتباع بما امركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه ، والذى كتبتمونى به من وفاة السمح وتولية بعض الناس خلفا ، خلفا منهم ورد أهل الخير ذلك ، فان مولى خلفا بغير اذن امامه قد أخطأ سيرة المسلمين ، ومن ابى توليته فقد اصاب ، فاذا اتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمله السمح الى عمله الذى ولي عليه، الا خلف بن السمح، فحتى يأتيه أمرى وتوبوا الى ربكم لعلكم تفلحون » .

فلما وصل جواب الامام أهل بلاد طرابلس بما تضمنه من رد العمال الى اعمالهم ، وتخطئة من ولى خلفا، وتصويب من توقف عن توليته ، قلقوا فكتبوا الى الامام يراجعونه في أمر خلف ، ويسألونه ان يجيز توليتهم اياه . فجاوب رحمه الله بكتابين احدهما الى الجماعة ، والآخر أفرد به خلفا ، يعلمهم ان ذلك لا يسعه من قبل الله تعالى ، وانه لا سبيل الى بقائه على عمل . ثم اقتضى نظر الامام رحمه الله ان يوجه امناء من قبله الى جهة طرابلس مختبرين لاحوالها ، وعلم (1) اليهم بتولية خلف على جهات طرابلس ان وجدوه قد اعتزل واطاع الله ، وامر التقدمة . وان هم وجدوه مصرا على الخلاف نابذا امر الامام وراءه ظهريا ، رفضوه . واخبروا أهل الصلاح بان امامهم برىء منه ، فليجتنبوه ، حتى يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين . قال فوصل امناء الامام فوجدوا خلفا في عتوه واستنكاره ، فدفعوا له كتابا

---

(1) يريد عهد اليهم وامرهم

بالاعتزال ، فابى . وشايعه على ذلك اصحابه الذين ولوه وانهم لما وصل كتاب الامام بتخطئتهم كتبوا الى ابى سفيان محبوب بن الرحيل كتابا وجهوه اليه بالمشرق ، وهو اذاك رأس جماعة أهل الدعوة هنالك ، والمقدم عليهم بعد انقراض طبقة الربيع ومعاصريه ، رافعين اليه ما صدر عن الامام فيهم ، وقدروا ما هم عليه من اصابتهم بزعمهم ، وحسنوا تولية خلف ورجوا ان يكون منه جواب يوافق نظرهم الفاسد ، فوصلهم جوابه رحمه الله بتخطئتهم وتصويب من امتنع عن توليته ، وتوجيب طاعة امامهم .

هؤلاء ينبذون طاعة الامام بحجة انه ليس في حوزتهم

فلما وصلهم جواب محبوب بما خالف مواقفهم نبذوه واخذوا في مسلك طرق الضلال ، حتى اعلنوا بنبذ امامة عبد الوهاب وقالوا ما هو لنا بامام ، وانما امامنا خلف ، اذ هو في حوزتنا، والحافظ لجماعتنا، والجامع لكلمتنا. واما عبد الوهاب فانه في حوزة غير حوزتنا ، وغير أهل لجماعتنا، فبرأ منهم أهل الدعوة وليس بيننا وبينهم خلاف الا في مسألة الاقرار بامامة عبد الوهاب .

استعمال أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني رحمه الله ومحاربته خلف بن السمح الخبيث بن الطيب

ذكر جماعة من اصحابنا ان عامل الامام عبد الوهاب رحمه الله ابو الحسن ايوب ادركته منيته فكتبت نفوسة ومن حولهم من بلاد طرابلس الى الامام ، يخبرونه ويستدعون منه استعمال عامل ، فكاتبهم بان يعلموه برجل يرضى لاعمالهم وتتفق عليه كلمة أهل الفضل منهم ، فسموه له ، فكاتبوه باتفاق كلمتهم على ابى عبيدة عبد

الحميد الجناونى ، فكتب بتوليته على اعمالهم والنظر فى امورهم ، ولا علم له بما أرادوه . ونفذ به امـر الامــام فاجتمعت جموع أهل بلاد طرابلس من نفوسة وغيرهم على ابى عبيدة ليسمعوا منه ويطيعوا ، فلما قرأ كتاب الامام تنصل من الولاية وقال : انا ضعيف قالها مرارا فكتب الى الامام متنصلا ومقرا بالعجز والضعف . فلم يقبل منــه الامام عذرا فكتب اليه بالاقامة على ما ولاه من القيام على امور المسلمين .

الامام يقـول لابى عبيدة : ان كنـت ضعيـفا فالحـق يقويك

وكتب فيما كتب به اليه « ان كنت ضعيفا فى المال فبيت مال المسلمين تقويك، وان كنت ضعيف البدن فالحق يقويك وانكنت ضعيفا فى العلم فعليك بابى زكرياء اللالـوتى فاستعن به فيما يستقبل من امورك » . فاجتمعت عليه أيضا الجموع فقاللهم انتظرونى، فغاب عنهم ما يدرون ما يحاول فسار الى عجوز نفوسية مشهورة بالعلم والدين والصلاح ، فاستشارها فى تحمل ما تقلد أو الفرار ، فقالت له هــل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلفت به واحق بتقليد ما تقلدت ؟ قال : اما فى امور الرجال فلا ، قالت فادخل اذآ فيما قلدك الامام ، والا فانى اخشى ان تهشـم عظامك فى نار جهنم ، فقد قامت عليك الحجة ، فرجع اليهم وتقلد ما قلده من امورهم فكانت جماعة نفوسة يذكرون فضلها ، ويعترفون بها .

الهـروب من المسؤولية بعد قيام الحجـة الـم

فلما ولى عبد الحميد احسن السيرة وقام بحقـوق الله عزوجل وعمل بطاعته . فلما سمع خلف بن السمح بتولية الامام عبد الحميد بلغ ذلك منه مبلغا عظيما ، واستكبر ، واستخف اشياعه من الضلال فأطاعوه ، وجعل يشن الغارات على رعيـة عبد الحميد ، ويدس اللصوص ، فوجـه اليه

أبو عبيدة عبد الحميد يأمره بالكف عن الرعية، فلم يكف ، فكتب ابو عبيدة الى الامام يخبره بما نزل بالرعية فكتب اليه الامام ان يعامله بالملاطفة والملاينة ما استطاع ،لعله يتذكر أو يخشى ، فقال له : ان لم تجد بدا من المدافعة فدافع عن الرعية . فمكث يلاطفه حينا الى ان ورد عليه الخبر بوفاة الامام رحمه الله .

امامة افلح بن عبد الوهاب
رحمه الله

ولما توفي عبد الوهاب تدانى العدو من تاهرت طمعا فى الاستيلاء عليها ، ورجوا الظفر بها وباهلها لما ظنوه من عجزهم عن المدافعة، اذ اضحوا بلا امام، فابتدر جماعة أهل الدعوة ، فبايعوا افلح بن عبد الوهاب ، فعقدوا له الامامة فكان ميمون النقيبة، فسكن الله به البلاد ووقيه من الفساد . ولما بلغ ابا عبيدة موت الامام وتولية ابنه افلح الامامة ، كتب ابو عبيدة الى افلح يستشيره فى امر الخبيث بن الطيب ويستأذنه الدفاع ، فكتب اليه بمثل ما كتب به ابوه رحمه الله .

استفحال المشاغبين فى نفوسة

فلما بلغ خلفا وفاة الامام وتولية افلح انف واستكبر ولم يقر بامامته ، ولا دان بطاعته ، وانحاز بمن معه الى موضع يقال له « تيمتى » فسلط اشياعه على الطعام ، وشن الغارات على راعايا الامام ، واستباح الاموال ، واخرب الديار ، وقتل الرجال . حتى قتل عدة من اصحابه ، يحسب انهم من رعية ابى عبيدة عبد الحميد ، ثم عظمت صولته واشتدت شوكته حتى استمال كثيرا من الناس فمالوا اليه ، واكثر ميلهم خصب جانب خلف ، وجذب حيز ابى عبيدة ،

فكانوا معه طلبا لمعاشهم ورغبة فى الدنيا وكانوا معه على رأيه وبدعته .

ولما رأى قلة اصحاب ابى عبيدة وكثرة من معه من الضلال سولت له نفسه الخبيثة انتهاز الفرصة ومبادرة ابى عبيدة واصحابه ليستأصل شافتهم ، فجمع عساكره وتيمم أبا عبيدة فلما سمع به أبو عبيدة امر اصحابه بالخروج فخرجوا. فعسكر ببعد من الجبل ولما تدانى العسكران بعث خلف رعيلا من خيله نحو أربعمائة فارس ، فهم اصحاب عبد الحميد بان يخرجوا الى محاربتهم فمنعهم عبد الحميد من ذلك رقوبا ما عند الامام ، وطلبا للسلامة ، فقصدت الخيل قرية يقال لها « ويدوف » من رعية عبد الحميد ، فانتهبوا ما امكنهم من الاموال وقتلوا ما قدروا عليه من الرجال ، وكان اكثر الخيل اخذه خلف وأهل بيته ومواليه ومماليكه.

محاربة عبد الحميد الجناونى لخلف

فلما تحقق عبد الحميد بغيهم ولم يجد بدا من قتالهم أمر اصحابه بقتالهم . فالتقوا وانهزمت خيل خلف وقتل منهم عدد كثير . فاراد اصحاب عبد الحميد اتباعهم فنهاهم عن ذلك . واحسن السيرة ولما رأى خلف ما اصاب اصحابه من الهزيمة والقتل ، كر راجعا الى الموضع الذى منه خرج وهو موضع يقال له تيمتى فأقام به ، ورجع عبد الحميد الى موضعه وامر اصحابه بالرجوع الى مواضعهم ، وظن ان القوم لا يريدون بعد ذلك بأسا ، ثم ارسل الى خلف اذا ما فعلت ما فعلت فكن فى حيزك ، واكون فى حيزى ، وضع الحرب ، فابى خلف الا المحاربة وجعل يشن الغارات على رعية عبد الحميد ، وسلط عليها من يسومها أنواع العذاب لا يألوا فسادا وقتلا فى الاموال ، والانفس ، ثم ان خلفا ازدهى بكثرة من اجتمع له من العدد ، فامر ابو عبيدة

اصحابه بالخروج ، فخرجوا وهم في عدد قليل ، ولكنهم أهل بصائر يموتون علىما بايديهم من الحق . لا يأسفون على ما فاتهم من دنياهم ولا يعدون زائدا الا تقوى بهم ، ولا مطلبا الا ما يقدمونه لأخراهم . وقد اختلف في عددهم فقيل سبعمائة وقيل عدد اصحاب بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فاقبل خلف بمن اجتمع له وقد غره بالله الغرور ، ولم يدر « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » فجاء في أربعة آلاف فارس فارسل الى ابى عبيدة رسولين بخلع ولاية افلح ويقر له بالولاية ، فلما قدم رسولاه بذلك الى ابى عبيدة حاجهم ابو عبيدة في امر الائمة ، فقال : هل احدث افلح أو ابوه في الاسلام حدثا يحل لكما معه خلع ولايتهما ؟ واحتج عليهم بطاعة السمح لعبد الوهاب رحمه الله ، فاعتلا بانقطاع الحوزات ، فقال لهما: السمح قد اقر بطاعته على اختلاف الحوزات ، فقال له احدهما انا نخاف ان لم نجب الى طاعة هذا الرجل هراقة الدماء ، فقال ابو عبيدة : ايهما اعظم هراقة الدماء أم الترك للقيام بدين الله تعالى ؟ فقال له الرجل : هراقة الدماء اعظم ، قال له عبد الحميد : لو كان الامر كما ذكرت ما افترق اصحاب النهروان وغيرهم، واصحاب النخيلة، وابو بلال واصحابه، وعبد الله بن يحيى ، وابو حمزة واصحابهما ، وابو الخطاب ومن معه ، وابو حاتم ومن تبعه ، ولأذعنوا للطاعة دون هراقة الدماء ، انما قاتلوا وقتلوا في القيام بدين الله ، ولم ينكلوا خوفا من اراقة الدماء بل قد بذلوا مهجتهم ، مجاهدين على آثارهم خير مقتدمين ، لا نبغي عنهم بدلا ولا عنهم حولا . فمن حاول منا غير ذلك فالله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ثم قال للرسولين : فان استعظمتم هراقة

تعطيل احكام الله اعظم وزرا من هراقة الدماء

الدماء ، فارجعا الى صاحبكما فقولا له : ان هذا يـــوم الخميس فدعونا ، فاذا كان غدا يوم الجمعة نصوم لله تعالى ونطلع ، أنا ، وهو ، وابو المنيف اسماعيل بـــن درار ، فنبتهل فنجعل لعنة الله على الظالمين ، ونسأل الله ربنا ان يفتح بيننا وهو خير الفاتحين .

اخبار القتال الذى جرى بين الطائفتين

فرجع الرسولان الى خلف فاخبراه بما جرى بينهما وبين ابى عبيدة من القول فامر خلف عساكره بالتهيء للقاء ابى عبيدة ، فلما قرب عسكره عسكر ابى عبيدة ، تقدم رجل من اصحاب خلف ممن يرى تصويب ابى عبيدة واصحابه تميل نفسه اليهم ويشفق عليهم ، فقال لابى عبيدة : تنح باصحابك الى سفح الجبل فان كانت الدائرة لكم ادركتم ما رجوتم ، وامنتم ما خفتم ، وان تكن عليكم كنتم فى حصن ولا يضركم ذلك . فقال ابو عبيدة لاصحابه هذه نصيحة قد اخرجها الله من عدوكم وعدوه ، فامر اصحابه بالتنحى ، واسندوا ظهورهم الى جبل فظن خلف ان ذلك على جبـــن وهلع فقدم سرعان خيله ، ورعيان رجله ، فلمـــا جـــاء والعساكر على اثره ، وغشوا ابا عبيدة دعا ابو عبيـــدة بوضوء فتوضأ مستترا برجال ، وصلى ركعتين وابتهـــل وتضرع الى الله تعالى عز وجل ، وسأل ان يقل شوكتهـــم وقال : « يا من لم اعرض عنه منذ استقبلت أمره لا تفرق هذه العصابة على يـــدى » وبلغنا ان رجـــلا مـــن اصحاب خلف دنا من عسكر ابى عبيدة فقال لرجل منهم ما الـــذى أوقفكم ؟ قال وقفنا ندعو الله ، فقال الخلفى فما بـــال السلاح ، فقال للدفاع فى سبيل الله ، قال من تدفعون ؟ فقال : ندفع من بغى علينا ، فقال له آخر من اصحاب ابى عبيدة لصاحبه مالك النت له القول ؟ فقال له : طمعا فى

الصلح ورغبة في تأخير بعض الشر، يا اخي، ثم تدانى القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وذلك فى عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة احدى عشرة ومائتين ، قال وكان فى عسكر ابى عبيدة رجل شجاع ، حاذق بالطعن يقال له العباس ، ولد ايوب بن العباس ، فنظر اليه ابو عبيدة فرآه يضرب يمينا وشمالا ، وقد حمى الميمنة والميسرة والقلب ، فقال ابو عبيدة وقد ركزه انه لحمي المعقبات ، وقاه الله نار العقاب ، وذكر عن العباس انه ضرب رجلا بسيفه فأطار رأسه ، وقال العباس للرأس : الى النار وقال الرأس : وبئس المصير ، وكان ممن يكثر النسك والاجتهاد قبل ذلك ، فقال العباس : هذا جسد كنت ادعو له بالجنة زمانا ، وانه لمن وقود النار ، انا لله وانا اليه راجعون ، نسأل الله خواتم الخير .

ثم انهزم اصحاب خلف واسرع القتل فيهم ، فقتل منهم عدد كثير ، فأمر أبو عبيدة اصحابه ان لا يتبعوا مدبرا ، ولا يجهزوا على جريح ، واحسن فيهم السيرة ، فانحاز خلف وبقية اصحابه الى الموضع الذى يقال له تيمتى ، وامر باخراج جميع من فيها من نفوسة ، واجلهم ثلاثة ايام ، وقال من وجد فيها بعد الثلاثة ايام فمهدور الدم، وباخراج اليتامى ، والارامل ، ومن لا ذنب له ، فخرجوا من ديارهم كرها . ولما رأى اصحابه ما نزل بهم من خسار الدين والدنيا ، تفرقوا عنه الا قليلا منهم .

ثم سار من تفرق عنه منهم يقرأون على أبى عبيدة السلام ، تائبين ، فمن جاء منهم قبل توبته ، فاوهن الله شوكة خلف فلم تكن له بعد ذلك حركة ثم مات فى زيغه ثم ابنه مات ، ولم تكن له حركة . ثم ولد ابن خلف بعدها

فانحاز الى جزيرة جربة وما جاورها ، وسنذكر خبره اذا وصلنا اليه ان شاء الله .

ايام افلح كانت ايام استقرار

ثم ان الامام افلح رحمه الله تمكن في امامته واستقامت له الاحوال واستقامت به ، ولم يبق فى ايامه بعد خلف منازع ولا في جهاته طالع ، وبلغنا انه كان فى العلـــوم متفقها وعلى انواعه متطلعا ، ولقد ذكر انه كان يجلس لأربع حلق وذلك قبل بلوغه الحلم . وقام أبو عبيدة على ما ولاه الامام ملازما طاعة الله وحفظ ما اوجب عليــه حفظه ، من حدود الله وحقوق رعيته الى ان توفي رحمه الله . ثم استعمل الامام رحمه الله العباس على ما كان عليه عبد الحميد ، فأحسن السيرة وعامل رعيته بما عاملها به ابو عبيدة عبد الحميد من الرفق والحنان والعدل والاحسان الى ان توفي العباس رحمه الله .

الافتراق الثالث فى الاباضية
خروج نفاث وهو فرج بن نصر

حدث غير واحد من اصحابنا ان الامام رضى الله عنــه استعمل على قنطنار ابا يونس وسيم بن يونس النفوسى ، فولى قنطنار وما والاها ، فاحسن السيرة . ووسيم هــــذا من نفوسة الجبل ، ومنها خرج تحرجا من تباعات الناس ، وذلك انه كان له اماء يحتطبن من غير املاكه ، فخرج ذات مرة لما شعر بذلك فوجد المواضع التي يحتطبن منها قـــد دمرت وتهدمت جسورها ، لاستنقاع الماء بها لما صنع الاماء فلم ير السلامة الا فى الهروب بدينه ، فولاه الامام قنطنار لما علم من صلاحيته وورعه ، وكان له ابن اسمه سعــد ، وكان ذا فهم وذكاء ، فسار سعد الى تاهرت ليطلب العلـم

بها فكان هو ونفاث بن نصر يحضران معا مجالس الامام رحمه الله : يقرآن عليه ، فكان كل واحد منهما يجتهد ويجهد نفسه في دراسة العلم ، حتى حصلا ما رأيا فيه مقنعا ، وتشوقا الى بلادهما ، وذلك بعد وفاة وسيم ، فخرجا متوجهين الى بلادهما . وكان الامام لما بلغه موت ابى يونس عازما على استعمال عامل يلي جهات قنطنار ، فنظر في ذلك فلم ير له اهلا الا سعدا لما تحققه من صلاحيته واختبره من حسن حاله ، فكتب كتابا باستعمال سعد ، فطواه ، وختم عليه بخاتمه ، وأودعهما اياه ، ولم يعلمهما أيهما العامل . وقال لهما حين دفعه اليهما : لا تفكاه حتى تصلا قنطنار .

نفاث يخالف الامام وينتقده

فسارا فلما كان ببعض الطريق غلب الشره على نفاث فاستخفه حب الرئاسة ، فاستغفل سعدا وتخلف الى رحلهما ، ففض خاتم الكتاب وقرأه ، فوجد سعدا هو العامل ، فظنت نفسه الظنون ، واعتقد العداوة واضمر الغش لاستعمال الامام سعدا دونه ، ولما وصلا قنطنار قرأ بها كتاب الامام ، فسمع اهلها واطاعوا ، فاقام سعد واليا عليهم ، محسنا للسيرة ، عاملا بطاعة الله عز وجل ، وتمادى نفاث الى بلاده ، فسئل عن الامام واحواله ، فاظهر الطعن فيه ، وقال انه اضاع امور المسلمين ويزيد في الخلقة اذا مشى ، ويلبس الطرطور ، ويخرج الى الصيد، ويصلى بالاشبور (1) ، فبلغ الامام طعنه فيه ، وارسل الامام اليه بان يحضره بما نقم عليه ، فقال ان كان ما تقول حقا قبلنا ورجعنا اليه ، وان كان باطلا فايه ، وهذه الكلمة فيها معنى الوعيد ، فلما بلغ ذلك نفاثا ، قال ايه من السلطان هو القتل .

---

(1) فى بعض النسخ النبور

فتاوى غريبة لنفاث

وله مسائل انتحلها لا أصل لها منها زعمه ان الخطبة بدعة ومنها قوله ان ابن الاخ الشقيق أولى بالميراث من الاخوة للاب، وانهم يحجبونهم ، ولما انتشرذلك عنه وسمعه مشائخ أهل الدعوة ، قالوا لو لم يكن له جرم الا فتياه هذه لكان بها أهلا للضلال ، فكيف والضلال محيط به فى جميع الاحوال،فمن مذموم احواله ما بلغنا انه دخلقرية وجاء الى دار رجل من اهلها فلم يجده فانصرف ، فلما اتى صاحب الدار اعلمه اهله بمجيء نفاث يسأل عنه ، فابتدر الرجل وركب دابته وخرج يطلب نفاثا ، ليرجع الى مذهبه ، فسار الى الليل فادرك نفاثا فى ظلمة شديدة ، ونفاث لا يراه فسمع الرجل نفاثا يعاتب نفسه ويقول : ضللت وأضللت يا نفاث ، فحمد الرجل ربه ورجع الى اهله ، واقام على مذهب اهل الحق ، وبلغنا ان ابن اخت لنفاث اتاه فقال له : عبر لى رؤيا رأيتها ، رأيت رجلا جمع شعيرا فجعله صبرة كبيرة فرقي سنور اعلاها ، فقال له ذلك رجل جمع علوما فاستولى عليه الشيطان ، فقال انت هو الرجل يا خالى .

نفاث صاحب علم وذكاء ولكن حرم التوفيق

وبلغنا انه بلغ مبلغا عظيما فى تحصيل العلوم واوتى فهما ، الا انه فسد ذلك بما طبع عليه من الحسد ، وغلب عليه من حب الخوض فى غمرات الدنيا ، فمن فهمه ان امرأة سألته عن بيض طاهر طبخ فى ماء نجس ، هل سينجس البيض ام لا ، فقال لها قفى مكانك حتى اخرج اليك ، فدخل الدار واخذ نيلجا فجعله فى ماء ، وطبخ فيه بيضا حتى نضج ، فلما قشر البيضة وجد لون النيلج قد خلط الى داخل البيضة ، فعلم ان القشر لا يمنع النجس فخرج الى المرأة ، فاعلمها ان البيض غير طاهر . وبلغنا ان سعدا خرج فى اثر نفاث ليتلافى اهل جبل نفوسة ، قبل

استفساد نفاث ، ثم شرع فى بناء دار مجاورة لنفاث ، وجعل اخوانه يحسنون عونه فى البناء ، وفى اثناء ذلك لم يزل نفاث يلازم العمل معه بيده ، وكان يحسن صناعة البناء فكلما رأى ذلك منه خاف توهم النفوسيين انه راض عن نفاث ، فكان يقول له بمحضر جمعهم الى متى انت مقيم على كفرك يا نفاث ؟ فقال معاذ الله من الكفر (1) يا شيخ فاذا خلا سعد باصحابه قال لهم ، ما كان جزاء من يحسن عونى ان اعامله بقبح من القول ، ولا ان اقابله الا بالاكرام ، وانما خفت ان يراه معى اهل الموضع فيحسنون به الظن ويجد سبيلا الى فتنتهم .

نفاث فى بلاط العباسيين

وذكر عن نفاث انه توجه الى ارض الشرق ووصل بغداد ومكث فيها زمانا وكان يستأنس برجل من أهل بغداد ، ويجالسه وبينما هما ذات يوم جالسان ، اذ سمع نفاث مناديا ينادى فقال لصاحبه ما هذا ؟ فقال مسألة وقعت فى مجلس امير المؤمنين ، فمن اجابه عنها فله سؤاله ، ومناه فقال له نفاث انا اجيب امير المؤمنين عن مسألته ، فقال له صاحبه اخشى عليك من القتل ان لم تجبه بعد تكلفك بالجواب . فقال له بل اجيبه عن كل ما سأل . فاجتاز به خدمة السلطان وانطلق معهم فلما مثل بين يديه سلم عليه فقربه السلطان فسأله عن احواله، وبلده ونسبه ومولده، فقال له نفاث : يا أمير المؤمنين أنا رجل من البربر والبربر لا أدب عندهم فان رأى أمير المؤمنين الصفح عن العبد ان أساء والتجاوز عنه ان بدا منه الجفاء فعل ؟ فقال له السلطان : قل ما بدا لك

(1) لا تنس ان الاباضية تطلق كلمة كفر على اقتراف المعصية والاصرار على الذنب على حد قول الرسول عليه السلام للصحابة (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض).

فسأله السلطان عن المسألة فاجاب عنها ، ثم سأله عن مسألة أخرى فاجاب ، ثم سأله عن أخرى فاجاب ، وذلك بمحضر الفقهاء الاكابر من أهل بغداد، فطفق كل منهم يسأله فيجيب حتى نفذ السؤال فلم يقف عن جواب . فنظر اليه السلطان نظرة مزدر برثاثة حاله على ما اوتى من العلم ، فقال نعم العسل فى ظرف سوء ، ففطن به نفاث ، فقال معرضا : ونعم الرجل فى قبر سوء ، يعنى ديوان جابر بن زيد رحمه الله فانه فى خزانة السلطان لا ينتفع به احد ، فغضب السلطان لذلك وهم به . وتذكر ما قدم من اذنه فى ان يقول ما شاء ، فامسك ، ثم انه قال له : سل حاجتك ، فقال له حاجتى ان تهب لى ديوان جابر بن زيد رحمه الله (I) لاستنسخه ، فاجابه السلطان الى ذلك . فلما خرج نفاث قال للسلطان بعض وزرائه ، يا امير المؤمنين هذا ديوان معدوم غير موجود الا فى خزانتك ، فكيف تسمح به لسواك فيخرجه فيصير فى غير خزانتك ، وفى غير بلدك ، ويزداد به هذا المغربى فخامة . ما هذا برأى ، فقال لهم انى قد وعدت الرجل ومثلى لا ينبغى له ان يخالف وعدا ، فما الحيلة فاشار عليه احدهم ان يخيره فى يوم وليلة مقبلة من ايام اقامته فينسخ فيهما ما قدر عليه ، ففعل ، فاختار يوما وليلة واعلمه بهما ثم اعد جميع ما قد رأى ان فيه كفاية ، من حبر واقلام مبرية ، وورق وكاغد واستأجر جماعة من الوارقين . فلما كان اليوم الذى عزم فيه على أخذ الديوان وقد هيأ كل ما يحتاج اليه ، فرق الديوان على الوارقين ، وجعل لكل ناسخ دينارا ولكل ممل نصف

يظفر بديوان جابر ابن زيد فى بغداد ثم يدفنه بعد

(I) هو الامام الجليل والمحدث الثقة ، وهو اول من نقل عنه المذهب الاباضى ويبدو ان ديوانه هذا مجموع الاحاديث والآثار المروية عن الصحابة على الطريقة الاولى التى انتهجتها كتب الحديث ، وتوفى رحمه الله سنة 96 هـ

دينار ، فلما كان آخر النهار استدعى آخرين ، وجعل لكل ناسخ دينارين ولكل ممل دينارا فالاجرة الاولى على عمل النهار ، والاخرى على عمل الليل ، فما انقضى الليل الا والديوان كله قد كمل نسخه ، الا سفرا واحدا . فجاءه رسول السلطان يطلب الديوان ، فدفعه الى من تناوله له ، وأبقى في يديه السفر الذى لم ينسخه ، فشقه فى مجلس السلطان مرة واحدة فحفظه كله ، فاعلم السلطان بذلك فامر بامتحانه فاخذ منه الكتاب فقرأه سردا بلا نظر ، فعجب السلطان بذلك ، ففصل نفاث من مجلسه فاملأ السفر على من نسخه فكمل له الديوان ، واعملت الحيلة فى القبض عليه . واعمل هو حيله فى التخلص ، وسلك طريقا مجهولة ، حتى نفذ الى بلده ومعه الديوان . قيل بانه سبعة احمال . فلما وصل الى بلاد طرابلس وجد اصحابه الذين ضلوا لضلالته قد قلوا وضعفوا ، فساء ظنه وخشي ان اظهر الديوان تكون جماعة أهل الدعوة هم المنتفعون به ، فلم تسمح نفسه الخبيثة باظهاره ، فحفر حفرة ودفن فيها الديوان بحيث لايعلم له موضع ، ففقد الى يومنا هذا ، ومات نفاث وكان بدء أمره نفاقا وكفرا وعاقبته حسدا ، فنعوذ بالله من علم لا ينفع وعمل للكلم الطيب لا يرفع،ولم يبق ببلادنا من يقول بقول نفاث وينصر حجته الا فريق من مطماطة فمنهم من بالجمة ومنهم بالجبل واليه ينسبون، فيقال لهم النفاثية، فوقى الله الامامة شره ، ودحض عزه .

وفاة الامام افلح وولاية ابنه ابى بكر

— واقام الامام رحمه الله بتاهرت سالمة ايامه من الشوائب متصفا بجميل الخير وحميد المناقب ، رادعا لكل باغ وظالم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، الى ان توفي رحمة الله عليه

وكانت مدة امامته ستين سنة . فولى بعده ابنه ابو بكر
وكان ابنه محمد غائبا بارض المشرق لقضاء فريضة الحج
فدل عليه واخذ بمكة وحمل الى بغداد وسجن بها حينا ، ثم
اطلق واحسنت جائزته ، فتوجه يريد المغرب ، فزعموا
انه لما انفصل من بغداد كان ببغداد من اهل التعديل من
اعلمهم انه سوف تكون له ولاية ، فجدوا فى طلبه يريدون
به شرا ، فنجاه الله من شرهم ووصل الى تاهرت فوجد
اهلها مجتمعين فى امر ابى بكر لما بينه وبين ابن عرفة .
وذلك ان ابن عرفة من اعيان اهل تاهرت فكانت بينه وبين
ابى بكر مواقعة افضت الى حرب وكاد الافتراق ان يقع
والفتن لا ترفع بينهما ، فبينما الناس فى ذلك اذ أصبح
ابن عرفة قتيلا . فنسب الى ابى بكر وهذا ما منع من وقوع
الاتفاق على طاعته ، فلما يسر الله بقدوم محمد كان رافعا
للخلاف، وقاطعا لقبائح الاوصاف فاعتزل ابو بكر الولاية
وانسلخ منها . ولم يجد الناس لمحمد محيدا عنها ، فعقدوا
له بيعة ، والتزموا سمعه وطاعته .

امامة محمد بن افلح بن عبد الوهاب
رحمه الله

حدث غير واحد من اصحابنا ان محمدا بن افلح اجمعت
على توليته جماعة المسلمين ، فولوه على انفسهم فلم يختلف
عليه اثنان ، وبلغ الغاية في العدل والفضل والاقتداء
بمن سلفه ، فكانت نفوسة فيما قيل لا يعدلون ايامه
وسيرته الا بأيام جده عبد الرحمن وسيرته وذلك انهم
اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد ، فطائفة يصلون ، وطائفة
يقرأون الكتاب ، وطائفة يتذاكرون في فنون العلم، ومكث
فى امامته اربعين سنة على هذا الحال ، محمود السيرة مجتهدا

فى الصلاح قائما بالحق قاضيا بالعدل الى ان علت سنه ورق عظمه ، وتوفى رحمه الله ، وله تآليف فى الرد على اهــل الخلاف لا يشق فيها غباره ولا تياره ، فولى بعده ابنه يوسف ابن محمد بن افلح رحمه الله .

امامة يوسف بن محمد بن افلح رحمه الله

ولما مات محمد رحمه الله ولى ابنه يوسف ، فمكث فى الامامة اثنى عشر سنة ، وقد اطردت له الامور ، ولم يبغ عليه احد من رعيته فى أمر من الامور ، وكان عامله على جبل نفوسة ابا منصور الياس على ما كان عليه فى ايــام ابيه ، وايام جده ، وكان قاضيه اذ ذاك عمروس بن فتح رحمه الله وكان عالما كبيرا ولــه تواليف فى الاصــول والفروع . وكان قد عزم على ان يؤلف تأليفا مرضيا على ثلاثة قواعد : الكتاب ، والسنة ، والرأى ، ويجعل كــل قاعدة بمعزل فادركه اجله عجلا قبل تأليفه « فانا لله وانا اليه راجعون » ، وفى ايام يوسف كان طلب أبى منصور ولد ابن خلف على ما سيأتى ذكره . وذلك ان ابا منصــور كان فاضلا مستجاب الدعاء ، ذا كرامات ، ذكر عنه انــه اذا خرج فى عسكر ركب بغلة وكان لا يتقى النبــال ، وكانت النبال تتحادى عنه وعن بغلته يمينا وشمالا ، وهو مقتحم الحروب ، لا يقع شىء منها عليه ولا عليها ، قلــت ولعل ركوبه البغلة لان ينشط العامة ، ويشجعهــم ولان يعلموا انه لا يحدث نفسه بفرار فيتاسوا به ، وان كانت البغلة ليست بمركوب لمقتحم الحروب . وحدث يعقوب بن ابى يعقوب ان ابا منصور رحمه الله خرج فى طلب ولد ابن خلف فى آخر ولاية الرستميين وقد هرب منه وسار الى

ابو منصور الياس واخباره

زواغة والتأمت رواغة . واجمعوا ان يمنعوه ، وكانوا على مذهب ابيه فسمعوا قوله واطاعوه واقبلوا مجيبين دعوته الى ان من الله عليهم بأبى منصور فردهم عن مذهبه ، الى مذهب الحق حسبما يأتي ذكره ان شاء الله ، قال فسار ابو منصور بعسكر من نفوسة فلما وصل ريضة بخارج جزيرة جربة وجد بها جموع زواغة ، فى اعداد كثيرة محدقين على ولد ابن خلف ، عازمين على منعه من ابى منصور ، قال : فقام فيهم شيخ من بنى يوراسن يقال له ابو سلامة ، فقال : يا معشر زواغة عندىلكم نصيحة، وذلك ان تختاروا واحدة من ثلاثة اما ان تتركوا بادية زيرة ، وتدخلوا جزيرة جربة فتمتنعوا باخوتكم وتمنعوا صاحبكم ، واما ان ترسلوا وفدا الى الامام ، فترغبوا اليه فى ان يفردكم بعامل ، فتخرجوا من طاعة نفوسة ، فلا يكون لهم عليكم سبيل . واما ان تدفعوا لى ابن خلف فانطلق به الى نفوسة تحت امان وانا كفيل بسلامته ، وانهم لا يخرجون فيه عن قانون الحق ، فلما سمعت زواغة مقالته قام رجل من عامتهم فقال ما اراد هذا اليوراسنى الا الايقاع بخليفتنا ، فقال ابو سلامة : كيف قلت ؟ فابتدر الجواب رجل من علمائهم ، فقال اعرض عنه يا ابا سلامة ، فانه جاهل ، فقال قد اعرضت عنه ، وقام منصرفا عن محفلهم . ثم ان زواغة اجتمعت على مناصبة ابى منصور فناجزهم القتال فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت زواغة ، وكان اكثر شجر الريضة قريب عهد بالانشاء ، وكانوا لما غرسوه حفوه باعواد اثبتوها فى حفر ووصلوا ما بينها بالحبال لترد عنها الوحش لئلا يفسدها ، فاكثر تلك الارض على هذه الصفة ، فلما خرج القوم اعترضتهم تلك الحبال ، فكلما راموا مهربا وطلبوا

ابو منصور يحاصر خلفا واتباعه فى مدينة جربة

ملجأ حالت تلك الحبال بينهم وبين ما يطلبون ، فطفق اصحاب ابى منصور يقتلونهم فى كل مكان ، حتى مات منهم عدد كثير ، فرجع عنهم . واجتمع من ابقته الوقيعة منهم فلجأوا الى جزيرة جربة واستجار ولد ابن خلف برجل من زواغة يقال له معقل من بنى تامستاوت ، فادخله فى قصر من قصور جربة ، يقال له غردان فسار اليهم أبو منصور بعسكره ، فلما دنا من جزيرة جربة وجه رجلا من بنى يراسن الى الزواغى مجير ولد ابن خلف ، وارسل معه مائة دينار مصارفة ، ودخل الرجل جربة فلما وصل الى الزواغى سلم عليه وجعل يصافحه ويصب الدنانير من كمه الى كم الزواغى فلما أحس بالدنانير جعل يسأله عن أحوال الشيخ ويقول له : لو اتيت الى اولادنا ندفعناهم اليك . وكان ابو منصور رحمه الله لما قدم الى جربة وصل اليها بعد ثلاثة أو قريبا منها لان من سيرته اذا كان مرتحلا بعسكره وحضر وقت الصلاة نقر فى الطبل فيقف أول العسكر وآخره ثم ينزل فيصلى بهم ، فاذا صلوا ارتحلوا . وكان هذا دأبه فهو سبب مهله في السير، فلما حل بهم أبو منصور تقدم الى معقل ولد ابن خلف ، فقال : انزل ايها الامير فقد طالما ارملت نساء زواغة ، فقال ولد ابن خلف ليتكم لم تسمونى اميرا وناداهم نداء فيه جفاء ، قال، فدفعوه الى ابى منصور فسار به ولم يكن بجربة حينئذ حركة ولا قتال ، فاحتمل ولد ابن خلف الى الجبل فسجنوه هنالك، ولم يزل مسجونا حتى نزلت عنده نازلة في قطع رجل لص (1) ، فاختلفوا فيها فاحتاجوا اليه ، فانه كان عالما فتوجهوا نحوه وسالوه من أين تقطع

---

(1) لعله ليس بلص . بل قاطع طريق ، والا فاللص لا تقطع رجله

رجل السارق فافتاهم بانها تقطع دون العقب ، فقال عند ذلك مقالة جابر بن زيد لما استفتى فى السجن وخبـــره مشهور وسيأتى ذكره ، وقد ذكر بعض اصحابنا ان الفتى تاب ورجع الى مذهب أهل الحق ، وحسنت حاله ، ثــم ان أبا منصور توفي رحمه الله وولى مكانه افلح بن العباس بنفوسة من قبل الامام فكان حسن السيرة كأبيه .

يستفتونه وهـو فى السجـن

وقعة مانو وانقراض الامامة

حدث غير واحد من اصحابنا ان نفوسة كانوا اطوع رعايا بالدولة الرستمية واكثرها عونا على الخير واشدها بأسا فى النصر على الاعداء ، وفي ذلك يقول الامام رحمه الله : انما قام هذا الدين بسيوف نفوسة واموال مزاتة ، وانشهر الصيت على نفوسة حتى اشتهر فى بلاد المشرق عند سلوك المسودة، لمكاتبات أهل بلاد القيروان وأهل طرابلس وغيرها من بلاد المغرب التى انتشرت بهادعوتهم ، واستقامت بهـا مملكتهم ، وبهم ظهروا على من سواهم وكان ذلك فى ايام المتوكل ببغداد .

انما قام هذا الدين بامـوال مزاتـة وسيوف نفوسـة

فلما تواترت الكتب اليه من الجهات الغربية ان دعوة الرستميين قد تمت وايامهم قد استقامت لا ينازعهم فيها منازع ولايدافعهم عنها مدافع،ويستنفرون من عنده جيشا ينتظم به اليهم ملك طرابلس والمغرب فاهتز لذلك وتحرك اليه خاطره ، فوجه عسكرا الى المغرب ، وامر عليه ابراهيم ابن أحمد من بنى الاغلب فتوجه ابراهيم بعسكره الى المغرب قاصدا تاهرت ، فلما قرب من طرابلس سمعت بخبـــره نفوسة فاجتمعوا ، واجتمع رأيهم على ان لا يتركوه وما اراده من المسير الى تاهرت ، دون ان يناصبوه . فاتصل به ما عزموا عليه ، فوجه اليهم ان اتركوا الي ساحل البحـــر

مقدار نشر عمامتي لأجتاز فيه انا ومن معي ، فأبوا من ذلك فلما رأى ابراهيم ان لا بد من رجوعــه الى المشرق أو مناصبتهم عزم على لقائهم ، فقال لأصحابه خذوا اسلحتكم وشمروا وجوزوا على الساحل ولا تتعرضوا لهؤلاء القوم ـ فان تركونا وطريقنا . . . والا قاتلناهم ، فبلغ نفوسة ما عزم عليه ابراهيم ، فقال بعضهم دعوا هذا الرجل يجتاز ولاتتعرضوا له بشيء ، فأبى الاكثرون ذلك وكان ممن كره تعرضهم سعد بن ابي يونس واشار بالكف عنهم ، فقـال له بعض العامة : يا سعد تشوقت الى شداخ قنطنار فجزعت من القتل فى سبيل الله . فقال لهم يا قــوم ليس فى ما تقولون ، ولكن خشيت ان تذبح البقرة فيتبعها عجلهــا ـ يعنى بالبقرة نفوسة وبالعجل قنطنار ـ ثم خرجوا الى العسكر يمنعونه السلوك الىالمغرب . فلحقوه بموضع يقال له مانو ، وهو قصر على ساحل البحر من ابنية الامم السالفة فاقتتلوا قتالا شديدا لم ير أشد منه بالمغرب فى ذلك العصر فخرج رجل من عسكر المشرق يطلب المبارزة من عسكـــر نفوسة فلم يخرج اليه احد الا قتله ، فأراد الخروج اليــه افلح بن العباس وهوامير الجيش ، فأبى ذلك أصحابه فقال لا بد من ذلك فخرج اليه فقتله افلح واشتد بينهم القتال ، واسرع القتل في الفريقين وكثر القتل والجراح في نفوسة حتى هموا بالانهزام ، فلما رأى ذلك افلح أمر صاحــب البند ان يركزه فى الارض حتى لا ينهزم احد على البند ، فأبى صاحب البند من ذلك . ثم اقتتلوا مليا ، ثم رجـــع فقال اركز البند فأبى فقال لا بد ان تحفر للبند فتركزه فقال له صاحب البند انىقد امسكته معجدك ومعابيكومع اخيك ، ولم يأمرنى احد منهم بأن احفر له ، وها انا حفرت

له حفر الله لك . فلما ركزه في الحفرة ، ولى أفلح منهزما وتركهم يلوذون به ، ولم يستجيزوا ان ينهزموا ويتركوا البند قائما ، فقتل منهم بشر كثير . وقد كان أفلح فيما بلغنا قد كره خروجهم الى ابراهيم ، وقتالهم اياه ، ولذلك فعل بهم ما فعل . ثم ان رجلا من ذوى البصيرة فى دين الله ردد بصره في البند فرآه قائما والناس يلوذون به ويصرعون حوله فعمد اليه وقال انى لارى انك لم يبق لك حظ فى النصر ، وانك منهزم ، فضربه بسيفه فسقط .

اثر وقعة مانو على نفوسة

فلما رأى من بقي من عسكر أفلح ان البند قد سقط ولوا مدبرين ، فافلت من افلت منهم . فذكر من يوثق به ان عدة القتلى اثنا عشر ألفا ، فمن نفوسة يومئذ اربعة آلاف ومن سائر القبائل ثمانية آلاف، وكان فى القتى اربعمائة عالم ، ولم يبق بعدهم عالم يفتى فى النوازل الا ابو القاسم البغطورى ، وعبد الله بن الخير . ثم تلامذتهما بعدهما . وبلغنا ان عمروس ابن فتح كان فى آخر العسكر وتحته فرس سابق وكان يحمى صاحبه ، فاذا طلب لحق واذا طلب سبق ، فنصبوا له حبالا واضطروه اليها ، فعثر به الفرس واخذ أسيرا .

تلك كلمة ذل لا يسمعها منى

ومضوا به الى ابراهيم بن أحمد ، فاشار الى عمروس بان يستعفى فيعفى عنه ، قال عمروس تلك كلمة لا يسمعها منى ، ولكن أسأل ان لا تنزعوا عنى سراويلى هذا ، فانى أوقن بالهلاك ، فجعلوا يقطعون اعضاءه فقطعوه أنملة فأنملة ، فلما وصلوا بالقطع الى عضده استشهد رحمه الله .

ثم ان بقية نفوسة بعد الواقعة رجعوا الى جبل نفوسة فتحصنوا فيه ، وتشاوروا فى عزل أفلح بن العباس وتولية

ابن عم له ، فاتفق جميعهم على ذلك الا ابا معروف فانه أبى ذلك خشية الاختلاف .

ثم ان نفوسة عزلوا أفلح بن العباس فأقاموا عوضا عنه ابن عم له ليقوم بأمورهم ، حتى يخاطب الامام بما رآه ، وبما دعاهم الى ذلك ، فلما فعلوا ذلك حنق على فعلهم أفلح، حتى رام الخروج على جماعة اصحابه ، والقيام بمخالفتهم ، وكان له صديق من نفوسة فعرض على صديقه ما عزم عليه من الخلاف ، وحاول منه ان يساعده على ذلك فامتنع ، فبلغ أبا معروف ما عزم عليه أفلح فجاءه خفية وقبح عليه الخلاف ، وسوء عواقبه ووعظه ، فركن اليه ولم يتهم قوله، لما تقدم منه أيضا من كراهية خلع أفلح ، فأراد الله به خيرا فكف ، فأقام ابن عمه نحو ثلاثة اشهر فلم يحسن التدبير ، ولا امرا من الامور ، فلما رأوا عجزه أخروه ، وقدموا أفلح على ما كان عليه ، وكان ذلك ببركة ابى معروف وحسن سيرته ، وقد ذكر جماعة من اصحابه عن رجل من عسكر ابراهيم قتل أخ له فجاء ليلا ليحمله على دابته ، ثم التفت الى موضع المعركة فرأى شيئا يطوف على القتلى فلما مر بقتلى عسكر افلح نادى : كبروا يا أهل الجنة ، فكبروا بأجمعهم، ثم مر بقتلى عسكر ابراهيم فنادى انبحوا يا كلاب النار ، فنبحوا باجمعهم ، ونبح أخوه على الدابة فألقاه عنها وهرب ، ومضى لسبيله .

ابراهيم بن الاغلب يتتبع بقية اهل الدعوة

ولما فرغ ابراهيم من نفوسة ذكر له ان بقنطنار بقية من أهل الدعوة ، فقصدها ، ولم يشعروا حتى غشيهم سحرا ، فقتل منهم عددا كثيرا ، وأخذ من صلحائهم وعلمائهم ثمانين رجل ، فشدهم وثاقا ، ثم سار ، فذكر له ان بنفزاوة ايضا جماعة اخرى ، وفيها رجل عالم يقال

له ابو بكر بن يوسف النفوسي ، رحمه الله ، ووجه اليه ، فأخذته رسله من تيزاج، وهى قرية من قراها، فلما أخذوه سألهم الشيخ ان يدعوه حتى يركع ركعتين ، فتركوه فصلى واخذ فى الدعاء والتضرع الى الله عز وجل ، فارسل الله عليهم ريحا صرصرا ، فأظلمت الارض اشد من ظلمة الليل فحيل بينهم وبين الشيخ فأخذه ابنه بيده ، وكان الشيخ مكفوف البصر ، ومضى الى تناوتة ، وهم اهل القرية المعروفة بشيطان، من قرى نفزاوة، فنجاه الله من كيدهم.

ثم ان عدو الله توجه الى القيروان بالثمانين رجلا الذين هم فى وثاقه ، من قنطنار ، وفيهم رجل يقال له ابن تنتيت مقطوع العرقوب ـ ولم تطب نفسه بالهروب دون اذنهم ـ فأذنوا له ، فسل رجله من القيد وهرب . فأخذ اصحابه ، فقتلوا باجمعهم ، فكان ما ابقته من الضعف هذه الواقعة وما اتصل بها سببا لانقراض الدعوة ، وذلك لان نفوسة كانوا عمدتها ، قامت بقيامهم ، وانقطعت لانقطاعهم ، فلما ضعفوا انتهكت الحرمة . واستفزت الامامة . حتى انقرضت حسبما ياتى ذكره .

نبدأ بنبذ من أخبار عبيد الله ووقوعه بأرض المغرب وانتشار مذهب الشيعة بها ، وما يتصل بذلك من الاخبار التى ذكرها ، ويفتقر هذا الكتاب اليها ، حتى لا يخلو منها ، لارتباطها بشيء سلفنا

رأيت باستخارة الله ان اختزل اكثر ما ذكره الشيخ رحمه الله ، فى هذا الموضع ، لقلة فائدته ، واذكر منها موضع الحاجة ، واستخلصه عن مقتضى ما ذكره « الرقيق » فى تاريخ افريقية ما تدعو اليه الحاجة .

عبيد الله الشيعي وظهوره بالمغرب

فأقول : عبيد الله هذا هو الذى يكنى ابا القاسم ، وسموه المهدى محمد ، وهو الذى يسمى : الامام القائم بن على بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، بن على بن ابى طالب فيما ذكره الرقيق .

وقد ذكر الرقيق ان المهدى هو ابو محمد ، وان الخليفة بعده ابنه القائم ابو القاسم محمد بن المهدى وبعده ابنه المنصور اسماعيل بن القائم ، وبعده ابنه المعز ، معد بن المنصور ، ومعد هو ابو تميم ، وسيأتى ذكر شيء عنه فى اثناء أخبار هذا الكتاب .

ما قيل فى نسب الفاطميين

وقد قال بعض الناسبين ، واصحاب التواريخ ان انتسابهم الى أهل البيت غير ثابت ، وكان هذا قد حصل به شيء من علم الحدثان ، وكان يرى ان امره بعزلاعة من ارض اليمن ، ومنها تفرق دعاتهم ، وان بأرض المغرب تتم الدولة ، ويعم ذكرها ورأى بالعلامات ان ابا القاسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى هو الداعى باليمن ، فلما اتى الوقت وجه الى اليمن داعيا ، فأقام بأرض اليمن، الى ان انتشرت به الدعوة الشيعية وان عبد الله الحسن بن احمد بن زكرياء الكوفى المعروف بصاحب البدر هو الداعى بأرض المغرب ، فوجهه اليها وامره ان يبدأ بلقاء ابى القاسم الداعى باليمن ويتمنى سيرته ، وينتظر مخارج افعاله ، فيجتهد بها ، ففعل .

اقامة عبيد الله بقلعة كتامة

ثم خرج الى مكة فصادف بها جماعة من كتامة ، ممن حج تلك السنة ، وكان منهم من تقدم له شيء من التشيع ، فصاحبهم حتى أنزلوه قلعة ايكجان بنظر ميلة ، من بلاد كتامة ، فلذلك قيل له الكجانى ، ثم انتقل الى تاصروت ،

فأقام ببلاد كتامة داعيا مدة سنتين ، تمكنت به الدعـوة الشيمية ، وانتشرت فيما يليها من الجهات بعد ان عبـأ العساكر ، وكابر الحروب ، وقارع غير واحد من الاغالبة ، وقوي ، وافتتح البلاد فى أخبار تطول ، وانما قصدنا من ذلك الاختصار .

وفى اثناء هذه المدة توفى الامام بالعراق ، وعهد الى ابنه المهدى عبيد الله ، فجاءته فى الكتاب عبيد الله (1) يعلمه ان الامور قد تمهدت ، او كادت ، فتوجه الى المغرب مجاهدا قاصدا سلجماسة ، فاجتاز فى طريقه على وارجلان فاستخف به سفهاؤها ، وحتوا فى وجهه التراب يقولون : هذا الذى جاء من الشرق يطلب الملك ، وكان اشر الناس عليه أهل قصر بكر ، فلذلك فى رجوعه حسبما يأتى ذكره حرق المسجد الكبير ، وكان عند وصوله ورجلان سأل من رئيسها ؟ فقيل له : غيار ، فتطير بهذا الاسم . فتوجه الى سلجماسة فوجد صاحب سلجماسة اليسع بن مدرار فأكرم مثواه ، وأسكنه عالية دار لرجل من أهل سلجماسة ساكن فى اسفلها ، فلما كان ليلة من الليالى رأى السلجمـاسى فى منامه كأن ثعبانا عظيما فى داره مضطجعا ، فانتبـه مذعورا ، فقص الرؤيا على ضيفه من غير ان يعلمه انـه الذى رآها ، فقال له ان صح ما ذكرت فهذا ملك يملـك المغرب والمشرق، فقبل يده وقال : والله يا مولاى انى رأيت الرؤيا وليس معى فى دارى غيرك ، فازداد بذلك أنسـا وازال وحشته ، واقام بسجلماسة الى ان فتح ابو عبد الله طبنة وبغاي وطرابلس والقيروان وقفصة وما يتخلل هذه المدن من القرى ، واستولى على جميع افريقية ، واجلى عنها

(1) كذا فى النسخ التى ظفرت بها

من كان فيها من الاغالبة ، فلما طاعت له البلاد واستقامت له الامور عزم على المسير الى سجلماسة فى طلب المهدى عبيد الله فخرج ابو عبد الله من رقادة الى سجلماسة ، فاجتاز على تاهرت فكان منها ما كان من غدر بنى اليقظان بالامام يوسف بن محمد بن افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رحمه الله . وشكى من بتاهرت و نظائرها من الشيعة والواصلية وغيرهم الى الشيعة امارة الفرس ، وسألوه أن يستأصل شافتهم، وخرجت دوس(1) بنت الامام يوسف رحمه الله، تشكو الى ابى عبد الله الشيعى غدر بنى يقظان اباها ، ووعدته ان يتزوجها ان هو أخذ لها ثار ابيها ، فجاءه فيمن جاءه من أهل الموضع ومعهم ابوهم ، فسأله ابو عبد الله الكجانى من انت ؟ قال : أنا يقظان فقال بل انت حيران ، ما الذى دعاكم الى قتل اميركم فاسلبتم ملكه ، واطفأتم نور الاسلام بغير سبب ، والقيتم بايديكم الينا بغير قتال ؟ ! ثم امر بهم فقتلوا جميعا ، ثم ان يعقوب بن الامام وابنة اخيه دوس خرجا فى خفاء الى جهة وارجلان حتى نزلاها وانما خرج بها خوفا من ابى عبد الله الشيعى ان يستنجز الوعد ، فطلبها فلم يجدها ، ودخل المدينة فانتهبها وانتهك حرمتها ، واجلى كثيرا من اهلها ، وجعل اعزة اهلها اذلة . وكان دخوله المدينة بالامان فلما دخلها غدر وقتل اهل بيت الامامة من الرستميين واهل الملك وأهلك الحرث والنسل ، فانقطعت الامامة بموت الامام يوسف رحمه الله ومن قتل معه ومن قتل بعد دخول المدينة وذكر انه وجد صومعة مملوءة كتبا وهى المشتملة على

سقوط تاهرت على يد الفاطميين

(1) اثبتها صاحب الازهار الرياضية باسم دوسرة

ديوان تاهرت الذى يذكره العزابة ، فانتقى منه ما انتقى واحرق الباقى ، فلم يبق لشىء من الديوان اثر أصلا .

ولما علم عبيد الله بقدوم ابى عبد الله خرج ليلقاه وقد علم جميع الدعاة والقياد انه صاحب الوقت ، وان له يدعو بعد ما خاف عليه الغدر من ابن مدرار ، فلما قدم على عسكر ابى عبد الله جاء معه ابنه القاسم فقدم لهما ابو عبد الله فرسين فركبا وحفت بهم العساكر ، ومشى عبيد الله والدعاة بين يديه وابو عبد الله يقول : هذا مولاي ومولاكم ، وابن ابنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى كنتم تنتظرون ، وجميع الناس يسمعون كلامه ، وعقدوا له البيعة فلما دخل افريقية وذلك فى عام 297 سبعة وتسعين ومائتين ، وقد تمكنت دولته ، وجه عسكرا عظيما الى وارجلان ، فلما سمع اهله باقبال العسكر تحصنوا بالكدية المعروفة بكريمة ، وهى كدية حصينة شاهقة بينها وبين وارجلان قدر ستة اميال ، فملأوا مؤاجل بها ماء ، واخرجوا ما قدروا عليه وما امكنهم ، فلما وصلهم العسكر دمر الديار وحاصروهم فى الكدية ، وطوق بها سبعة اطواق ، وهم بالمقام سعهم ، حتى يهلكوا عطشا ، فقال لهم رجل ممن كان معهم ويقال انه يهودي لعنه الله هاتوا قصاعا كبارا ، فملأوها زيتا ، ونصبوها على حرف « كريمة » بحيث يراهم أهل العسكر وجعلوا كانهم يمتجون الماء ويصبونها للجمال تشرب ، ومعهم جمال كثيرة وقد تمكن منها العطش ، فجعلت الجمال كلما رأت القصاع مملوءة حسبتها ماء ، فقصدتها فكلما كرعت وجدته زيتا فقنعت برؤوسها ، وتنفض مشافرها ، وتنشر بأنوفها ،

حصار عبيد الله الفاطمى لوارجلان

فلما رأى ذلك اهل العسكر قالوا ما هذا الا عن ماء جـم لا تكنسه الدلاء ، ففيم المقام ؟ وارتحلوا وقد كانوا حين انتهاب الديار وجدوا بيضة نعامة مملوءة شعيرا فحملوها معهم فلما وصلوا رملة ايفران لحقهم رجل من وارجلان ممن اراد هلاك المسلمين فوالاه من العسكر ناس سدراتيون فقال لهم لم ارتحلتم عن القوم وليس معهم ماء ؟ وانما تلك حيلة احتالوها عليكم ، فارجعوا فانكم ستظفرون فابتدره السدراتيون ، فقتلوه خوفا ان يسمع مقالته احد من أهل العسكر . وانما فعلوا ذلك حمية لاخوانهم وقبيلهم ان يظفر بهم اهل العسكر ، ولما وصل اهل العسكر الى صاحبهم بالقيروان لامهم ، ونسب اليهم التقصير ، فقالوا : كيف نقاتل حصنا هكذا ؟ ورشقوا رغيفا بأعلى ذرع طويل وهذه مطامرهم ، واخرجوا له البيضة المملوءة شعيرا . قالوا كيف نقاتل هؤلاء وأى فائدة تفيد بقتالهم ؟ فنجاهم الله عز وجل . ويسر اسباب سلامتهم ، ولما تمكن امر عبيد الله بالقيروان واستحكمت دولته بلغ عن ابى عبد الله انه عازم على غدره فلما تحقق ذلك منه بذاته وبمن صافوه على ذلك من الكتاميين ، فقتلهم اجمعين ، وذلك فى جمادى الثانية سنة 298 ثمان وتسعين ومائتين وسلم له ملك افريقية حتى قبض وولى بعده ابنه القاسم وفى ايامه ظهر ابو يزيد بن كيداد اليفرنى .

ذكر اخبار ابى يزيد مخلد بن كيداد الناكثى

حدث بعض اصحابنا ان ابا يزيد رجل من بنى يفرن وكان مسكنه بقلعة « سدادة » من تفيوس ، قلت اما نسب سدادة فوهم أو غلط . وان كان هذا النسب قد وقع أيضا ليس هكذا فى كتاب الرقيق ، وانما ذكر اصله من بنى

تحقيق نسبه

ويسيان توزر ، ثم نشأ بتفيوس وليس كذلك . انما كان مسكنه في منزل يلي جهة سدادة وهو اليوم خال دارس فى الجانب الغربى منه كانت مدرسة ابى يزيد على عين ماء ، هى معروفة بعين النكارة الى يومنا هذا ، وعشيرته من اهل تطاوين ، وهم رهط « بنى كندل » قال : وله حديث مع ابى الربيع سليمان بن زرقون فى ابتداء اشغالهما بطلب العلم ، ورجوع ابى يزيد الى مكان مذهب النكارة وتركه لمذهب الوهبية نستدركه فى موضعه ان شاء الله ، وانما قصدنا هنا ان نذكر قيامه على القاسم بن عبيد الله ، وما آل اليه أمره فاول ما اوقع فى نفسه القيام انه لما توجه الى المشرق يريد الحج حين فراره من عبيد الله لما طلبه ، فلما وصل الى مصر نظر اليه رجل من اهل مصر وقد حلق رأسه وقال له : غط رأسك ايها الثائر فلما سمعها ابو يزيد وقع فى نفسه ما وقع من ذلك فسار متوجها . فطولب فى بعض البلاد التى سلكها بمكس ، فاستعظمه ولما رجع ووصل الى قرب جبل نفوسة فارقه من كان معه من اهل جبل نفوسة ، قاصدين منازلهم . فقال لهم ابو يزيد : اقرأوا اخواننا السلام ، وقولوا لهم قد فاتنا منكم كثير وفاتكم منا كثير ، وانه ليس لله علينا ان نشترى حجه ، يشير بهذا الى المكس الحقير الذى طولب به ، ويريد بهذه الرسالة اختلاف القلوب .

التفضاح امر ابى يزيد وسجنه

ثم سار حتى وصل موضعه بتقيوس ، فجعل النكار يجتمعون عليه فى المكان المعروف به واطلع منهم من اطلع على ما عزم من القيام حتى اشتهر خبره ، وفشى وسمع به ابن المهدى القاسم ، فكاتب والى قسطالية بمطالبته والبحث عنه ، لانه كان يرى ان قائما يقوم عليه من زناتة

فيلقى منه شغبا ، وسمع من علامات ابى يزيد ما دله على انه الذى يقوم عليه .

فوجه اليـه والى قسطالية من توزر فأخـذ وسجن فى توزر مكبـولا ، فطـال مقامـه فى السجـن حتى قنـط ويئس من السلامة واشتدت عليه ابواب الحيل . فبلـغ خبره جماعة من النكار ، فتشاوروا فى امره ، فأجمعوا على ان يختاروا اربعة رجال اهل شدة ونجدة ، فساروا آخـر النهار ودخلوا مدينة توزر ، فوقف احدهم على باب المدينة وتقدم ثلاثة الى السجن وكسروا بابه وقتلـوا السجان ، واخرجوا جميع من فى السجن ، فاخرجوا صاحبهم فى كبوله ، فحمله احد الثلاثة على ظهـره وجـرد الآخـران سيوفهما ، فجعل احدهما امامه والآخر وراءه فكل من قام اليهم قتلوه ، حتى خرجوا من المدينة ، فلم يتبعهم احـد . فلما وصلوا موضعا بين الحامة وتوزر وهنالك صخرة حطوه عليها ، وكسروا الكبول ، حتى اطلقوه ، والصخرة معروفة بصخرة ابى يزيد الى اليوم ، فتوجهوا بصاحبهم الى صحراء سماطة قاصدين بنى درجين ، وكان بها حينئذ عدد كثـير زهاء ثمانية عشر ألف فارس ، فيما ذكروا ورجـوا ان يمنعوه فلم يكترثوا به ، اذ كان على غير المذهب .

التجاء ابى يزيـد الى اوراس

فسار من عندهم مستخفيا حتى وصل جبـل أوراس ، وكان عند اخوانه بالجبل مكرما ولم يزل البحث عنه حتى علم موضعه فوجه اليه القاسم بن عبيد الله جيشا عظيما ، فحاصروه بجبل أوراس سبع سنين، وبلغت نفوسهم التراقى حتى قال قائلهم لما نزل بهم ما نزل من البلـوى والضرر ، وقال : « جبل لا يصعد ، ومطر سكب ، وفتى مستقص ، وشيخ لا ينثنى ونحن المبتلون » . ولما رأى القوم ما نزل

بهم اتوا ابا يزيد ، وقالوا له قد رأيت ما نزل بنا من هلاك هذا الفتى ، ولا طاقة لنا بمدافعته ، ولا صبر على اكثر مما اصابنا من الضرر ، وهلاك رجل واحد ايسر من هلاك جماعة كبيرة ، فقال لهم ابو يزيد امهلوني هذه الليلة .

ابو يزيد يفك الحصار بحيلة

فلما اظلم الليل امر بخمسمائة ثور ، وان يشد بكل قرني ثور منها حزمة حلفا ، وفي ذنبه أخرى ، وامر بخمسمائة رجل من اصحابه من ذوى النجدة والبأس واخذوا سلاحهم واستاق كل رجل منهم ثورا ، حتى اذا قربوا من العسكر اطلق كل رجل منهم نارا فى حلفا ثوره فلما احست الثيران حرارة النيران ، ركضت وخاضت العسكر ، والرجال فى ساقتها بالسيوف مسلطة ، يضربون بها كل من ادركوه من اهل العسكر ، وجعل الله ذلك سببا لهزيمة العسكر ، فانهزموا وابو يزيد واصحابه يقتلونهم حتى قتلوا عددا كثيرا ، ولما اصبح عرض ابو يزيد عسكره فعرض فى اثنى عشر ألف فارس ممن صار اليه من عسكر الشيعة خاصة ممن كان عدوه بالامس وسار فى طلب عسكرهم ، فتسامعت به القبائل فجاءوه من كل مكان ، وطار اسمه فى الآفاق فاجتمعت له عساكر عظيمة ، حتى عدوا فى عسكره ألف ألف أبلق فيما قيل ، ومعه جماعة كبيرة من مزاتة فجعل يفتح المدن والقرى حتى افتتح الساحل كله ، واقبل يريد قسطالية ، التى منها خرج فافتتحها . فلما احس من نفسه قوة ورأى كثرة من معه ، قال له بعض عزابته الى متى ننتظر بثأر يزيد بن فنديين يومى الى امامهم المقتول بتاهرت ، فقال له أبو يزيد إن نحن تخلصنا وتفرغنا من نسج الكساء اشتغلنا بفليه .

الاباضية يعتزلون فتنة ابى يزيد

قال وكان حوله جماعة من مزاتة فيهم مسارة بن غني وهو يومئذ رأسهم فسمع مقالة ابى يزيد وفهم المثل الذى ضربه ، فقال له : لا تظن ان الوهبية خرجوا معك فانهم في مساجدهم وانما خرجنا معك نحن نشاركك فى أكل هذه الميتة ، فدع ما تحدث به نفسك والا اقتتلنا قتال كلاب الحى ، يريد بالميتة الاموال التى كانوا ينتهبونها ، ثم انه سار يريد القاسم بالقيروان ، فكل مدينة وقرية مروا بها اخربها وسبى النساء واستباح الاموال ، كفعل نافع بن الازرق وغيره من الخوارج ، بل قد زاد عليهم ، وكان معه رجل من علماء النكارة يسمى زكرياء وكان ينكر عليه ، ويقول ان هذا لهو الخروج من الدين ، ولما رأى أبو يزيد ذلك منه خشي ان يفسد عليه قلوب العامة ، فامر بقتله ليلا ، فلم يعلم خبره . فلما سمع القاسم باقبال ابى يزيد اليه بجنود لا قبل لهم بها خرج من القيروان ، يريد المهدية وخلف على القيروان واليا من قبيله .

ابو يزيد يحاصر القيروان

فلما نزل ابو يزيد علىالقيروان حاصرها حصارا شديدا حتى أشرف أهلها على الهلاك ، فانهب طائفة من المدينة وحاز كثيرا من اطرافها ، والقوا اليه بايديهم ، وخرجوا باجمعهم الا قاضى المدينة،فانه انحجز فيدار الامارة بأموال جسيمة فوجه اليه ابو يزيد بان يخرج فأبى ان يخرج الا عن امان فأمنه فلما خرج شاور أبو يزيد في امره وزراءه فقال احدهم (وكان يكنى ابا عمارة) ألم تعلم ما قال فى كتاب كليلة ودمنة ؟ قال وما الذى قال ؟ قال : (ليس شيء اروح للقلب من قتل عدو ، وان بلغ فى الضعف النهاية) فامر ابو يزيد بقتله فقتل بعد أخذه بالامان ، واخذ جميع تلك الاموال .

الافساد والتخريب الذى قام به

وذكر ان عـدة ما خربت مـن القـرى عـلى يديـه في افريقية ثلاثون ألف قرية ، وفعل فى افريقية مـن الفسوق والفجور والعصيان وانواع الفساد ما لم تفعله الفراعنة ولا احد من ملوك اهل الكفار .

وبلغنا انه عوتب يوما على ما يفعله اهل عسكره مـن الفساد واستباحة المحارم ، فقال « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » وكان فى هذه الحركات كلها يركب على حمار اوتى به من مصر ، فكان يعجز الخيل ان مشى وعدا ، وبلغنا ان الشيخ ابا القاسم يزيد بن مخلد الوسياني رحمه الله قال يوما وقد وصف له ما اخرب ابو يزيد من البلدان فذكر قوما فقال لقد فتح فيهم ابو يزيد بابا ، الا انه لـم يحسن السيرة ، وبلغنا انه مر بعسكره على قابس فنظر الى جناتها فاراد تقويم جناتها فقومت بكسر درهـم فامـر بافسادها . فاقام عليهم مدة يدمر ويخـرب ، فلما اراد الارتحال عنها قومت بدرهم ، فصار يطالب أهل قابس بما بين القيمتين . وبلغنا انه نزل الساحل فاخذ اهل عسكره صبيتين جميلتين ، فجاءته امهما شاكية، فقالت له : يا شيخ ان العزابة اخذوا ابنتين سبوهما وغصبوهما وهما حرتان فلم يجبها ، غير انه قال : وهل فى افريقية حرة ؟ فخافت المرأة على نفسها ، فهربت ونجت بنفسها . وبلغنا عنـه انه لا يبيت كل ليلة الا على اربع ابكار من بنات الاحرار .

محاصرته للمهدية ثم انهزامه

ثم ان ابا يزيد سار من القيروان يريد المهديـة حتى نزلها وحاصر بها القاسم زمانا طويلا وكان قد نزل بالرملة التى بباب المدينة وبنى حول المدينة مصلى هو اليوم معروف بمصلى ابى يزيد ، ولم يزل محاصرا الى ان توفي القاسم وولى ابنه اسماعيل فسمع ، اهل العسكر بوفاة القاسـم

فسروا بذلك وطمعوا فى افتتاح المدينة ، فبشروا ابا يزيد بذلك ، فاغتم وقال لاصحابه : قد مات رجل اديل لنا عليه وولى رجل يمكن ان يدال له علينا ، ثم ان ابا يزيد قام فضرب احد مصراعي باب المدينة وكان عند اسماعيل فيما له من علم الحدثان على ما زعموا ان ابا يزيد يخيب اذا ضرب في ذلك المصراع ، ويصيب ان ضرب فى المصراع الآخر . فلما ضرب فى جانب الخيبة قويت نفوس من بالمدينة وقال له بعض من فى البرج أخطأت ياشيخ، فنشب القتال فكانت الدائرة على ابى يزيد ، فانهزم . وذكر ان ميمنة عسكره انهزمت حتى بلغت الهزيمة الى القيروان ولم يشعر من فى الميسرة ، وذلك لكثرة العساكر ، فسمع ابو يزيد بان اسماعيل قد دس الكتب الى القيروان بمصاب أبى يزيد ، فحاصروا عامله عليها حتى اخرجوه . وولى أبو يزيد واتبعت ابا يزيد طائفة من خيل اسماعيل حتى ادركوه ، وقد ارتث (1) جراحا ، فالقى بيده على احدهم وقال له خلصنى ، قال له من انت ؟ فقال انا أبو يزيد ، فاتى به الى اسماعيل فاعلمه انه اسر رجلا يزعم انه أبو يزيد ، قال وانا لا اعرفه فدعا اسماعيل بمن يعرف أبا يزيد، فأعلمه انه هو. فاستدعى الاطباء ليعالجوه يريد حياته ليعذبه بانواع العذاب ، فاعلمه الاطباء انه لا مطمع فى حياته ، فامر اسماعيل بسلخه ، فأخذوا يسلخونه فلما انتهوا الى سرته مات . وذلك فى محرم سنة ستة وثلاثمائة وتفرقت عساكره . .

ابنه الفضل يخلفه من بعده

ثم ان ابنه الفضل جمع جموعا من بقايا عسكر ابيه فقصد بها احياء مزاتة وعندهم حينئذ الشيخان ابو القاسم

---

(1) ارتث مبنى للمجهول ، حمل من المعركة جريحا وبه رمق

وابو خزر الوسيانيان فيجمع من اهل الدين والصلاح نازلين اضيافا عند اخوانهم في الله من مزاتة ، فلم يشعروا الا والاخبية تضرب حولهم .

وكان العسكر فيما زعموا ثلاثين ألفا . فقال الفضل لمزاتة ادفعوا الي ابني عمي فاليهما قصدت ، ولم اقصد اليكم يا مزاتة يعني الشيخين لان بني وسيان من يفرن . فعزم قوم من اهل الدنيا المطرحين للدين على ان يدفعوهما اليه ، فابى ذلك اهل الدين والصلاح فتشاوروا فقال احدهم قد تبين لي ان أهل الدنيا لا يدفعون عنكم فدافعوا عن انفسكم وعن اضيافكم ، فان اخوانكم من اهل الدنيا مهما رأوكم في الاهتمام بالمدافعة وتحققوا منكم هذا الجد قاموا لقيامكم ، فما منكم الا وله أخ وابن أخ وابن عم في أهل الدنيا ، فما منهم من يخذل اخاه أو يسلمه للموت ، فقالوا قوموا باجمعكم فقاموا غضبا لله . فهم بين مسرج فرسه وملجمه ومعتضد رمحه ومتقلد سيفه عازمين على الجهاد ، فما استتموا اهبتهم الا واهل الدنيا قد جاءوا تائبين ، نادمين ، دافعين عن المشائخ واعترفوا بما فرط منهم من اهمال حقوق المشائخ والصلحاء ، فلما تلافوا زللهم قبلوا منهم ، واجتمعت كلمتهم وتأهبوا جميعا ونهضوا ، وكان ميسارة بن غني ممن وافق رأيه رأي أهل الصلاح أولا ، وأخيرا قال للمشائخ : ان لي اثني عشر ولدا وقد وهبتهم اليوم لله ، ولكم ، فزحفت جموع مزاتة مقام عسكر الفضل . ومن اعجب ما ذكر اخبار ميسارة يومئذ ، انه نظر الى عسكر العدو فرأى الفضل في ربوة وقد احاط به موكب من انجاد خيله ، وفرسانهم قد تراكموا على الفضل حتى اسودت بهم الربوة، فقال ميسارة

اهل الدنيا متقلبون لايدفعون عنكم وقت الشدة شيئا

لاصغر أولاده : امك طالق ان لم تكشف تلك الخيل على تلك الربوة ، فحمل عليهم فلم يزل يعاركهم حتى كشفهم من الربوة ، واقتتل الفريقان فهزم الله العدو وقتل منهم بشر كثير .

وحدث الثقات ان عسكر الفضل لما انهزم وكان ثلاث فرق ، ففرقة نجوا هاربين وفرقة قتلوا اجمعين وفرقة كان اكثرها هالكين . وهرب الفضل فيمن هرب حتى انتهى الى قرية من قرى تلك الجهة فدخلها وطمع فى النجاة ، فأخذه أهل القرية وقتلوه واتوا برأسه الى اسماعيل بن القاسم متوسلين به عنده ، فاحسن اليهم عدو الله . وقد بلغنا عن رجل من هوارة يقال له محمد بن عربية انه ضلت له ابل فخرج فى طلبها على فرس له سابق فلما جنه الليل بات فرسه بدون علف ولما اصبح وافى هزيمة الفضل وكان من سرعان خيل مزاته فكان كلما لحق برعيل من خيل الغفل قطعه عن اصحابه وثبطه حتى تلحق به خيل مزاتة ، فتستأصله بالسيف ، فربما لحق بجماعة رجال فيقطعها على الخيل ، ولم يمسه ضعف ولا أحس من فرسه كلا وكانت لهذا انابة فى آخر عمره واجتهاد وصلاح .

ذكر شيء من اخبار يعقوب بن الامام افلح رحمهما الله ورضى عنهما

هروب بقية العائلة الرستمية الى وارجلان

ولما نزل الداعى للشيعة تاهرت خرج يعقوب بجماعة خيل من اصحابه بعيالاتهم ، وخرجوا فى خفاء خوفا مما ينالهم من عدوهم ، فشعر بهم ابو عبد الله فوجه فى طلبهم جيشا ، وكان يعقوب على فرس من نهاية السوابق ، فلما لحق سباق العسكر باصحابه جعل يواقف العدو وحده حتى يتنفس اصحابه ، فيهمز فرسه حتى يصل اصحابه ،

ثم اذا لحقوه أيضا واقفهم ، وثبطهم على اصحابه ، فكان ذلك دأبه ودأبهم حتى نجى الله يعقوب واصحابه ، ورجع عنهم العدو ، ولم يطمعوا منهم فى قليل ولا فى كثير .

فسار باصحابه متوجها الى وارجلان ، فذكر عنه انه لما كان في بعض الطريق نظر نظرة في النجوم فقال لاصحابه (انكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر الا كان عليهم الطلب ، افترقوا فقد انقطعت ايامكم وزال ملككم) ، فاقبل بمن معه من اهله حتى نزل وارجلان وذلك على عهد الشيخ ابى صالح جنون بن يمريان رحمه الله ، فتلقاه ، وعرضوا عليه ان يولوه على انفسهم ، وقال : لا يستتر الجمل بالغنم فصار مثلا ، فمكث فيهم دهرا وكان معه ابنتاه وابنة اخيه قد منعهن من التزويج ، ثم ان جماعة من مشيخة وارجلان اجتمعوا وحرضوه على انكاحهما ولا يعطلهما ، فقال لهم اذا رغبتم فى هذا ورأيتموه صلاحا فانا لا اصاهر الا رجلين فاضلين احدهما من أهل الدين والآخر من اهل الدنيا ويكونان على اختيارى . فقالوا له ضع يدك على من شئت فقال : اما الذى هو من اهل الدنيا فحمو بن اللؤلؤ ، واما الذى هو من اهل الدين فالعز بن محمد ، فانكحهما الابنتين قيل وكانت لحمو امرأة أخرى فاغتمت حين سمعت باملاكه جعيدة الامام ، اغتماما شديدا ، حتى أفضى ذلك بها الى الموت ، فطاب بعدها عيش الزوجين .

مكانة يعقوب بن الملح فى العلم والعبادة

وكان يعقوب يحمل انواعا من العلم ، بلغنا ان سائلا سأله ذات يوم ، أتحفظ القرآن ؟ فقال : استعيذ بالله من ان ينزل على موسى وعيسى عليهما السلام ما لم احفظ واعرف معناه ، فكيف بالكتاب المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم !

وكان أيضا فى غاية من مجاهدة نفسه ، وكان صاحب كرامات .

بلغنا انه قام ذات ليلة يتجهد فى بيته فبينما هو قائم يصلى اذ خر سقف البيت الا الخشبة التى تقابل رأسه ، فما برح قائما خاشعا حتى جاءه الناس فكشفوا عنه الردم فوجدوه على حالته ، ولما خرج من صلاته بعد اتمامها قالوا له : ما ظننت ؟ قال : ظننت ان القيامة قد قامت . وله رحمه الله بوارجلان آثار مشهورة ، وفضائل مذكورة .

الافتراق الرابع فى الاباضية

وذكر جماعة من اصحابنا ان يعقوب نشأ له ولد بوارجلان يكنى ابا سليمان ، فاخذ فى قراءة كتب اهل الخلاف ومدارستهما وكان ابوه يقول لاهل وارجلان : احذروا هذا ، فانه قرأ ديوان احمد بن الحسين ، فلما مات رحمه الله اجتمعت لتجهيزه جموع أهل وارجلان حتى كفن فى اكفان مثله ، فصلى عليه ودفن فى مقبرة الشيخ ابى صالح وقبره ظاهر هناك الى عصرنا هذا غير مندرس وهو من المشاهد المزورة واماكن البركات المأثورة .

ابنه ينتحل مسائل حبا للزعامة ورغبة فيهـا

واخذ أهل وارجلان فى تعظيم ابى سليمان والرفع من قدره لو اراد الله رفعته ، لكن صدقت فيه فراسة ابيه رحمه الله فانتحل ابو سليمان مسائل غير مرضية ، وشرع فى خلاف المسلمين وتبديل ما كان عليه سلفه من قوام الدين فاشتهر عليه مسائل مستنشعة . منها قوله ان فرث الانعام نجس والى هذه المسألة ينسب فكان يقال له الفرثى بهذا السبب، ولما ذكر عنه حاول اختباره جماعة ممن كان يعظمه وأراد ازالة التهمة عنه ، أو الخروج عن الشك لليقين ،

فاستعملوا له اطعمة حفيلة قد طبخوا فيها مصران الغنم ومباعرها غير مستخرج بعرها ، وركبوها مع اللحم على الثريد، واستدعى ابا سليمان بمحضر الطعام، فلما تناول مصرانا من تلك المصارين وشقه ليأكله وجد فيها فرثا ، فالقاه فقال هذا طعام نجس ، فقال له صاحب الطعام فماذا يصنع به؟قال تحفر له حفرة ويكفأ فيها ، وقطع عذر من أكلّه . فبلغ ذلك الشيخ ابا صالح رحمه الله وكان ممن يغضب لله ويقوم فى تغيير المنكر ، فكره ان ينتشر ذلك فى العوام فيعتقدونه صوابا، فيأخذ ذلك بقلوبهم، ويفضى بهم الى الارتياب فتقع الفتنة والاختلاف ، فاستخص من فوره جماعة من اصحابه فساروا الى الدار التى فيها الطعام فاستأذن هو واصحابه ، ودخلوا ، واستدعى بذلك الطعام وبالماء فغسلوا ايديهم ، فأكل واكلوا حتى قضوا حاجتهم من الطعام ، فأزال ما وقع فى النفوس المرضى من تلبيس ابى سليمان .

دعوة الشيخ ابى صالح اياه الى المباهلة

فكان بينهما بعد ذلك مناكرة وتنازع وتقاطع لهذا السبب حتى قال له الشيخ يوما ان شئت باهلتك ، فقال ابو سليمان اجل ! فاتفقا على المباهلة يوم الجمعة الاقرب اليهم فخرجا الى قبلة وارجلان بعد ان اقترعا على « كريمة » و « تسرسرين » موضعين معروفين هناك فوقعت كريمة لابى سليمان فتوجه اليها ، وجعل يبتهل ومعه جماعة من اصحابه اهل الضلال الذين شايعوه ، وتوجه الشيخ الى تسرسرين فاتخذ بها مصلى هو اليوم بها معروف واخذ فى الدعاء والابتهال ، وكلاهما يدعو الله على المبطل ، فما كان الا قليل حتى جاء الشيخ مسرورا واثقا من الله عز وجل ، وبالاستجابة مبتهجا ، ولما حاول ابو سليمان

واصحابه النزول من كديته ارسل الله عليهم ريحا صرصرا وحجارة ترميهم ، وظلمة ، فضلوا عن الطريق وتفرقوا ولم يهتدوا الى يوم السبت . ففضحهم الله واظهر ما اسروا من الفساد ، ولم يرد بهم خيرا فيتوبوا ، بل لجوا فى طغيانهم وعموا فى ضلالتهم ، فعجل الله عز وجل بهلاكهم ، فلم ينطل على المسلمين شغبهم ، ولم يبق منهم أحد ، فبعدا للقوم الظالمين .

المسائل الغريبة التى انتحلها ابو سليمان

وكان الذى صح عنهم من المسائل الشرعية التى أفتى بها بخلاف ما عليه المذهب سبع مسائل : احداها الفرت المتقدم ذكره . والثانية تحريم الجنين . والثالثة والرابعة تنجيس عرق الجنب وعرق الحائض . والخامسة نجاسة دم العروق المستبطنة للظهر بعد ذكاة الشاة . والسادسة صوم يوم الشك . والسابعة الزكاة للاقرب ، قال لا تعطى لهم .

الى هنا انتهت الاخبار المنتقاة من سير الدولة الرستمية وأئمتنا الهادين رحمهم الله اجمعين .

— وقد أتى الشيخ ابو زكرياء رحمه الله بذكر المشائخ الذين ظهروا بعد انقراض الامامة الى ان رتبت الحلقة فأحيا برتوبتها معلم الدين وتبين العاجزون من المجتهدين وذكر كيف كان السبب لذلك وابتدائه ، فرأيت ان أصل ذلك بما مضى من اخبار الائمة وأضعه من هذا الكتاب ، وتحققت ان ذلك جيء بصواب لوجوه : منها ان كلتا المدتين مدة امامة وان كانت الاخرى عارية من الولاية . فالذى ينبغي ذكر اتصال هذه بتلك ، وان تنظم معها فى سلك . ونذكر المشائخ الذين اقتبسوا لذلك النور من امامة الظهور الى غير ذات الظهور . وأيضا قد مضى ذكر الافتراق الاول والثانى والثالث والرابع وبقي خامس سيأتى ذكره

متصلا بما يليه قبله لا يقطع بعد ذلك من غير جنسه قاطع (I) وأيضا قد مضى من ذكر الشيعة ما تقدم من أنبائها المشهورة وبقى من اخبار نهايتها ما تدعو اليه هاهنا الضرورة ، وما يتخلل من انباء وعجائب اخبار ، يجرى فى ذكرها مع ما يليق بها فى مضمار . فنبدأ بذكر الاشياخ شيخ بعد شيخ الى أيام ابى عبد الله رحمه الله .

ذكر شيء من اخبار ابى الربيع سليمان بن زرقون رحمه الله ورضى عنه وابى الخطاب وسيل بن سيتتن وابى أيوب بن كلابة الزواغيين

كان ابو الربيع احد علماء عصره ، وهو من نفوسة « تابديوت » قرية بجبل تيرشوين وبها مولده ومسكنه، قال ابو زكرياء حدثنى بعض من ادركته من السلف ، قالوا أدركنا ديوان الشيخ ابى الربيع قائما مشتملا على انواع من علوم الدين يقرأ فى قرية « تابديوت » وهى اذ ذاك عامرة قال وكان ابو الربيع انما قرأ العلوم وتفقه ببلد سلجماسة ، هو وابن كيداد ، وكان شيخهما الذى قرأ عليه يعرف بابن الجمعى ، وكان ابن الجمعى رجلا من أهل الدعوة اقبل من بلاد المشرق تاجرا وكان مطلعا على علوم الحيل والنظر ، نحريرا ، فقدم ابن الجمعى الى توزر وبها اذ ذاك ابو الربيع شاب يحاول طلب العلم ، وله فهم وذكاء فلما ظفر بابن الجمعى كان كل واحد منهما وافق الآخر ، فكان ابن الجمعى يصرفه فى حاجته وكان مختصا به مقربا

اخبار ابن زرقون مع شيخه ابن الجمعى

(I) فى نسخة.: لا يقطع بين ذلك قاطعه

لديه ، وربما حاوره ببعض الالفاظ المحتملة الملتبسة ، اختبارا لفهمه ، واستحسانا لما يصدر من جوابـــه ، لا استخفافا بقدره ، فمن ذلك انه يوما من الايام عجـــب لما ظهر من فهمه وفطنته ، فقال له انك لفى الطين ، فقال غير منزلق يا شيخ ، وارى عن ذلك بالفطنة ، وكأنه وصفه بها واضطجع ابن الجمعى فى ليلة شديدة البرد فدثـــره ابو الربيع ، فقال له الزيت خير ، كانه يريد به جزيت خيرا ، فقال على الطعام يصلح يا شيخ . وامثال هذا من الملح كان يستحسنها ، وامعن ابو الربيع فى الابـــرار والتخـــدم والاجتهاد ، حتى عظمت درجته عند ابى الجمعى وعلـــت منزلته، ولما عزم ابن الجمعى على السفر الى سلجماسة عرض على ابى الربيع ان يصحبه ان احب تكميل ما يحاول مـــن طلب العلم ، فاجاب وصاحبه هو وابن كيداد قبل تبديلـــه فمكثا يقرآن عليه ما شاء اللـــه الى ان حصـــلا ما حصلا مـــن العلـــوم ، ولـمـــا حضرت ابـــن الجمعى الوفـــاة آثـــر ابا الربيـــع بديـوانـــه ، فأوصى لـــه بـــه . فلما مات ابن الجمعى قدم ابو الربيع من سلجمـــاسة الى قسطيلية وقد اشتهر اسمه وبهر علمه وعلا ذكره ، وطفق الناس يسألونه عن فنون العلم فيجيب ، واضطربـــت قسطيلية كلها من اجله وكان بها شيخ مؤدب فكان كلما رأى ذلك من احوال ابى الربيع زها المؤدب ، فقـــال انـــا والله علمته وعلي قرأ . ومنى استفاد ، وذلك لانه أقـــرأه اذ كان صبيا .

ابـن الجمعى يوصى بديوانـه لتلميـذه ابن زرقـون

وبلغنا ان أهل سلجماسة بعد انفصال ابى الربيع عنها اختلفوا فى مسألة حتى تفاقم الامر بينهم وكادوا يقتتلون ثم انهم رضوا بان يوجهوا رسولين بسؤالهم عن المسألـــة

المذكورة الى ابى الربيع ، فما أجاب به فيها وقفوا عنده ، وعملوا به . فقدم الرسولان بالسؤال ، فاجاب ابو الربيع فى المسألة بجواب قطع اختلافهم واوجب ائتلافهم .

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا الربيع وابا يزيد مخلد بن كيداد خرجا ذات مرة في بعض شؤونهما ، فنزلا على حي من احياء الوهبية ، فاضافوهما ولم يحتفلوا بهما كبير احتفال ، ولا احسنوا قراهما ، فوقع من ذلك فى نفس ابى يزيد شر ، ثم مرا بحي من احياء النكارة فأكرموا مثواهما واحسنوا قراهما فقال ابو يزيد لابى الربيع : الا ترى ما بين الرجال والرجال ؟ فهل لك فى الرجوع الى مذهب هؤلاء ؟ فقال له ابو الربيع : لست اريد عرض الدنيا فيما هو أجل من هذا ، فأبتغيه بدينى ، فكيف بالشيء الحقير أبذل بسببه دينى . ولو كان مرادى طلب الامور الدنيوية لنلت جليلها بعلمي ، لكن الآخرة خير لمن اتقى ، والذى تشير به والله لا افعله ابدا ، فافترقا . وانطلق ابن كيداد فاظهر ما وقع فى نفسه من اعتقاد مذهب النكارة وترك مذهب الوهبية . فخاب وحاب حوبا كبيرا لما اراد الله من شقاوته، فخسر نفسه، ودينه ، ودنياه نعوذ بالله من سوابق الشقاء .

لو كان مرادى طلب الدنيا لنلت جليلها بعلمى

وبلغنا ان ابا الربيع توجه الى افريقية فوجد اكثر اهلها قد تغيروا ورجعوا الى مذهب النكارة ، فلم يزل ابو الربيع يلاطفهم ويبين لهم طريق الهدى حتى عادوا الى مذهبه ، وبلغنا انه دخل حصنا فوجد سبعة اسرة منصوبة وعلى كل سرير شيخ من شيوخ النكارة ، فقال له احدهم : هلم يا ابا الربيع وفسح له في السرير ، فلما كاد ان يستوى على السرير استعمل كانه عثر فوقع عليه حتى آلمه بمرفقه

وجعل يقول له كالمعتذر كسرتك يا شيخ ، وكانه لم يعتمد الوقوع عليه ، ثم انه ناظره واصحابه حتى كف لجاجهم ، وقطع احتجاجهم وطردهم عن تلك الاحياء ، ومنع ما احضر لهم من الغذاء ، ثم اتبع آثارهم فى افريقية يطردهم حيثما وجدهم ، ويرد مزاتة الى مذهب الوهبية حتى لم يبق بها للنكار أثر .

وبلغنا انه توجه الى جبل نفوسة وكان بها الشيخ ابو القاسم البغطورى ، يتولى نفاثا قبل ان تقوم عند الشيخ حجة على نفاث ولم يثبت عنه سوء لما احدث من الاحداث ، فكان على ولاية عنده . فقال ابو الربيع لاهل المنزل الذى به ابو القاسم : شيخكم يوالى نفاثا وانتم توالون شيخكم فكلكم نفاثية ، وذلك لئلا يعتقدوا تصويب ترك البراءة من نفاث ، فلم يتولوه بعد ذلك . وبلغنا ان عجوزا سألته عن البراءة من الناكثين قال : وانت هاهنا الى الآن ، وكنت اظن انك فقيهة ، انه من لم يكن له مال يتصدق به فليلعنهم حين يصبح فكأنه تصدق بصدقة عظيمة .

وبلغنا ان ابا الربيع قدم الى ريزة فوجد اربع فرق من الاباضية ، مستاثرين لا يغير احد منهم على الآخر ، وذلك فى ايام ابى الخطاب وسيل بن سيتتن الزواغى ، ووجد كل فريق منهم رأسا منفردا بمزية يختص بها فى مدة ، فاما الفصل فى القضايا والاحكام بينهم فالى ابى الخطاب ، والفتيى الى النكارى ، والامامة فى صلاة قيام رمضان الى الخلفى ، والاذان الى النفاثى . فلما قدم اليهم ابو الربيع وجدهم على هذا الحال مجتمعين فى مجلس للمذاكرة ،

(1) كذا فى النسخ لعل حتى آله بمرفقه او ركزه بمرفقه

فجلس فى طرف المجلس والى جانبه رجل ممن يحسن السؤال والاستماع ، فلقنه ابو الربيع سؤالا فقال له : اسأل عنه هذا النكارى المتصدر فى المجلس ، فسأله فلما سمع النكارى عجب فاثر (1) به السائل وتوقف عن الجواب وتعلثم ، فقال له الربيع : اجب السائل عن مسألته فقال : بل اجب انت ، فاجاب ابو الربيع عن السؤال بعد ان استعاد السائل فاعاد فلما اجاب سأله بعض من فى المجلس عن مسألة أخرى ، فاجاب ثم سأله عن أخرى فاجاب ثم عن أخرى . قالوا له : ارجع الى الصدر فرجع وبقي النكارى فى مكانه مطروحا ، وكان هنالك من أهل الدعوة من كره ذلك التساتر والمداهنة فسأل بعضهم ابا الربيع : ما تقول فى النكار ؟ قال : كفار ! (2) قال : ما تقول فى الخلفية ؟ قال : كفار ! قال : ما تقول فى النفاثية ؟ قال : كفار ! فلما سمعوا ذلك منه نظر بعضهم الى بعض ثم قالوا : « الدعاء لنفترق عن المجلس » ، فدعوا وأمنوا ، وتفرقوا ، وكان بعض اصحاب ابى الخطاب استقبح ما قابلهم به ابو الربيع فجاء الى ابى الخطاب ، واعلمه انه عجل عن القوم ، فقال له ابو الخطاب : كلا بل فصل بينكم دينكم على وجهه .

ابن زرقون لا يرى المداهنة

وقد بلغنا ان نفوسة الجبل كاتبوا ابا الخطاب هذا يعيبون عليه اربعة اشياء ، ويعاتبونه بها : وهو التزام الامور بيقضان (3) وتغريم الايتام والارامل الاموال للظلمة، واستفتاء النكارية، والائتمام فى الصلاة بالخلفي فلما وصله كتابهم بكى ، ثم قال : الحمد لله الذى رزقنى

اخبار ابى الخطاب وسيم

---

(1) كذا ، لعل الصواب : عجب كيف اثاره السائل

(2) لا تغفل ان الكفر يطلق عند الاباضية ويراد به كفر النعمة لا الكفر بمعنى الشرك بالله ، أو الخروج من الاسلام

(3) كذا فى النسخ ، وفى نسخة القطب التزام الامور سقظان بالظاء

اخوانا في الله ، يعاتبونني فيما بلغهم عني ويذكرونني ، فكتب اليهم اما ما ذكرتم من التزامي اموري بيقضان فانما كان التزامي احتسابا بالله . واما ما ذكرتم من امـــوال الايتام والارامل فان الظلمة اذا اقبلوا اليهم أمرتهـــم بالمداراة عن انفسهم . واما استفتائي النكاري فانما احكم بما عندي لا فتواه ، واما تقديم الخلفي للصلاة فاني اذا صليت الفريضة ناديت يا فتح فيتقدم ويصلي بالناس ولم أمره بالتقدم والسلام .

ومن اخبار ابي الخطاب وسيم بن ستتن الزواغي رحمه الله ورضي عنه ان رجلا من أهل القيروان كانت عنـده ذمامة من علم بانه سيبني مسجدا في موضع يقـــال له ـ تيمزرت ـ بقرية من جزيرة جربة وانه لا يبنيها الا ولي من أولياء الله تعالى ، فاجمع الرجل على التجهيز الى الموضع وعقد عزيمته على بنيان مسجـد هنـاك ليكون لتلـــك الفضيلة أهلا . فخرج من القيروان يريد الموضع فلما وصل اليه وجد ابا الخطاب قد سبقه وبنى المسجد بالمكان المذكور فذلك المسجد الى اليوم معروف به ومنسوب اليه وهو من المشاهد والامكنة المكرمة المزورة .

وحدث يحيى بن يحيى قال : جاء رجل الى ابي الخطاب وهو لا يعرفه فقال له : لي عليك دينار فأعطنيه . فقال له : أبو الخطاب اني لا اعرفك فمن أين لك علي دينار ؟ فالح عليه فتأمل فيه ابو الخطاب فقال : كـذا ، وقـــال : ان خصومتي معك لمن العار ، ودفع لـه الدينار ، وبلغنا ان أبا الخطاب جاءه رجل من أمليانى يراسن، كان له أخ فقير، يقال له تبنون ، فقال الراسني لابي الخطاب أيجوز لي ان ادفع لأخي شيئامن الزكاة أم لا ؟ فقال لـه أبو الخطاب :

الزكاة لا تدفع لمن لا يحافظ على الفرائض

ائتني به ، فأتى به وكان غير محافظ على فرائض دينه ، فلما حضر استتابه الشيخ فاظهر التوبة والرجوع الى الخير فقال ابو الخطاب للرجل ادفع لاخيك زكاة مالك . ثم قال الشيخ لتبنون انما قد البسناك لباس التقوى فان انت تعريت عنه فلا يقتلنك الا الجوع . فنكث تبنون وغير . فاستجيب فيه دعاء الشيخ . ولما مات ابو الخطاب رحمه الله قالت امرأة معافرية من ذرية ابى الخطاب المعافرى رحمه الله « وهى تبكيه » : لما مات ابو الخطاب مات الحق ، فبقيتم يا زواغة هامة ببطون كالاخرجة ، وعمائم كالابرجة ، ونعال مبلجة ، واحكام متعوجة ، قال الشيخ ابو العباس وانما عبرت بقولها مات الحق عن فقد من يحكم بالحق من آل ابى الخطاب ، ويقوم مقامه فى فصل الخطاب ، ولو كان غير هذا لم ينبغ ان يجلد فى كتاب .

ان لم انل بالدنيا الجنة فلا رزقنيها الله

ومن اخبار ابى ايوب بن كلابة الزواغى مع ابى الخطاب وغيره ما بلغنا انهما خرجا فى شهر رمضان ذات يوم فى بعض شؤونهما ، فرأوا ليلة القدر ، فاخذ كل واحد منهما فى التضرع فكان دعاء ابى الخطاب ان يصلح الله آخرته لا يعدو ذلك ، وكان ابو ايوب يقول اللهم هب لى دنيا انال بها الآخرة فقال له ابو الخطاب : يا اخى ما هذا فى الموقف العظيم تتعرض لذكر الدنيا ؟ فقال له : ابو ايوب ان لم انل بها الجنة فلا رزقنيها الله ، وكانا جميعا « بريزو » ثم ان الله عز وجل بسط الرزق لابى ايوب فاتسعت له الدنيا اوسع ما يمكن ان يكون لمثله ، وبلغنا انه ربما اجتمعت له صبرة طعام فى الاندر . « بريزو » ، فيراها من بجزيرة جربة لعظمها . وانه أطلق الله يده فى ماله للصدقات

اخبار ابى ايوب ابن كلابة

والصلاة للصادر والوارد والقريب والبعيد فلا شك دعاءه استجيب ان شاء الله .

يذكره ابنه بالجنة

ومما يذكر عنه انه نزلت به رفقة ليمتاروا قمحا، ففتح لهم مطمورة ، وانزل ابنا له في المطمورة ، فقال له : ما فعلت المطمورة يا بنى ؟ فقال له الغلام : قد حسنت الا ، فقال له ابو ايوب : وما ذاك يابنى ؟ فقال : قمحها قمح الجنة ، فكان قول الصبى تنبيها ، وان كان لم يقصد ، فقال له : اخرج ، فخرج الغلام فاعطى كل رجل من أهل الرفقة ثمنين قمحا برسم زاد الطريق ، ثم تصدق بجميع ما في المطمورة عن آخرها ، وكان شيئا كثيرا .

كرم ابى ايوب رحمه الله ، واحتفاؤه بالضيف

وذكر عنه انه جاءته جماعة من مشائخ اهل الجبل في عام ممحل في غاية من الجوع والهزال ، فلما رأى ابو ايوب ما بلغ بهم من سوء الحال ، انزلهم واحسن نزولهم ، فكان يذبح لضيافتهم كل يوم كبشين احدهما للعشاء والآخر للغداء على اطعمة حفيلة ، فاقاموا عنده على هذا الحال شهرا ثم سمعوا برخص اسعار جربة فارادوا ان تكون مسيرتهم اليها ، وان يوجهوا بما معهم الى من يتكفل لهم ذلك ، فشاوروا في ذلك الشيخ أبا مسور البراسنى رحمه الله وأشاروا له بان يطلع ابا ايوب لئلا يقول قد اختاروا دونه بدلا ، فاعلمه أبو مسور بمرادهم ، فقال له ايوب انه وجد مكتوبا على صخرة في البحر ثلاث كلمات : احداهما لا يركب البحر الا ذو خطر ، أو جاهل مغرور ، والثانية مالى مالى ما دام في كمى ، فاذا خرج من كمى كنت فيه مدعيا ، والثالثة من اعطى ماله قراضا اعتراه البرسام. فرجع اليهم بما سمعه منه فجاءوه يستثبتون قوله ، فقال لهم : الذى قال لكم ابو مسور صحيح وان كان قد اخذ تشقيق الكلام من بنى سلاوة ، يعنى اخواله ، وكان ابو

مسور اذ ذاك في بدايته ثم امر ابو ايوب باطلاق بغال المشائخ في الاندر تأكل كيف شاءت ، فقال له بعضهم كيف تصنع على هذا في اخراج زكاة مالك ؟ فسكت عنه حتى شرع في الكيل فجعل يخرج العاشرة ثم التاسعة ثم الثامنة ثم السابعة ثم السادسة ثم السادسة ثم يعود الى اخراج العاشرة ثم على التوالى الى السادسة ، فكان هذا فعله الى ان اكمل كيل جميع ما عنده من الحب ، ثم اوفر حمولهم طعاما صلة بلا ثمن ، ولذلك كان قد ثبطهم ، فانصرفوا شاكرين .

قيل وكان احدهم يسمى ابا يعقوب الدمرى ومعه ابن له فقال لهم ابو ايوب اجعلوا للصبى حظا فيما بايديكم من الطعام ، فقالوا له ان يكن اهلا لمعروفك ، وكان ممن تتولاه ، كان مستحقا لما اشرت به ، فقال دعوه حتى اطلع الليلة على احواله وأختبره ، فلما اصبح قال لهم انه عندى من أهل الولاية .

خير ما يدخره المرء التقوى

وبلغنا عنه انه خرج ذات مرة فى عدة من اصحابه يريدون زيارة نفوسة الجبل فبينما هم يسيرون اذ رأوا رفقة قد اقبلت فظنوا انه عسكر للعدو ، ونزلوا عن بغالهم ولجأوا الى جبل كان قريبا منهم ، فلما جنهم الليل اهمه مبيته ومبيت اخوانه دون عشاء ، فقال : أيكون عندى ألف قفيز من طعام بالقيروان او بالجربى، وعندى ما يغمرها اداما من الزيت ، وأبيت أنا واخوانى بلا عشاء ؟ ان خير ما يدخر المرء التقوى ، ولما وصل اهل الرفقة الى البغال عرفوها واحتاطوا عليها ، حتى ردت الى اصحابها ، فكانت تلك الليلة مما زاده حثا على فعل المعروف، واحتقارا

لما يدخره من متـاع الدنيا ، وحرصها فى الازدياد ممـا يقدمه بين يديه ، رحمة الله عليه

الافتراق الخامس فى الاباضية
خبر السكاك وانتحاله مذهبه المرذول

ذكر عدة من اصحابنا ان السكاك يعرف بابـد اللـه اللواتى النسب ، قنطنارى المسكن ، وكان له اب من أهل الصلاح ، فبلغنا ان اباه توجه الى الحج قبل ان يولد له ابد الله ، فلما كان فى بعض الطريق رأى فى منامه ان قـد ولد له شيطان فلما قضى حجه ورجع الى اهله وجد مولودا له ، فسمى ابد الله فنشأ . ولما احتمل الادب دفعه ابـوه الى المؤدب ، فقرأ وحفظ القرآن ، ولما اشتد وبلغ الحلـم اخذ فى طلب العلم ، فلما نال منه دقائق دعت نفسـه الى الخـلاف ، ونبذ ما عليه الاسلاف .

آراء السكاك الغريبة

ويقال سبع مسائل خالف فيها جميع اهل الحق ، أبطـل السنة ورأى المسلمين ، قال ابن عمه ان الله قـد أغنى عنهما أولى العقول والالباب بكتـابه العزيز فليس من راى ولا من سنة . الثانية قوله ان الصلاة جماعة بدعة . الثالثة قوله ان الاذان بدعة،فاذا سمع هو وأصحابه الاذان قالوا : نهيق الحمار ، الرابعة ان الصلاة عندهم لا تجـوز بما لا يعرف معناه وتفسيره من القرآن ، والخامسة قوله ان بقول الجنات مما ينبت فى سماد بنى آدم كل ذلك نجس بنجاسة ما نبت عليه ، السادسة ان الصلاة لا تجوز بثوب فيه قمل ، السابعة ان بول الدواب فى الاندر حين درسها اياه نجس فلا يطهر ما بالت عليه الا بالغسل . وجدت عن ابى يعقوب يوسف بن نفاث رحمه اللـه قال : ادركنا بقيـة اصحاب

ابد الله السكاك اذا قرب وقت الصلاة خرجوا متجنبين عن الناس الى مفاحص قد هيؤوها لانفسهم ، فيصلون فيهـــا فرادى ، وعنه ادرك جماعة الشيوخ بقسطيلية يصلــون على جميع موتى أهل القبلة كلهم من المخالفين وغيرهم الا اصحاب السكاك فانهم من مات منهم جعلوا فى رجليه مرابط وجروه بها الى موضع يوارونه فيه ، وكان مشائخ السلف تتقارب اقوالهم فى السكاك واصحابه ، وتتفاوت فقائــل بشركهم ، وقائل بنفاقهم ، وهذا المذهب قد فني اصحابـه فلم تبق لهم بقية ، وهم لم يتجاوز مذهبهم قنطنار كحــال الفرثية لم يتجاوز مذهبهم وارجلان حــتى فنى الفريقان الى غير رحمة الرحمن .

ذكر شيء من اخبار ابى القاسم يزيد بن مخلد وابى خزر يغلى بن زلتاف الوسيانيين رحمه الله

كان ابو القاسم وابو خزر من اهل الحامة حامة قسطيلية وكان ابو القاسم اسن من ابى خزر ، وكانا قد برعــا فى العلوم وكان شيخهما الذى أخذا عنه الادب وعلم اللسان وعلم الفروع ابا الربيع سليمان بن زرقون النفوسى رحمه الله ، واخذا علم الاصول من سحنون بن أبى ايوب وكان ابو القاسم موسعا عليه فى الرزق وابو خزر مقترا عليه ، انما يعيش من كسب يديه ، قيل وكان مــــن شأنهما فى بدايتهما ان شرعا فى قراءة كتاب وأخذ فى أى فن كان . فكانا يأخذان من كتابهما درسا وينهض ابو خزر للاكتساب واصلاح المعيشة ، فاذا غاب أخذ ابو القاسم الكتاب يقيــد درسا لم يحضره ابو خزر ، فاذا جاء ابو خزر من شؤونــه وقد علم أنه يفوته بدرس يقول له : أعد على مـــن حيث

تركتك ، فيقول له ابو القاسم : نعم لى مرتان ولك مرة ، فيعيد معه ما قد كان أخذه ، فكان ذلك دأبهما الى ان حصلا على علوم جمة ولابى القاسم على ابى خزر من فضيلة السبق قدر ما يفوته به حين طلب المعيشة ، حسب ما ذكرنا ومع ذلك فلم يقصر عنه ، ثم انهما تصدرا شابين فكانت طلبة أهل الدعوة تؤمهما من كل جهة ، يقرأ عليهما كل طالب ما طلب من أى الفنون شاء ، من علم القرآن والحديث والاصول والفقه وعلم العربية والسيرة حتى اشتهر ذكرهما ، وعلا امرهما .

ابو القاسم يعلمهم وينفق عليهم !

وكان ابو القاسم هوالمنفق علىالطلبة والقائم بمؤونتهم وابوه اذ ذاك حي فقال رجل من اهل العامة ان ابنك هذا لمجنون يعلمهم وينفق عليهم ! ! وتزوج أبو القاسم امرأة من اهل الصلاح والاجتهاد تسمى الغاية ، وكانت تحسن عونه على ماهوفي سبيله ، واعلم يوما بمحضرها ان احد الطلبة الذين يقرأون عليه قد تزوج فتنكر لذلك . وقال لاصحابه لان يبلغنى موت احدكم اهون على من ان يبلغنى انه تزوج . فقالت له : ولم تزوجت انت اذا ؟ فقال : لو علمت مكان مسألة من العلم استفيدها ممن فاتنى بها ، لشددت اليها رحلى فى مشرق أو مغربولا اخشى ان يعذبنى الله الا على الجهل .

يخشى ان يعذبه الله على الجهل

ونذكر بعض ما بلغنا من اجتهاد هذه المرأة وذلك انها اصغت يوما الى مذكرة الطلبة فورد ذكر القراءة فى الصلاة فسمعت بينهم القول بان من قام الى الصلاة فقرأ فى نفسه ولم تتحرك بالقراءة شفتاه ولا نطق بها ان عليه الاعادة ، فلما تحققت ذلك وجاء الليل اقبلت فاعادت احتياطا صلاة سنة فى ليلة واحدة ، قال ابو العباس قلت وفى ذلك فرق

حكم القراءة في الصلاة بدون التلفظ

بين صلاة المأمون اذا لم يقرأ ما يجهز فيه الامام وانصت ، وعند الانصات واجب في الجهر واما فيما يسر فيه الامام فلا بد من القراءة عند اصحابنا، ويضعف عندهم الترخيص في ترك قراءة ما يسر فيه الامام ، وعند غيرنا الاولى ان يقرأ ، وان ترك رفعه عنه الامام . فيمكن ان يكون الغاية لم تصل صلاة من عامها خلف امام ، ويحتمل ان يكون اخذت باشد الاقوال ، ويحتمل ان يكون احتياطها على ما صلت مما لم تجهر خاصة .

الشيخان يتعرضان لمؤامرة

قال وبلغنا ان ابا القاسم وابا خزر وغيرهما من المشائخ خرجوا سنة من السنين الى البادية ، يعلمون اهل البادية ما جهلوا من فهم امور دينهم ، ويذكرونهم ما نسوا ، ويتفقدون احوالهم لئلا يغيروا ، فيضلوا ، ومع المشائخ جماعة من الطلبة الاحداث فبينما هم في حي من احياء البربر الوهبية اذا برجل نكارى يزعم انه في مذهب الوهبية ورجع اليه ، وكره المذهب الذى كان عليه فتلقوه بالقبول ، وكان عندهم في أبر الاحوال واظهر من نفسه صلاح حال واجتهادا في الطلب ، وحبا في الصالحين ، وانما كان يترقب من الشيوخ غرة ليظفر ببعضهم فيغتاله ولم يفطن احد لما اضمر ، فلما كان ذات يوم وقد خرج الشيوخ والطلبة من مقيلهم واخذوا في الاشتغال بوظائف صلاتهم صلاة الظهر ، وأخذ كل واحد يصلى منفردا ، في جانب ، وتنحى الشيخ ابو القاسم ناحية ، وقد رصده النكارى فاراد انتهاز الفرصة في هذه الغفلة ورأى رماحا مركوزة مغفولا عنها ، فاجتذب منها رمحا وقصد بها نحو الشيخ ابى القاسم وهو مصروف الهمة ، فيما هو يرصده ، فجاءه على حين غفلته عما يراد به ، فطعنه من خلفه وهو يرى

ان قد شكه لما خرج الرمح من قدامه ، وانما أخذت الطعنة عن جسده جانبا ، وكان عليه محشوا فنفد الرمح مما اصابه ، فسلم جسد الشيخ . ولما سلمه الله من كيد عدو الله ، تصايح الناس بالغدر فابتدروه واخذوه ، فطفقوا يجرونه يريدون الاتيان به الى الشيوخ ، فيروا فيه رأيهم ولم يروا ان يحدثوا فيه حدثا قبل مطالعة الشيوخ ، فقال لهم من كره ابقاءه ممن حضر معهم : انظروني حتى أشاور الشيوخ ، فغاب مقدار ما يصل فيهم ويعود فعاد فعرفهم ان الشيوخ اشاروا بقتله ، فقتلوه والرجل لم ير الشيوخ انما اختفى غير بعيد منهم .

ان ما ابكاه ما راى من جهلك

وبلغنا ان رجلا من نفوسة الجبل نظر الى ابي القاسم وكان راكبا على دابة مسرجة بسرج محلا بالذهب وزينة عجيبة ، فقال النفوسي لابي القاسم يا شيخ ليس هذا من سيرة اهل الدعوة ، ولا يعرف ذلك من افعالهم ، فبكى ابو القاسم وأتى النفوسي الى الجبل فأخبر من لقي بانه قد وعظ الشيخ ابا القاسم حتى ابكاه ، فقالوا له انما ابكاه ما رأى من جهلك . وكان لابي القاسم مطية عظيمة يسافر بها الى القيروان بزى عظيم وحلة سنية . واشتهر بذلك مع ما اشتهر به من العلم والادب والدين والحسب ، وكان اذا دخل مدينة القيروان اضطربت المدينة وكثرت السؤالات ، والمباحث في معضلات يدخرونها له ، فلا يقف في شيء منها ، فعظمت بها منزلته وارتفع ذكره .

الرد على المشبهة

فمن مسائله التي وقع فيما بينه وبينهم الجدال انه اجتاز برجل من الوارقين يكنى ابا ابراهيم فرءاه ابو القاسم يكتب : تشبيه الخالق بخلقه ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، فاستعظم

ابو القاسم ما أتى به المشبه من جراءته على الله تعالى ، وانكر ذلك عليه ، فجرت بينهما مناظرة حتى قال له المشبه اذا كنت تزعم ان الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض فاخبرني عمن اراد ان يبطل ربه كيف يقول ؟ فقال له ابو القاسم مثل قولك هذا ، فانقطع الكلام بينهما . قلت قول ابى القاسم للمشبه مثل قولك هذا يريد اذا وصفته بصفات الحدوث الزمت فناء الحادث فابطلت بقاءه .

مكانة ابى القاسم لدى الفاطميين

وكان ابو القاسم عظيم القدر عند ملوك القيروان وهم الشيعة اذ ذاك ، فكانت مسائله عندهم مقضية وجميع احواله مرضية ، فمن ذلك ان ابا تميم الشيعي كان اذا سخط على بلدة وجه اليها جيشا معلما براية حمراء ، وله أيضا راية بيضاء توجه مع من يسير الى من استوجب الرضا فالرايتان موجودتان بالرضا والسخط . فبلغنا ان أبا تميم وجه جيشا الى الحامة ودفع اليه الراية الحمراء وسمع الخبر ابو القاسم وتحققه ، فتوجه الى القيروان عجلا لا يألو جهدا حتى دخل على ابى تميم فسأله عن حاجته ، فقال عفوك على اهل الحامة ، فعفى عنهم ودفع اليه الراية البيضاء ، فرجع مجدا يطوى المراحل خشية ان يسبقه الجيش الى الحامة فيؤثروا بعض الآثار المكروهة ، فما نزل الجيش على الحامة الا وابو القاسم قد وصل بالراية البيضاء فلما رأوها تنحوا ، ولم يتعرضوا لاحد بسوء ولا مكروه .

رأي ابى تميم المعز فى المشائخ الثلاثة

وذكر ابو تميم يوما ابا القاسم وصاحبيه أو ذكروا عنده ، فقال اما يزيد بن مخلد فلم تلد العرب مثله ، واما يفلى فعالم ورع ، واما سعيد بن زنفيل ففتى مجادل ، فلم يزل هذه حال ابى القاسم مع ابى تميم ، الى ان قضى الله عز وجل بأن يحضر ابو القاسم مجلس ابى تميم ولا ثالث

معهما ، فاقترح اليه ابو القاسم ان يريه سيف رسول اللـه صلى الله عليه وسلم ، فأراه اياه ، فتناوله ابو القاسم واستله وهزه بين يديه ، وذعر ابو تميم ودخله روع عظيم فلم تسكن مخافته حتى رده له ، فكان ابو تميم بعدها يقول لمن يحضره من وزرائه : انى لم آمن على نفسى حين مكنت ابا القاسم من السيف حتى يدخل السيف يدى أو قال : حتى يرجع السيف الى يدى ، فوقع فى نفس أبى تميم من ابى القاسم خوف عظيم فصار من ذلك اليوم يقبل فيه قول الوشاة ، وكثر الطعن فى ابى القاسم الى ان تقول عليه رجل يهودى زعم انه تحدث مع ابى القاسم فى امر ابى تميم فقال له ابو القاسم : ليس بيننا وبينه الا يسير فنقوم عليه نخرجه من تلك المدينة ان شاء الله ، يعنى القيروان . فبادر اليهودى ورفع هذا القول الى ابى تميم ، وبلغ الخبر المشائخ ، فعاتبوا ابا القاسم على محادثة اليهودى فقالوا له : احسن الله عزانا فيك .

قوة مزاتة فى افريقيا

وكان المشائخ على حسب عادتهم يخرجون الى البادية فى أوان الربيع ، وكان اكثر خروجهم الى مزاتة وكانت مزاتة بافريقية فى قوة عظيمة من مال وحال ورجال وخيل ، وقالوا : انهم كانوا اذ ذاك فى اثنى عشر ألف فارس ، واما الرجال فلا يحصون كثرة .

وبلغ ابا تميم شدة محبتهم لابى القاسم وطاعتهم لـه وانقيادهم لاوامره هم وغيرهم من أهل المذهب الذين بالبادية من قبائل افريقية ، فعلم انه لو دعاهم لامر لم يتخلف عنه منهم أحد ، وتصور فى خاطره ما نقله اليهودى وقامت عنده دلائل ما يحذر من قيام ابى القاسم عليه ، فكتب الى واليه على الحامة يامره بان يقتل ابا القاسم ويبعث

اليه برأسه ، والوالى لم يرد قتل ابى القاسم لمكانه منه من الصداقة المرعية ، بل اقبل على ابى القاسم كالواعظ لـه واشار عليه بالمسير الى الحج ، فقال انى حججت فقال : انكم معشر الوهبية تحسنون اعادة الحج وتؤثرون فضله فقال له : ليس لله علي ان احج مرتين ، واستبطأ ابو تميم واليه فكتب اليه كتابا ثانيا بمثل ما كتب فى الاول ، فلم تكـن معه أيضا مبادرة الى ما امره به ، بل اقبل على القاسم وقال ألا تخرج الى بعض البلاد التى فيها معظم أهل مذهبك مثل وارجلان وغيرهما فتنتفع بهم وينتفعوا بك ؟ فقال اترانى أن اخرج من الدنيا وانا حي ؟ يعنى بالدنيا قسطيلية، وفى كل ذلك لم ينتبه ، لما اراد الله من تمام امره ونهاية حكمه واستبطأ ابو تميم من الوالى امتثال ما امره به فكتب اليه كتابا ثالثا يامره بقتل ابى القاسم ويقول له : اما وجهـت برأسه واما وجهت من يأتى برأسك ، فلمّا وصل الكتاب الثالث وتبين منه عزمه على قتل ابى القاسم وعلم ان لـم يقتله كان هو المقتول ، استدعى ابا القاسم وناوله الكتاب الاول والثانى والثالث وقال له : لاجل هذا كنت اشـير عليك بما اشير انما كنت احتال على سلامتك مع سلامتى لو قدر الله بالسلامة . والآن لا اوثر عليك الا نفسى .

قتل ابى القاسم من طرف المعز الفاطمى

فلما رأى ابو القاسم الكتب الثلاثة ايقن بالموت وقال امهلنى حتى اركع ركعتين . قال : فتركه حتى ركع ركعتين فما استتمها الا والدار مشحونة رجالا عليهم السـلاح فابتدروا ابا القاسم وواثبوه فلم يجد الوالى من نفسـه قدرة على مشاهدة ابى القاسم فى هذه الحالة ، وادركتـه شفقته عليه لما بينهما من المودة الاكيدة فطلع الى غرفة فى الدار فدخلها ، واغلق بابها عليه . قيل وكان فى يد ابى

القاسم سكين وجعل يدافعهم عن نفسه ، فمهما أحس الوالى ان ابا القاسم دفع الرجال وهربهم نظر اليه مسرورا بذلك . واذا ادفعوه وحصروه دخل واغلق على نفسه الباب فلم يزل هذه حاله معهم الى ان قتلوه . فمات مظلوما شهيدا ومضى حميدا رحمة الله عليه فلما قتلوه غيبوه .

وابتدروا ابا محمد ويسلان بن يعقوب المزاتى رحمه الله فاخذوه وقالوا له : انت صاحب ابى القاسم . ومضوا به الى السجن، وقال لهم متنصلا : اين صحبته ؟ افي المدارج أم غرنيبس ؟ وهما موضعان يقعد فيهما السلابة اذا خرجوا لقطع الطريق . وكان ابو محمد ويسلان جهير الصوت ، حافظا لكتاب الله عز وجل فلما انتهوا به الى السجن لجأ الى قراءة القرآن ، فلم يكن له شأن الا قراءة القرآن ليلا ونهارا . حتى شكى اهل السجن ما لقوا منه من الارق ، فاخرج من السجن ثم سئل بعد ذلك عن السجن وعن صفته فقال : يصلح لقراءة القرآن .

ثورة ابى نوح وابى خزر لقتل ابى القاسم

ولما قتل ابو القاسم عظمت المصيبة فيه عند جميع اهل الدعوة ، وبلغ فيهم قتله مبلغا عظيما ، ولم يجدوا فيه سلوة ولا سمحت نفوسهم بالصبر عن دمه ، والطلب بثاره فاجتمع الشيخ أبو خزر ومن معه من المشائخ فى القيام بامر الله عز وجل ودفاع ائمة الضلال ، الا انهم لم يروا ان يشرعوا في شيء من ذلك دون مشاورة اهل الدعوة ولا ان ينهضوا دون استنجادهم فارسلوا الى جهة طرابلس أبا نوح سعيد بن زنغيل فتوجه الى جبل نفوسة وكان شيخهم حينئذ والذى اليه ينتهى امورهم « عون بن عبد الله بن ابى عمر بن ابى الياس » فجمعهم ابو نوح وشاورهم ، فقالوا له : نحن بعد وقعة مانو فى ضعف والذى يظن بنا

من الفضل لا ننهض اليه ، ولكن جدوا فى امركم وكونوا على اهبتكم ، فنحن نعينكم بما قدرنا عليه ، ولا نبخل عنكم بطاقتنا . فرجع عنهم ابو نوح وسار الى جربة فاجتمع بجماعتها واستشارهم فكان مراد العامة منهم القيام فى الله ، وطلب ثار الشيخ الا ما كان من ابى صالح اليراسنى رحمه الله فانه كره ذلك . ولعله رأى ما لم ير غيره ، وفراسة المؤمن مما ينبغى ان تتقى كما جاء فى الآثار ، وكان من قوله لابى نوح لا تهيجوا على أنفسكم أهل الخلاف فانهم أكثر منكم عددا ومددا،وأقوى يدا،الا العامة فانهم احبوا اجابة دعوة الشيخ ابى نوح فرجع ابو نوح الى المشائخ فاخبرهم بما عند اهل طرابلس،فاتفق رأى الشيخ واصحابه على ان يكاتبوا بنى امية فى شأن ابى تميم ويستنهضوهم ، ليكون قيامهم عليهم جميعا ، وبنو امية بجزيرة الاندلس ، فامروا ابا نوح بان يكتب الكتاب فكتبه عنهم بما ارادوه من الرأى ، ووجه الكتاب الى بنى أمية ، فأخذ الكتاب فى الطريق فانتهى به الى ابى تميم فقرأه ، فازدادوا حنقا . وكان ابو محمد ويسلان أيضا ممن كره القيام على ابى تميم ، وكان يقول لاصحابه لا تعلمون ان جل من معكم من قبائل « مزاتة » ليس لكم فيهم ما تقومون به وتعولون عليه . ونظر يوما الى أبى نوح وقد اكثر النجوى فى القيام على أبى تميم ، وقال له : ساعلم يا ابا نوح من أين تخرج نجواك . ثم ان تميم سمع بخروجهم عليه ، واستعدادهم لقتاله ، فارسل الى المشائخ ان ارجعوا الى بلادكم ، التى كانت بها أوائلكم قبل هذا من تاهرت وغيرها فتكونوا على ما كانت عليه أوائلكم ونكون على ما كان عليه أوائلنا ، فكان ذلك مراد

ابى خزر فعرض على اصحابه هذا الذى قـاله ابو تميـم فابت العامة الا مناصبة أبى تميم ، وقتاله ، والطلب بثأر الشيخ ، ثم ان ابا خزر ارسل الى ناحية الزاب واريـغ ووارجلان أبا محمد جمال ابن المـدونى يستنفرهـم ويستمدهم ، وذكر يعقوب بن اسحاق ان رسل ابى خزر وصلت الى اهل وارجلان فاستنفرهم فخرجوا فى قـوة عظيمة وسلاح شاك ، ثم ان ابا خزر اجتمعت له جمـوع مزاتة فى اعداد كثيرة خيلا ورجالا . فاعجبته كثرتهـم ، وحدثته نفسه انه يدرك ما طلب ببعض مزاتة ، فضلا عن جميعها وكيف ومعه جماعات من غير مزاتة ، فلم ينتظر من يزداد ، من الامداد ، فانتهز الفرصة بهذا الجمع العظيم الذى اجتمع له ، وعزم على التعبئة فى (باغاي) .

وحدث ابو محمد ميمون بن حمودى رحمه اللـه قـال وجدت الواح التلاميذ الذين خرجوا الى باغاي بمسجـد المنية ، وكانوا قبل ذلك يتعلمون الفروسة بفحص مسجد ابى خزر ، قلت اما مسجد المنية فخارج كنومة بتفيوس ، وكانت اذ ذاك عامرة، واما مسجد الشيخ ابى خزر فحدثنى ذو السن من أهل دقاش تفيوس انه المسجد الذى يشارفها وقد وقفوا فى عدد . وسمعت نحوا من ذلك ، حكي عـن غيرهم ، ممن يوثق به ، وهو موضع معروف البركة وقيل هو بالحامة ، والله اعلم .

ابـو خـزر يتعجل ليحاصر باغاى

قال : ثم ان ابا خزر عقدوا له الولاية على الدفـاع ، وطلب الحق ، على انهم ان يظفروا بما طلبوا عقدوا لـه الولاية على الظهور ، فزحف ابو خزر ولم ينتظر الامداد . فلما وصلت عساكره الى باغاي حاصرها ، وفيها طيـان الصقلى . وكان واليا عليها من قبل ابى تميم ، وكان قائدا

من قواده وزعيم انجاده ، فكتب طيان الى ابى تميم يعلمه ان قائما قام ثائرا فى البربر ، يعرف بابى خزر الوسيانى وانه اجتمع اليه خلق عظيم ، ولما بلغه الكتاب اغتم لذلك غما شديدا، وقد أثرت الرسل من عند طيان بقوة ابى خزر وزيادة أمره وكثرة ما صار حوله من العساكر ، فجمع عساكره فلما كان فى اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، خرج بعساكره الى باغاي ، يريد لقاء ابى خزر فوافاه قريبا منها بعد قتله طيان ، وبلغ فى ابى تميم قتل ابى خزر طيانا مبلغا عظيما ، وكان ابو خزر لما حاصر طيانا اشد الحصار دافع عنه أهل الموضع فلقوا من محاصرة ابى خزر اياهم شدة عظيمة ، وأيسوا من السلامة . واضطر ابو خزر الى القصر القديم ، وطمع فى الظفر بهم . فلما رأى ذلك أهل الموضع جعلوا ينتهبون ما فى القصر من الاموال بعد موت صاحبهم فيبذلونها خفية لمن يرجون عنده خلاصا فيما هم فيه ، وبمن يأملون فيه النفع من أهل عسكر أبى خزر ، يستميلون القلوب بذلك ، ويرمون فى العسكر الخلل . فما وصلتهم عساكر أميرهم الا واداروا حيلة ظفرتهم بما كانوا يحاولونه ببذل المال .

وذلك ان فخذا من مزاتة من عسكر ابى خزر يقال له بنى يليان غلب فيهم حب الطمع على صيانة الاحساب والاديان ، فعرف أهل الموضع ان الطمع قد استهواهم وان بمصانعتهم يدركون مناهم ، فجاعلوهم فى خفاء بمال جزيل على ان ينهزموا بغير قتال ، ويكونوا سببا لوقوع الفشل فى عسكر ابى خزر ، ولم يكن احد من أهل العسكر علم بالجعائل التى أخذها بنو يليان على خذلانهم ، ولا

انهزام ابى خزر ومن معه

اتهموهم بالوقوع في مثل هذه الدنية ، قيل وكان بين بني يليان وبين فخذ آخر من مزاتة يقال لهم « بدنة » حقود قديمة فعزموا على ان يجعلوها ذريعة الى ما اضمروا من الغدر ، فلما كان صباح غد يؤمئذ،والتقى الجمعان والتحم القتال ، القوا في مسامع أهل العسكر ان بدنة تخافت على أموالهم وأهلهم وانهم لا يتركون الاهل والمال ، بل يتوافون حمى دمارهم ، فانهزموا كأنهم يريدون استنقاذ أموالهم وأهليهم من بدنة ، وانما ذلك لامر برم بليل ، فعند انهزامهم وقعت الهزيمة في العسكر، وكر أبو خزر وأبو نوح وعبود وامثالهم ، وكانوا في ساقة العسكر يحمون أواخره حتى قتل منهم خلق كثير ، وقتل عبود وأصحابه فيمن قتل ، وتفرقت العساكر فوافاهم أبو تميم وقد انهزموا ، فاخذت عساكره من الاموال والغنم والجمال والبغال ما لا يحصى كثرة ، وتمادى أبو تميم في طلب أبي خزر ؛ ووافاه يوسف بن زيرى من السير (1) ، وجعفر ابن على من المسيلة كل واحد منهم مجدا في طلب أبي خزر؛ فأخذ في وعور ، ولم يعلم له خبر وخفي أمره ، ورجعت عنه العساكر .

وكان أبو محمد جمال قد أقبل بامداد أهل ريغ واورجلان في جموع عظيمة وقد خرج معهم خزرون بن فلفول ، وهو أحد المشاهير في زمانه ، فلما وصلوا موضعا يقال له أفودان يطلا ، على مسيرة نصف نهار من باغاي ، فيما قيل ، فتلقاهم هناك رسل بخبر الهزيمة في كتاب ، فلما قرأ الكتاب بصفة الحال بكى وابكى من معه وأمر الناس بالرجوع الى منازلهم ولما انهزم العسكر تنحى أبو

(1) كذا في النسخ لعله من « اشير » وهو مقر ولايته

خزر عن الناس وتمادى به النجا حتى لجأ الى جبل يقال له تلتماجرت ، ومعه أبو محمد يوجين فاقاما هنالك أربعين يوما حتى انقطع الخبر ، قال وليس لهما حينئذ طعام الا الاوبر (1) يصيده أبو محمد يوجين فيعالجه فيعيشان به . ثم توجه الى جبل نفوسة واستقر بها ، واما ابو نوح فتخنس (2) ولبس عباءة ، وظل يرعى ابلا فخرج أبو تميم جاداً فى طلب الشيوخ ، وفرق الرسل يمينا وشمالا فى طلبهم .

القاء القبض على ابى نوح متنكرا

فبينما هم يطلبون اذ صادفت الرسل أبا نوح راعيا متنكرا على الحالة الموصوفة ، وعرفوه وقالوا له ، ليس مثلك يرعى الابل ، وقيدوه فى الاصفاد وقادوه الى أبى تميم ، فلما دنوا من القيروان البسوه الزنار على خلق رثه ثم حملوه على جمل وجعلوا يطوفون به فى كل سوق مروا به ويبرحون به : هذا الذى سعى فى مخالفة دين الله والقيام عليه ، سعى فيه زمانا ونحن عنه غافلون ، سعى فيه بجبل نفوسة وبجربة واستمد الامداد ووعدهم الاصفاد كما يقول المنادى. وهذا كله فيما ذكر ابن ورميكوك ، وكان حسن بن ورميكوك من نفوسة قنطنار وكانت أم أبى نوح تتبعه حين يطوفون به وتظهر جلدا وشامة ، فاذا رأوا ذلك منها عجبوا وقالوا : متمثلين لا يلد الاسد الا اللبؤة، فكانوا اذا نزلوا أنزلوه عن الجمل ووكلوا به السجان ، قال أبو نوح فلما انزلونى يوما وقد قرب مغرب الشمس وتيممت للصلاة وقد اشفقت تلك العيشة من ان يقتلونى ، فحرصت بالتعجيل على الصلاة ، فقال لى السجان يا سعيد ادخل

---

(1) لعله جمع وبر بالاسكان وهى دويبة كالسنور من جنس بنات عرس . الا ان هذا الجمع غير مشهور فيها . او يقصد بنات الاوبر ضرب من الكماة .

(2) تنكر وغير زيه .

الخباء واسترح وأزل عنك البرد ، وحينئذ تصلى ، فلما سمعت ذلك عنه رجوت الحياة ، وسكنت نفسى . قال أبو نوح وكان رجل منهم يجيئني ويقول : تركت رجال مولاي يتحدثون في أمرك ويتهددون بتمزيق لحمك وأكله بضعة بضعة ، فأقول لكن مولانا ليس عنده الا الحسن الجميل ، فاذكر فيه من الفضائل ما يسر سامعه ، فبلغه ذلك عنى ، فيعطفه علي ، الى ان عفى عنى ، فلما عفى عنى أبو تميم وقربني ورفع منزلتى ، كان الرجل الذى يجيئنى قبل بالاخبار المخوفة والتهديد يقول انما نحن عبيد مولانا ، فمن أحبه احببناه ، ومن كرهه كرهناه .

قال أبو نوح : ثم ان أبا تميم جمع أصحابه ووزراءه وكتابه وتأمل الكتاب الذى كنت قد كتبته الى بنى أمية المتقدم ذكره ، فذكر لهم انى كاتب أبي خزر وصاحب سره ، وارادوا الوقوف على خطى يعرضونه على خط الكتاب المذكور ، حتى يعرفوا هل أنا كتبته أم غيرى ، وعندهم رجل يهودى فقال لهم اليهودى أنا استخرج لكم خطه ، فقال أبو نوح بينما أنا فى ايديهم اذ أتانى اليهودى ببطاقة ومحبرة فقال لى أكتب الى مولانا ان يعفو عنك ، واعتذر بما عندك من احتجاج فان مولانا كثير العفو. ووضع البطاقة والمحبرة واداتها فخرج عنى ، فتناولت لأكتب ، فكتبت سطر البسملة لا غير ، ثم أيقظنى الله عز وجل وذكرنى الكتاب المتقدم فى شان أبى تميم الى بنى أمية ، فقلت لعله وقع الكتاب عند أبى تميم ولعل اليهودى انما جاء خديعة ومكيدة لا نصحا ، فقصصت السطر المكتوب أولا ثم استأنفت كتابا بخط غير خطى المعهود منى فلما كان بعد قليل اذ اليهودى

قد دخل وتناول الكتاب جذلانا مسرورا ، وحسب انه نال المقصود ، ودفع الكتاب الى ابى تميم فاجتمع عليه الوزراء والكتاب وجميع الوارقين ودفع اليهم الكتاب الاول والكتاب الثانى فعرض الخط ، ووجدوا الكتابين مختلفي الخط غير متفقي الحروف ، فاتفقت كلمتهم على ان كاتب الكتاب الأول غير كاتب الكتاب الثانى الا رجلا واحدا احذقهم ، فانه قال كاتبهما واحد غير انه بدل خطه ، فقالوا له لو صح ما زعمت لوقع الاختلاف فى سطر أو سطرين واما الكتاب كله فمحال ، هذا مما لا يستطيعه كاتب .

ابو نوح بين يدى المعز

ثم ان أبا تميم وجه الى أبى نوح فجاء فى قيوده فلما دخل عليه وجده فى قبة حمراء على سرير قوائمه من عاج احمر وعليه ثياب حمر وعلى رأسه قلنسوة حمراء ، وحوله رجال بايديهم الرماح ، قال فلما عاينت ذلك كله غلب على ظنى انما احضرت للقتل ، الا انى لم أيأس من روح الله . ورجوت ان يأخذ بناصيته من بيده ملكوت كل شيء ، قال فلما صرت بين يديه سلمت عليه ، فاطرق مليا فلما رفع رأسه قال لى : يا سعيد ، أحقا انكم كاتبتم فينا بنى أمية ؟ قال أبو نوح يا سيدى ان كانت معذرتى تقبل وحجتى ترفع اعتذرت واحتججت ، قال قل ما عندك فلما وجد الى الكلام سبيلا وكان شهم الجنان فصيح اللسان كثير البيان ، قال : كيف نكاتب بنى أمية وقد علمت ما بيننا وبينهم يوم الدار ويوم الجمل وايام صفين ، وهم الشجرة الملعونة فى القرآن . فلما سمع منه ذلك ابو تميم سره وتبسم وانبسط بعد الانقباض والعبوس ، قال أبو نوح فدفع الي الكتاب الذى كنت كتبته الى بنى أمية فقال ألست كتبت هذا الكتاب ؟ فقلت بالله الذى لا اله الا هو ان هذا ما كتبته

الى بني أمية ، قال فاختلفوا في يميني فطائفة قالوا انـه لم يحلف لانه جعل ما زائدة وقال بعضهم انـه من البربر ولا يفطن لهذا ولا يفهمه ، قلت لا شك ان ابا نوح قصد بلفظ يمينه المعاريض التي فيها مندوحة على الكذب وسلك مسلك الملاحن . وعلى هذا تكون ما بمعنى الذى أو تكون نكرة موصوفة فيكون التقدير انهذا الذىكتبته اوان هذا شيء كتبته ، وكلاهما حسن فيصح ، فهذا الذى قصد، والله اعـلم .

ثم قال ابو تميم نعم ما هذا بخطك الا ان يكون غيرت يا سعيد . ثم قال : يا سعيد أرأيت ان لو صادفتني يـوم باغاي أكنت تاركي لغيرك ، فقال لست بتاركك لغـيرى . قال هذا الذى هو أجل قد اقررت به فكيف ما دونه ! فعلم حينئذ ان ابا نوح قد صدقه في كل ما سمعه منه . ثـم قال له : يا سعيد اعلم ان هذه القيود انما دخلت رجـلاك فيها بحكم شرعى ، فقال له أبو نوح عسى الله ان يجعلها كفارة ، فقال أبو تميم وقد غضب فكنا اذا مسيئين فيك ، بل عسى ان يجعلها متصلة بعذاب الآخرة . قال : أبو نوح فلما عرفت في وجهه الغضب قلت له ليس في ذلك ما يثبت الاساءة لمولانا . الا ترى ان الله عز وجل يبتلي عبده المؤمن فيصبر ويؤجر وليس في ذلك ما يثبت الاساءة لله تعالى ، قال فلما سمع هذا رأيته كانه انبسط وذهب غيظه .

ابن بلكين يشفع في ابى نوح

ثم شفع في ابن بلكين بن زيرى الصنهاجى ورغب أبا تميم في ان يحل وثاقي ويعفو عنى فشفعه ، قال فأطلق أبو نوح فخلعت عليه خلعة نفيسة، فلما جاءوه بها وهموا بان يأخذوا الاطمار التى عليه ، ويكسوه هذا الكســوة الشريفة ، امتنع عن الازالة لتلك الاطمار عنه ، وقال : كل

ما يأتي من عند مولانا فحسن جميل . قال فبلغوا ذلك عنه فزاد في تكرمه ، وقرب مجلسه . وكان يرسل اليه في كل حين لا يفتر عنه . قال ابو نوح فارسل الي يوما من الايام فلما دخلت وسلمت عليه ، ووقفت بين يديه ، قال لي : أين صاحبك يغلي ؟ قلت لا ادرى فقال لو كان صاحبك في غانة لجاءت به دراهمنا . ثم قال لي أتراه يخشى أمره . فقلت : ان كان من مولانا أمان عام شمل الناس في بلادهم فلا يخشى أمره ، وان لم يعممهم امانه في بلادهم فانه يخشى أمره . قال فاستبان النصيحة في قولي .

ابو تميم المعز يعطى الامان للاباضية

فبعث في الامان في بلاد الوهبية كلها وأمر ان لا يهاج منهم أحد ؛ فذكر المشائخ ان أهل الدعوة في امانه الى يومنا هذا،قلت وذلك لانهم من ذلك سالموا فسولموا، هذا الذىعناه المشائخ ، وحدث ابراهيم بن أبي ابراهيم ان أبا نوح دخل ذات مرة على أبي تميم فأمر خازنه بان يملأ كم أبي نوح مالا دنانير ودراهم ، قال أبو نوح فدخلت مع الخزان الى بيت المال فكان يدفع الي وارخى كمي فلا يكاد يمتلىء ، فيقول الخازن ألم يمتلىء كمك الى الآن؟ فلم يزل يزيد حتى امتلأ كمي ولم اكد ان انتقل من مكاني لثقل كمي قال فرجع الخازن الى أبي تميم فسأله عما أمره به ، فقال قد فعلت،فأمره أبو تميم بأن يخرج متجسسا الى ما يصنع أبو نوح وما يكون منه، فخرج الى باب القصر القديم فوجد أبا نوح يأخذ بيده ويدفع للناس يمينا وشمالا ، حتى لم يبق في كمه الا قدر قبضة واحدة ، فرجع الى أبي تميم فقال له : ان الشيخ لمجنون اني وجدته يفعل كيت وكيت ، فقال أبو تميم كلا ما هو بمجنون ولكنه منتحل للرئاسة .

المعز يشارك العلماء في المناظرة حولـه

فكان أبو تميم يجمع علماء الفرق يتناظرون حوله في العلوم فكان أبو نوح مقدما فيهم ، فحسنت حالته وازدادت مكانته لما جمع من علم وفصاحة وبراعة ومعرفة بفنون الرد على المخالفين ، فكان ابو تميم لا يزال يثنى عليه ويحسن اليه ويحسن جوابه في المناظرة. (فمن المسائل التى وقعت فيها المناظرة انه، قال يوما : يا سعيد؛ اسأل اليوم عما بدا لك ، فقال أبو نوح فما الدليل على أن لهذه الصنعة صانع ؟ فمكث الحاضرون حينا ثم اجابوا باجوبة لم ارضها ، ولا اقنعتنى . فقال ابو تميم اجيبوا الرجل بما يقنعه ورأيته قد تهلل . فعلمت ان الجواب السديد قد حضره ، ومنعه أدبه ان يسرع به ، فقلت ان رأى مولانا أن يتفضل على عبيده بالجواب فعل . فتبسم وقال يا سعيد يقال لهذا السائل جوابك في سؤالك، فان قوله صنعة دليل على صانع. قلت لهم هذا والله هو الجواب المقنع ، ثم اعلمت بعد ذلك به الشيخ ابا خزر ، فاستحسنه . قال واستحضرنى يوما آخر فوجدت رجلا معتزليا يتكلم في اسماء الله تعالى فاوعيته سمعى الى ان عثر عثرة فلم اسمح باقالته ، وذلك انه قال اسماء الله متغايرة كزيد وعمر فقلت له مع من تتكلم يا هذا ؟ أمع مولانا أم مع غيره ؟ فقال لى ابو تميم ناظره ، فقلت له ألست تقول زيد غير عمرو ؟ قال بلى ، فقلت : أو كذلك الله والرحمان احدهما غير الآخر ؟ ولهما مغاير غيرهما ؟ فلم يجد جوابا ، فقال ابو تميم هذا والله الكفر بعينه ، فعجز المعتزلى ، وانقطعت حجته .

العفو عن ابى خزر ومقدمه الى القيروان

قيل ان ابا تميم اطال البحث على ابى خزر والاستطلاع على أنبائه . حتى علم انه بجبل نفوسة ، فارسل ابو تميم اليه بالامان وكان في عز واكرام عند ابى زكرياء بن أبى

عبد الله بن ابى عمر بن أبى منصور الياس ، وكان قد علم بان البحث عليه فى جبل نفوسة فلم يقع فى نفسه خوف ، لمكانه ، فلما سمع الامان وصح عنده كتاب ابى تميم بذلك خرج من جبل نفوسة متوجها الى القيروان فعلم ابو تميم بقدومه وانه وصل الى قابس قال أبو نوح : فوجه الي أبو تميم ، فقال لى ان صاحبك قد توجه ، وقد وصل الى قابس فسر اليه وألقه هناك ، قال ولم أكن قبل ذلك اعلم له مستقرا ، فاستبشرت وقلت له ان رأى مولانا ان يوجه معى خيلا من مزاتة فعل ، فوجه معى ثمانين فارسا من مزاتة فلما خرجوا معى طعن فينا بعض الجلساء ، وقال اذا منحت لابى خزر هذا الثمانين فارسا فانه يمتنع بها حيث شاء . فوجه فى اثرنا من رد الخيل الا الاقل منها . قال فسرت الى قابس فوجدت فيها ابا خزر فسلمت عليه ، فقلت ما هذا المجىء ياشيخ ؟ اما تخاف على نفسك ؟ فقال ما بين مجيئك ومجيئى الا قليل ، لم اخرج من جبل نفوسة الا بامان أبى تميم ، وقد علمت انه لا ينقض عهدا ولا يحل عقدا ، فلما استوثقت من امانه أقبلت . قال وسارا ومن معهما الى القيروان فلما دخل ابو خزر على ابى تميم رحب به وأكرمه وعظم شأنه وانزله فى مسكن حسن وحمله على فرس كريم واجرى عليه رزقا واسعا ، والطفه ، ورفع منزلته ، وأدنى مجلسه وسنى قدره وشاع فى الفضائل ذكره وأمر له بحلة جزيلة وخلع عليه خلعة نفيسة جليلة ، وكان مجلسه على سريره دون جميع الجلساء . والقوم انما كانت نهاية شرفهم وعلو منزلتهم ان يقفوا بين يديه ، وكان دخوله وقدومه على ابى تميم فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة 359 تسعة وخمسين وثلاثمائة ، فاقام عنده حتى رحل معه الى مصر .

قصة انتقال المعز الى القاهرة وابي خزر معه

ولما تواترت الكتب على السلطان من جهة المشرق لصالح مصر والشام والحجاز واقامت الدعوة له بها ، سره ذلك واستبشر وأخذ في تهيئة الخروج ، فخرج باهله وعساكره وبيوت أمواله وعزم على استصحاب الشيخين أبي خزر وأبي نوح لئلا يكون منهما بعده في المغرب خروج عن طاعته وقيام عليهولكونه أيضا لم يرد مفارقتهما ، فكلمهما في ذلك ليأخذوا في أهبة السفر، فاما أبو خزر فقال كيف بالقيام بعدك والقعود عنك ؟ واما ابو نوح فكره ذلك وكان عند أبي تميم رجل يهودي ، يعرف فضل أبي نوح ويتخدم له ويجد في حاجته ، فعلم ما عنده من كراهية المسير فنصحه اليهودي ، وقال تمارض وانقع نخالة الشعير واشرب من مائها ، واغسل به وجهك ، فان حالك يتغير ، ويظن من يراك انك مريض ، فحين عزم أبو تميم على الحركة سال عن أبي نوح ، فأعلم انه مريض فاستدعاه فاحضر فلما رآه مصفر الوجه متغير الحال ، ظن انه مريض فأذن له في المقام ، فاقام مدة تأهب أبي تميم للحركة حتى ارتحل ، ولم يسأل عنه في اثناء هذه المدة ، فارتحل ابو نوح الى جهة وارجلان وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله اذا فرغنا من اخبار أبي خزر .

وصية المعز لخلفه على المغرب

وقال ولما ارتحل ابو تميم من افريقية ولى على جميع أموره بها وعلى جميع انظارها بلكين بن زيرى الصنهاجي، وأوصاه عند توديعه بان قال له اشفني في أولاد المجوس زنانة ومزاتة ، واعلم انى قد تركت لك بافريقية مائة آلف منزل فمتى هممت بمحاربة عدو فاجعل على كل منزل فارسا واحدا ، فانك تكتفى بذلك حرب من تريد حربه

ويريد حربك (I). واما ابو خزر فجزع لفرقة الاخوان والنأي على الاوطان جزعا قد اظهره اذ غلب عن كتمانه ، حتى عبر فيه لسانه عن ضمير جنانه ، وسمعت بعض العزابة ينسبون اليه قطعة شعر قد قالها عند رحيله ويبعد عندى ان يكون ذلك الحال من قبله ، ولم اضعها فى جملة اخباره ولا اثرتها فى آثاره وربأت به عن ان يكون ذلك من صناعته فيكون ذلك مخلا لما تقدم من ذكر بلاغته وبراعته وهى قطعة عينية لا تليق بذى بديهة ولا روية .

ابو خزر ينتقل مع المعز الى القاهرة

واجتاز ابو خزر فى طريقه الى المشرق بلماية فبالغوا فى اكرامه وابراره ، وافرطوا فى اعظامه واكباره ، وتمنوا ان تكون عندهم مقامته ، وساءتهم مسيرته مع من لا ترضى امامته ، فأثنى عليهم وشكر ماهم فيه من حسن الطريقة ، وقال أهل الدعوة على الحقيقة وختم بعد جميل النثاء ببركة صالح الدعاء .

وبلغنا ان ابا زكرياء فيصل بن ابى مسور رحمه الله خرج من جربة حين سمع بمسير ابى خزر الى المشرق يريد وداعه ويسأله عن مسائل فى مهم دينه اشكلت عليه ولم يجد بدا من الانتهاء فيه اليه ، قال ابو زكرياء فسألته عن ثلاث مسائل فاجاب فى جميعها بما يسرنى فودعته واودعنى لوعة فراقه .

واقام ابو خزر مع ابى تميم فلم يزل معه ملحوظا بعين الكمال مقابلا بالاحتفاء والاحتفال ، واصحاب ابى تميم يلمزون ابا خزر ويطعنون فيه ويحسدونه فى تفضيله عليهم ، وايثاره دون خواصة من يصطفيه ، وبلغنا انه

(I) اما رواية ابن خلدون فانه يقول : اوصاه بثلاث : ان لا يرفع السيف عن البربر ولايرفع الجباية عن أهل البادية . ولا يولى احدا من اقاربه .

سار ذات يوم ومعه ابو خزر يسايره الى ان اعترضهم زرع فشق ابو تميم الزرع ومعه اصحابه الا ابا خزر . فانه عدل عن الزرع جانبا حتى استدار اليهم من خارج الزرع فامكنتهم الفرصة فى ابى خزر وطعنوا فيه عند ابى تميم. فقالوا له الا ترى انه عدل عن طريقك ولم ير اتباعك عليه ؟ فاقبل اليه بعد ما قالوا فيه ما قالوا ، فقال له أبو تميم مالك يا يغلى لم تصاحبنا على طريقنا . ام انت غير راض بطريقنا ؟ فقال وكيف لا ارضى بطريق مولانا ؟ قال فمالك لم تتبعنى حين سلكت فى الزرع قال بالخبر المأثور انه : اذا سقطت الثريا فلا يدخل الزرع الا ساقيه أو ناقيه أو واقيه ، فانا لست بأحدهم فكيف ينبغى لى دخوله ؟ واما انت فواقيه فذلك لك . فأعجبه حسن جوابه،وقال لاصحابه ألم أقل لكم لا تقولوا فى يغلى الا خيرا ؟ والآن فقد اعذرت اليكم فمن وقع فيه بشر فلا يلومن الا نفسه .

بعض علماء مصر يمتحن ابا خزر

ولما دخلوا مصر تسامع علماء مصر بخبر ابى خزر واشتهر فيهم فاضطربت الجهات بذكره واشتهر عندهم ان ابا تميم وصل بعالم المغرب ، فارادوا امتحانه ليعرفوا مبلغ علمه . فكلهم شاحد غربه ومفرق سهمه ، فأجمعوا ان يحضروه على طعام وتكون المناظرة بعد تناولهم أياه ، قيل ، وكان مما عزموا عليه انه اذا حضر الطعام وحضر ابو خزر وضعوا ايديهم فى الطعام ورفعوها قبل استفاء الحاجة فان هم رأوه رفع معهم ، حين يرفعون علموا انه يفحم وانه يغلب عليه الوهم . وان هم رأوه متماديا على الاكل حتى يستوفى منه حاجته علموا ان لا قبل لهم به . فلما حضر الطعام وحضر الشيخ جعل كل واحد منهم كلما تناول قليلا رفع يده قبل الاستكفاء ، فلما رأى الشيخ ذلك

منهم قال : ما بهذا الاكل احمرت وجوهكم . ثم جمع نفسه واخذ فى الاكل من غير احتشام ولا ارتياب ، حتى اكتفى منه ، فحين رأوه لا يقف عند الوهم امسكوا عن مناظرته والقوا السلم دون كفاح .

المؤمن المخلص عظيم القدر عند الله

قيل وكان رجل من أهل تاجديت يعرف بابى سليمان صاحب ابا خزر متخدما ، وكان كثير الملازمة له فذكر عنه انه قال بعد رجوعه كان الشيخ ابو خزر رحمه الله كثيرا ما يعظم قدر المؤمن المخلص المصلح ، وكان اذا ذكر من هذه صفته قال انه خير من الملائكة ، قلتلم يقل الشيخ هذا من عنده ولا نطق به حيث ينتقد عليه بل هو متعلق بما جاء فى الاثر : خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق البهائم من شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من شهوة وعقل. فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فالبهائم خير منه .

امينته الوحيدة تعليم الطلبة

ولما استقر المقام بمصر اقطع ابو تميم ابا خزر ديارا وعقارا ومستغلات فحسنت بها أحواله ونعم باله وكان فى ذلك الحال يقول : والله لا آسف على شيء فاتنى بالمغرب الا افادة طلبة أهل الدعوة ، وما يكتسب فى ذلك ثواب الله عز وجل ، وانى لأتمنى ان يهاجر للمرء منهم عشرون طالبا لا يكون لاحد منهم شغل الا طلب العلم فاتكلف لهم بالافادة فاصونهم حتى لا يتكلفون بكلفة حتى الذى يصلون به من كراء .

اخواننا فى المغرب يشددون على انفسهم

وكان ربما قال حينئذ ان اخواننا بالمغرب لأهل تشديد وانلهم عندى لرخصا وانى لأتمنى لو قلدونى فيها واخذوها عنى فيخف عنهم كثير من ذلك التشديد ، قلت اما تمنى الشيخ رحمه الله أخذ اصحابه بالرخص فليس بطعن

فى اخذهم بالأحوط . فالاشارة لقول ابن عباس رضى الله عنهما الرخصة من الله صدقة فلا تردوا صدقته ، ولعله أيضا لم يتمن ان يفتى بالرخص كل مستفت ولا ان يفتى بها فى كل حال من ضرورة أو سعة بل يفتى بها من لا يرى فى العمل بها التهاون فى الدين أو يفتى بها فى ضيق يلجأ اليه الجاء أمثاله من المجتهدين . وما يؤكد ذلك ما ذكر الشيخ ابو نوح رحمه الله من أوصافه ايجازا وذلك انه قال : كان ابو خزر أورع الناس فما سمع شيئا قط الا عمله قال : من شأنه اذا صلى الصبح ان يأخذ فى القراءة والدعاء والتضرع الى الله عز وجل منتحيا عن الناس حتى تطلع الشمس ، ومن ورعه ما بلغنا ان ابا القاسم كان يؤم الناس فى صلاة الصبح ، فلما كان يوما من الايام أبطا ابو القاسم وخافوا خروج الوقت ، فقدموا ابا خزر ليصلى بهم ، فلما تقدم عن الصف أحس بقدوم ابى القاسم ، فتأخر وقدمه.

مكانة ابى خزد العلمية

ولما مات ابو تميم ولى بعده ابنه نزار ، واضاع احوال أبى خزر فلم يتفقده بما كان يتفقده أبوه من الصلات ، فمسه ضيق عيش على الكبر ، فلازم كتمان الفقر فصبر الى ان قدم الى مصر رجل معتزلى جاء متعرضا للمناظرة فناظره علماء مصر طبقة بعد طبقة فافحم جميعهم ، ولم يبق بمصر احد يقاومه فى المناظرة ، فشق ذلك على السلطان وعلى علماء مصر ، فجمع السلطان أهل مشورته فشاورهم فى أمر المعتزلى ، فقال له بعض من كان يحضر مجلس ابيه ويحضر به أبو خزر ، ان هاهنا شيخا كان أبوك قد استصحبه من المغرب ، وكان عنده مكرما معظما موصوفا بالعلم والنظر ، ولا يرى لمناظرة هذا المعتزلى غير هذا الشيخ ، فلو وجهت اليه لكفاه هذا المهم ، فوجه اليه فلما

جاء الرسول بما اراده به السلطان ، قال له ابو خزر ليس عندى مركوب اركبه اليه ولا لباس أحضر بـه المجالس ، فرجع رسول السلطان بمقال أبى خزر فامر له بمركـوب وكسوة سنية ، فلبس وركب ، وخرج لمناظرة المعتـزلى ، فوجده فى قبة ضربها عـلى نفسـه بالفسطاط ، نصبها للمناظرة ، فاستأذن فأذن له فدخل وسلم عليه ، وسأله عن احواله ، حتى سالـوه فيما يمشيـه (I) فقـال امشيه فى المناظرة ، فلما أطمان به المجلس اخذ فى المناظرة فما جرى بينهما كلام فى مسألة الا والغالب أبو خـزر والمغلوب المعتزلى ، حتى انقضى مجلسهما ، وانقطـع الكـلام ، وما انجلت هبوة (2) اللقاء الا والمعتزلى محضوم (3) . قـال : فأخذ يسأل أبا خزر أين تعلمت قـال فى بـلاد الشيـح والحلفاء . قال كذبت ليس مثلك يتعلم فى بلاد الشيـح والحلفاء انما قصد المعتزلى ان يحلف بالاكذاب لما لم يجد معه بدا فيما هو بصدده ، فكان الفلج لابى خزر . فمـن ذلك اليوم التفت وارتفع ما وهى من أحواله ونزل مـن البر منزلة امثاله ، وبان فضـل سبقه بـين السوابق ، لا يعوقه عن الرفقة عائق قيل وقال المعتزلى حينئذ ما ناظرت مناظرا قطعنى الا شابا بالمغرب وهذا الشيخ ، فقال لـه أبو خزر ان الفتى هو الشيخ ، والشيخ هو الفتى ، فزاده ذلك اعجابا واستحسنه .

اخبار ابى نـوح سعيد

واما أبو نوح سعيد بن زنغيل رحمه الله ، فانه لما فر من أبى تميم ، ولحق ببلاد وارجلان ، ومعه أهله ومـن يختص به ، وجميعهم تحت خوف واختفاء فلما وصـل

(I) هكذا فى النسـخ

(2) الهبوة النبرة ، واهباء الزوبعة : شبه غبار يرتفع فى الجو

(3) فى النسخ محضوم ولم اجد له معنى وربما مهضوم من هضم الشىء كسره .

الموضع المعروف بالبكرات بقرب وارجلان ، تقدم من قبلهم من يبشر ابا صالح جنون بن يمريان رحمه الله بقدوم ابى نوح ومن معه ، فاستبشر وقال للبشير ارجع اليه وقل له لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، ولما وصل وارجلان انزله الشيخ وجماعة اهل وارجلان ، وأحسنوا نزوله وتجاوزوا الحد في الاعظام واكرموا مثواه غاية الاكرام ، الا ان المختص به أبو صالح ، فانه ذكر لنا انه ملأ له بيته الى السقف تمرا ، وامثال ذلك مما لا بدله منه وأجرى له في كل يوم مائدة ، وأخرى عشية ، ثم قال في نفسه ولعل له مآرب لا اعلمها أو به خصاصة لا يعلنها ، أو مفاقر لا يسدها الا المال ، فانفرد به ذات يوم فتحدثا ساعة ، ثم قال له ابو صالح ادخل يدك في جيبي فما وجدت فاغسل به ثيابك ، فادخل يده فوجد صرة فيها سبعون دينارا ذهبا ، فقال له من كان له أخ صالح مثلك يا ابا صالح لم يمسسه عدم ولا احتياج . قيل وبات أيضا ليلة عند ابى عمر التناوتى فعامله مثل معاملة ابى صالح فى اعداد الصرة في جيبه فشكر صنعهما ، وقضى المآرب ، وسد المفاقر فنعم المشكور والشاكر .

مجلس ابى نوح بورجلان

وكانت جماعة أهل وارجلان تجتمع عند مسجد الشيخ جنون فمنهم المستفيد منه علما ، ومنهم المتبرك بمشاهدته والمشارك فيما يعرض من أمور دنياه ودينه ، والمقتنى خلقا يتحلى به ، والمستزيد من معرفة سبب السير فكلهم منقلب بخير وفضل . وربما حضرهم من ليس بأهل لمحاضرتهم ممن هو جنيب في مثل تلك البقعة ، ومن لا بيت له فى الرقعة ، فحضر مجلسهم ذات ليلة رجل من البله . من المغفلين الذين يحضرون مجالس الذكر فى زى المتطفلين

فقال لابى نوح اخبرنا الليلة يا شيخ بكل ما تعلمت من علم الكلام ، واستخف بعقله من حضر فاستخفوه وبكتوه واقصوه ، ولم يكن من الشيخ الا مجاملة وحسن معاملة ، الا انه قال له عند ذلك : كيف أخبركم فى ليلة واحدة بشىء أكلت فى تعلمه اقفزة ملح ، ومكث ابو نوح فى وارجلان على هذا الحال زمانا حتى أمن ما كان يخاف ، فدعاه حب الوطن الى توديع خير ألف ، ولما استفزه الاشتياق وتحقق منه العزم على الفراق قال له الشيخ أبو صالح : أقم وأقاسمك فى جميع ما املك وكان أبو صالح ذا مال كثير فى وارجلان فصمم على ما عزم عليه .

رجوع ابى نوح الى قسطيلية

فرجع الى افريقية فوجد البلاد قد تغيرت والصدور قد تنكرت ، فندم على فراق وارجلان ، ولامه اصحابه حيث لا ينفع الندم، ولا يفيد اللوم، فانه قد كان قصد فى رجوعه اصلاح ما يخشى فساده ، فوجد الفساد قد عم ببلاده فكان مقامه حينا بافريقية وحينا بقسطيلية ، لا يالو جهدا فى تدارك ما فات ، وأحياء ما لحق بحكم الاموات .

وبلغنا ان ابا نوح كان ذات مرة بقنطنار هو وتلامذته فى الاشتغال بالدراسة والتفنن فى العلوم وايضاح سبيل الصلاح والرشاد وتغيير المناكر والفساد ، فكانوا فى حال رخاء وعيش هنىء وكان مقدم بنى درجين وحنين بن وريغول ممن يفد على المنصور بن بلكين بن زيرى الصنهاجى . فوفد عليه ذات مرة فاكرمه وقربه وحياه وأحسن، فرجع على احسن حال ظافرا ببلوغ الآمال. فلما سمع بقدومه خرج ابو نوح وتلامذته ، وخرج أهل البلد ليتلقوا وحنين ، فلما كانوا بخارج البلد بحيث يبصرون وحنين نظروا فاذا جماعة قد سبقتهم فامعنوا النظر فى

— أولئك الذين سبقوهم ، فاذا هـم من النكار ، فلما علـم ابو نـوح انهم النكار وانهم سبقـوا حـدس انهم عجلوا ليكونوا لمفاوة وحنين أهلا وليكونوا بالمكانة عنده أحق ممن سـواهم ، وأولى ، فقال لاصحابه قفوا مكانكم ، فان هـو صافح النكار قبلنا ، هجرناه ، فلما قرب النكار منه وقد أشرف عليهم اصرف عنهم عنان فرسه واشار بالسلام اشارة واعرض عنهم وتقدم نحو الشيخ ليبدأ بمصافحتهم . فلما فهم ذلك عنه الشيخ ابو نوح وأصحابه ورأوا اعراضه عن النكار ، قال لاصحابه قوموا بنا لنصافحه فلما كان قريبا منهم نزل عن فرسه وجاءهم يمشي ، قال يوسف بن النفاث : كأني انظر اليه وقد اقبل لابسا كسا خز وأشبورة نصف الكسا ، حتى صافح الشيخ واصحابه واهتز ابو نوح لفعله ، ودعا له حينئذ بدعوات تحققت منها البركات ، وان بركة تلك الدعوة لباقية فى عقبه الى يومنا هذا . قيل ، وكـان من قول وحنين حينئذ للشيخ واصحابه أنا والله ما كان لى هم فى مغيبى ولا أسف على شيء لومت فى سفرى هذا الا القيام بواجب حقوقكم ، فان الذى أوجبه من ذلك عـلى نفسى قد لا يقوم به غـيرى ان غبت أو مـت فضاعفوا فى شكـره .

وبلغنا ان المنصور بن بلكين ارسل الى ابى نوح يأمره بقدومه اليه ، فلما جاءه الرسول بهذا الخبر قلق ابو نوح تجددت عقابيل الخوف كالحالة الاولى ، ثم تثبت فى أمـره فتوجه الى دار وحنين فى وقـت هاجرة فادخلـه فاستشار وحنين فى المسير اليه ، وهل هناك أمر يخافه عليه فيحذره أو شر يتوقعه ؟ فقال له وحنين ان طاب على نفسك المسير فسر ، فانى لا اخاف عليك ، وان كرهت المسير فأقم وأنا

امنعك وأخالف عليه من أجلك ، فدعا لـــه بالخير . ثم ان أبا نوح استخار الله تعالى، واجاب دعوته، فقصد المنصور وسار متوجها الى القيروان واعلم المنصور بقدومه فأذن له بالدخول ، فدخل فسلم عليه وأدناه ، وأحسن اليه وأكرم مثواه وفضله على كثـير من جلسائه واصحابه ولقي مـن القبول ضد ما كان يخطر فى وهمه ويخشاه ، فبلغنـا ان المنصور حينئذ تكلم بكلام ليانس بذلك ابو نوح وينجلى همه ، ويذهب عنه من الروع والحزن ما كـان يتوهمه ، فكان من كلامه اعلم يا شيخ ان رمحى وهبي وسيفى وهبي وذلك ليشعر بالامان ، ويتأكد منه صفاء الصدور مـــن الاضغان ، فأنس لذلك واطمأن ، وحمد الله لذلك بجميل الظـــن .

مناظرة ابى نوح فى مجلس المنصور

وكان ابو نوح كما ذكرنا عالما بفنون المناظرات والرد على اصحاب المقالات فكانت له فى المناظرات بين يـــدى المنصور اخبار مشهورة وأيام فى جميل الذكر مذكورة .

فمنها ان المجلس قد ضمه ذات مرة ورجلا يعرف بابن حمو ، وكان موصوفا بالمناظرة متعرضا لها فجرى بينهما كلام فى هذا الفن ، وتعرض ابن حمو بمناظرة ابى نوح فبدأ ابو نوح بالسؤال ، فقال له ما علامة الصنعة ؟ فقال الحدوث والحركة والسكون والزوال والانتقال ، قال ابو نوح فقلت له كل محدث مخلوق فقال وقد كابر على نفسه كل مخلوق محدث ، وليس كل محدث مخلوق . فقلت لــه والمحدث اذا على ضربين محدث مخلوق ومحدث غير مخلوق، فليزمك ان يكون القديم على ضربين خالق وغير خالق ، قال فقال عند ذلك بل القديم كله خالق ، قال فقلت له وكذا المحدث كله مخلوق ، قال بل كل قديم خالق وليس كـــل

محدث مخلوق ، قال فقلت له ، فالكفر اذا مخلوق لانـــه محدث قال وهو جواب مضطرب الكفر مخلوق لى، قال فقلت له اذا كان الكفر مخلوقا لك فينبغى على هذا العيار ان يكون مربوبا لك ومألوها لك وانت على هذا القياس الـه فعلك وربه ، قال فقال مضطربا الكفر مخلوق لى وليس يجب اذا كان مخلوقا لى ان يكون مربوبا لى قال فقلت له فلزمك على هذا ان يكون مخلوقا لله غير مربوب له وان الله خالق لمـا خلق من الاشياء وليس بربها ولا الهها ، قال ابو نوح فلم اسمـــع منه بعد هذه عن كبيرة ولا صغـــيرة ، بل بهـت وانقطعت حجته. قال فقال لى المنصور : فما الذى يقول لك هذا فقلت أصلحك الله ان هذا يزعم ان لله خلقا وان لــه خلقا غير ما خلقه الله تعالى، فيكون كل واحد منهما منفردا بخلقه قال : فقال له المنصور لقد جعلت لله شريكا يا هذا. اذقلت تخلق والله يخلق ، فهذا الشرك بعينه . وانكر ذلك القول عليه غاية الانكار وقبحه .

واقام ابو نوح عند المنصور فى منزلة كريمة وخيرات عميمة الى ان ازمع الترحال فاحسن جائزته ، وانفصل على أبر حال .

وبلغنا ان أبا نوح ناظر يكما الاعرج النكارى ، وكان من شيوخ النكارة ومن علمائهم فقال له أبو نـــوح أسألك عن حجة السمع فاخبرنى عن رجل مشرك دعاه رجـــل من المسلمين الى دينه . فاخذ يعلمه التوحيد ويدرجه حـــرفا حرفا ما منزلته قبل تكميل التوحيد ؟ اهو على حالته الاولى من الشرك أم هو مسلم ؟ قال ابو نوح ثم قلت له ان قلـــت مسلما فاذا يسلم الانسان ببعض التوحيد دون بعض. وان قلت مشركا فبماذا أشرك؟ بالذى سمع من التوحيد ام بالذى

لم يسمع منه ! فوقف. وقال لا اعلم. قال فقلت له لا تحتشم ولا تخجل فانك بلغت مبلغ امامـــك عبد الله ولم تقف الا فيما وقف فيه امامك عبد الله بن يزيد . ولـو وقفت دون ذلك للمناك، وبلغنا ان الشيخ سأله بعد ذلك بعض تلامذته فقالوا له ارايت ان قال لك يكما : انما اشرك بالذى لـم يسمع فقال لهم : اذا قال ذلك فهو الرجوع الى قـولنا : ان الحجة تقوم بسماع وبغير سماع ، وهذا قد قامت عليه الحجة بعد سماع ، وبغير سماع وان قال انما اشرك بالذى سمع قيل له اسرار التوحيد اذا خير من اظهاره ، ويلزمك ان يكون ترك التوحيد ايمانا ، ويكون فعله كفرا .

مناظرة تـودى الى فتنـة

وبلغنا ان رجلا من اهل الدعـــوة ناظر رجلا نكاريا بمدينة توزر ، فجرت بينهما مكالمة افضت الى ملاكمة فقال احدهما للآخر يا حمار ، وقال الآخر يا ثور فخرجا مـــن المدينة وكل واحد منهما ممتلىء غيظا فشكا كل واحد منهما الى اصحابه ما لقي من خصمه من سوء المعاملة، وكان حينئذ الشيخ ابو نوح بتوزر الا انه غلب عن رتق الفتق ، وذلـك ان كل جماعة غضبت لما اصاب صاحبهم فخرجوا فكان منهم لقاء بخارج توزر ، فاقتتلوا قتالا شديدا فاسرع القتل فى النكارة وانهزموا واتبعهم الوهبية يقتلونهم الى تقيوس ، ولحق رجل من الوهبية يكما الاعرج فى الهزيمة وكان يكما ذميم الصـــورة ردى السيمة اشبـه شيء باليهود ، فقتله الوهبي ، وبلغنا ان أبا جعفر أحمد بن خيران رحمه الله ادرك رجلا من النكار صريعا فامسك عنه فلم يقتله فقيل له بعد ذلك لم لم تقتله فأجاب بجواب غير مقنع وكان رجلا ابله . ثم ان الوهبية ائتمروا فى اتباع النكار وحصارهم فى تقيوس ، فنهاهم الشيخ أبو نوح عن ذلك فقال لهم ان

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اديل له على قوم مرتين في يوم واحد قط ، فأبت العامة الا اتباع النكارة وحصارهم لما أراد الله. فلما لم يجد نصح الشيخ فى القوم أمسك عنهم ، وخلاهم ورايهم ، فلما وصلوا تقيوس حاصروا من بها من النكارة . فلما رأوا انفسهم في الحصار أنفوا وتحاموا وخرجوا غضابا وقتلوا قتال رجل واحد ، فانهزمت الوهبية الى توزر هزيمة منكرة ، وكان ابو نوح في ساقة من العسكر يحمي ظهور اصحابه فلم يزل يذود عنهم ، حتى غشيه النكار وقد انقطع من أصحابه وحازه العدو وحملوا عليه حملة رجل واحد وطمعوا في الظفر به وكان في غالب الظن صار ميؤوسا منه الا ان الله عز وجل تداركه بلطفه فلحقه عزيز بن عيسى بن سعيد أخو الشيخ صابر المشهور ، فكشفهم عنه وحال بينه وبينهم حتى استنقذه منهم ، وافلت ، ولما نفس عن أبى نوح رجع فيهم كارا فبددهم شذر مدر . اخذ الشيخ في صدره وجعل كلما ادركتهما طائفة من العدو ، كر فيهم عزيز فردهم عن الشيخ ، حتى نجيا سالمين ، لم يكلم أحدهم كلاما . فكان عزيز يقول فيما بلغنا انا خير من أخى صابر فانى دافعت عن الشيخ حتى استنقذته . وصابر قد فر عند الهزيمة . وبلغنا ان ابا اسماعيل ابراهيم بن هلال المعروف بالبصير كان يومئذ ممن يبطىء الناس عن القتال ، ويقول أيها الناس احذروا الفتن ، ونهى، لو استمع نهيه ، وسعى في اطفاء الشر ، لو أجدى سعيه ، ثم ان أبا نوح وصل الى قنطنار ، فتمارض ولزم الفراش . فدخل عليه يوسف بن نفاث فسأله عن حاله فقال : هل تحسبِ انى مريض ؟ لا بل متمارض الفؤاد ، لما نزل بأهل الدعوة من النقص وشماتة

الاعداء . كان ظنى أن عبيدهم واماءهم يقابلون النكارة ويكفونهم ولو بالخزف والاحجار . فقد أصبحوا اليوم لاهل الدعوة اندادا وشفوا بعد الذلة احقادا .

يسجن ابا نوح طمعا فى فدية

وبلغنا ان الوالى بتوزر لما رأى عظم منزلة ابى نوح وارتفاع ذكره احتال فيما يجتلب به أهل الدعوة بسببه ، فسجنه فى توزر طمعا فيما يفدونه به . فأقام فى السجن ما شاء الله الى ان سمع ان رفقة وصلت من ريغ من بنى تكسنيت برسم الميرة . فسأل هل فيهم من الوهبية أحد فعرف ان فيهم رجلا واحدا من الوهبية ، يقال له يوسف ابن توجينت فارسل اليه فجاءه فقال له هل معكم جمال تبيعونها فقال نعم ، فقال انه مع اصحابى عشرون جملا يذكرون بيعها . فقال لـه لعلك ان تنفد لى شراءها منهم . فوقع القول بين يوسف وبين اصحابه فى الجمال بحسب عشرين دينارا لكل جمل فقد موابها . فلما وصلوا بها الى موضع بخارج توزر اجتازت خيل من صنهاجة من قبل والى توزر ، فساقوا الجمال غصبا فتبعها أصحابها رجاء استرجاعها منهم فلما كانوا ببعض الطريق لحقوا جملا أعرج لم يصاحب الخيل فقويت به نفوسهم اذ لم يبق بايديهم ما يبلغون به الى أوطانهم بسواه ، ويئسوا من بقيت الجمال ، واعلموا ان الوالى قد استأثر بها ، فاقبلوا يلومون يوسف وينسبون اليه ما أصابهم فى الجمال ، اذ كان السبب فى ذهابها ، وهم لا يدرون ما فى نية الشيخ من تضمينه نفسه قيمة الجمال . فلما يسر الله تسريحه من السجن جاء الى قنطنار فقدم يوسف بن توجينت بما عليه فقصد موضع ابى نوح ليلا فوجده والسراج بين يديه وحوله جمع كثير من أهل الموضع ، ينتنمون مجالسته لما

يقبسون من نوره . فقال له ابو نوح يا يوسف اني عازم على المسير الى بلاد اهل الدعوة ، فهل تعلم لى مركوبا يبلغنى ؟ قال نعم المركوب حاضر ، وكانت له بكرة اراد عليها الميرة ، فاستبشر وأطرح جميع العلائق لقضاء حاجة الشيخ . ورأى ذلك آكد عليه من غيره قال فابتدرت الى اجابة سؤال الشيخ، وعجلت الى مرافقته. فعمد الى البسط فهيأ منه حزمتين فجعلهما وطاء وبسط للشيخ بساطا لا يتاذى به وحمله فيها ، وارتحل يقود به وليس معهم ثالث .

انى لا احسن السؤال لاستفيد فافدنى

قيل وكان يوسف رجلا عاميا فقال يا شيخ انى لا احسن السؤال وانى لمشتاق الى ما استفيد منك لانتفع به ولكن هات من عندك ما فتح الله ، فقال له أبو نوح : أحبب للناس ما تحبه لنفسك،وأكره للناس ما تكرهه لنفسك ، قال فظننت انه لم يفدنى كثير الفائدة ، فاذا بجميع الفوائد جمعها لى . قال وسرنا حتى وصلنا سوف فاهتز اهلها جذلا ، وقد تقدم عندهم علم ما حل بالشيخ فخرجوا يتلقونه بالترحيب مسرورين بسلامته مما كان فيه فرحين بقدومه عليهم ، فجعلوا يجمعون ما امكنهم ويحضر كل منهم ما قدر من المال الناطق والصامت ليجبروا مصابه ، فقبل ذلك منهم ليقضي منه ما اعتقد ان ذمته به عامرة ، قيل فجاءه رجل بدينار فدفعه اليه فتناوله فقال له بعض من حضر أتعرف من هذا ؟ قال لا قال انه رجل نكارى قال ردوه قال فرجع فقال خذ دينارك . فقال لم ؟ قال لان النفوس طبعت على حب من أحسن اليها وبغض من اساء اليها وانى لا اريد ان احبك . فرده عليه .

وخرج الشيخ من هناك قاصدا بلاد بني ينجاسن من ريغ فلما دنوا من البلاد ، قال يوسف لابى نوح اما انت فقد وصلت فان رايت أن تاذن لى فى الوصول الى اهلى قال نعم ، قد اذنت لك فأت أهلك ثم تاتينى باصحاب الجمال ففعل . فلما جاءه باصحاب الجمال وفاهم ابو نوح اثمان الجمال على الكمال .

ثلاث مسائل يساله عنها محمد بن بكر

ومما سئل عنه ابو نوح فاجاب ما بلغنا ان ابا عبد الله محمد بن بكر رحمه الله ساله بمحراب مسجد قنطنار عن ثلاث مسائل احدها : الطفل من اولاد المسلمين اذا بلغ الحلم ما الحكم فيه ؟ فقال أبو نوح ان انست منه خيرا توليته وان لم تأنس منه خيرا امسكت عن ولايته . فقال ابو عبد الله او ما تلزمنا معارضة النكار فى الحارث وعبد الجبار ، اذ قلنا ببقائهما على الولاية وقالوا فيهما بالوقوف ، فقال ابو نوح ما يلزمنا معارضتهم فى ذلك لانا نقول انما كانت ولايتنا اياهم بو لايتنا لآبائهم ، فاذا بلغوا ورجعوا الى افعالهم زال عنهم حكم آبائهم ، وتوقفنا فيهم اذ صاروا الى حكم انفسهم ، بعد ان لم يكن لهم الا حكم آبائهم ، واما النكار فقد ازالوا الحكم الذى ثبت من الولاية من غيرهم فزال المعنى الذى اثبتوا به الولاية ولم يثبوا ضد ما ازالوا وهو ما يستوجب به البراءة ، فلا يلزمنا اعتراضهم . والثانية عن معنى الخبر الذى يؤثره بعض الناس عن النبىء صلى الله عليه وسلم ان جهنم لا تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه فتنزوى من نواحيها وتقول قطنى قطنى ، فقال الشيخ ان كان الخبر صحيحا فله وجوه منها ان قدمه هو ما قدم لها من أهل الشقاوة ، وهذا كقوله فى الصالحين : « وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق » يعنى والله اعلم :

ما قدموه لا القـدم التى هى العضو ، والثالثـة سـأله عن الورود التى تقوم بها الحجة على السامع . فقال ان يفهـم ما ورد على سمعه وذلك فى افعال الطاعات .

اهـل آخر الزمان ياخـذون بمتروك العلـم

وذكر يوما فساد الزمان واهله ، وهو يحذر ويـذكر ، فقال لمن حضر مجلسه : ان عشت يا فـلان فسيأتى عليك زمان باقوام يكثرون تتبـع الطريق حتى يذهب بهم فى ألف من بنات الطريق ، الفضة فى السنتهـم والنحاس فى قلوبهم ، انما يسمعون باضراسهم ، أقـوام يأخـذون بالمتروك من العلم ، وقال فى مثل ذلك ان شر ما خلقه الله الكفر والفقر وسيبلى بهما أهـل آخر الزمان ، فيعيشون فقراء ويموتون الى النار لا قدرة لهم على الانقاذ من الفقر ولا اعمال لهم ينجون بها من النار .

ابو نوح ينتقد اهل وارجلان فى سلوكهم

وذكر ان ابا نوح رحمه الله رجع الى وارجلان بعـد موت الشيخ ابى صالح جنون بن يمريان رحمه الله فوجد البلد قد فسـد ، والاحوال على غير ما عهد . فلبث فيهـا ما شاء الله ، ثم جعل لاجتماعهم اليه موعدا ، فاجتمع اليه جماعة ممن ينتمى الى التعيين ، فوعظهم وأخذ يقبح عليهم ما ظهر من المناكر لديهم ، فقال : انى رأيت فيكم ثـلاث خصال غير مرضية ، ولا ناهيا عنها . أحداها ان نكاح السر فيكم فاش فاذا مر أحد منكم برجل وامـرأة مجتمعين فى موضع التهمة اشمأز قلبه ، فان زجرهما عن الاجتماع فى موضع الريبة ، قالا انا متناكحان فكادت ان تظهر فيكم الفاحشة بل ظهرت . والثانية ان احدكم يطلق عبيده فلا يعولهم ولا يمونهم ولا يكفيهم طلبمعاشهم فينطلقون فى أموال الناس على غير رضى اصحاب الاموال ، وعلى غـير أذنهم فيكاد أحدكم يكون سارقا وهو فى محرابه جالس .

والثالثة انكم أظهرتم فيها بينكم التحزب والتفرق . فطائفة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم وطائفة يقولون حضرينا وحضريكم ، ويهودينا ويهوديكم . فلم يجدوا جوابا في مجمعهم ذلك الا انهم تواعدوا ليجاوبوه فلما ابطوا استرابهم . فارتحل عنهم من يومه ولم يبت تلك الليلة الا في (تينماطوس) عند حمو بن اللؤلؤ . قيل ولما أضافه حمو ولما كان من الغد سأله هل رزقت ذرية من ذرية أئمتنا ؟ قال نعم بنية . سيمتها أم المؤمن . فقال ارينيها فاقامها من نومها فاذا هي شعثاء سائلة العينين والانف لصغرها ، فقال ما أراها شيئا تصلح لأمر ، ولا تقوم مقاما ، فقال لا تقل في أم المؤمن الا خيرا . فقال ومحا عسى ان اقول في مليكة الوهبية الا أنها دون الموافقة . وقال حسن الغرض ان وافقت قلبك فتكون أولى بها فهذا حسن بالاقتداء بمن سلف ، قيل ولما ازمع الرحلة واعلمه ان طريقه يكون على بلد بني زلغين ، صاحبه حمو مشيعا وقاضيا لواجب حقه، ومعه ابنه ابو عبد الله ومع ابى عبد الله ابنه عبد الله فخرجوا متتابعين على الطريق والشيخ قد تقدمهم فلما كانوا ببعض الطريق وقد حضر وقت صلاة الظهر نادى عبد الله اباه ان وقت الصلاة قد حضر. فنادى ابو عبد الله أباه يؤذنه بمثل ذلك . فقال له حمو اسكت ليس ذلك اليك ولا الى فقد كفيناه ، ثم ساروا قليلا فكان منهما من القول مرارا كالذى كان أولا ، فيكون جواب حمو كالجواب الاول الى ان وصلوا قريبا من المصلى الذى بخارج البلد فمال اليه أبو نوح وأناخ راحلته وأقام الصلاة ، وتقدم وصلى بهم الظهر والعصر . ثم ختموا ختمة العشية ثم صلوا المغرب

ثم قال قد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في غير خوف ولا مطر .

ابو نوح في مجلس وال زويلة

وبلغنا ان ابا نوح دخل زويلة وواليها حينئذ ابن خطاب واكرم ابا نوح غاية الاكرام ومعه عبد الله بن زورتين الوسياني ، فكان عنده في اعلى درجة قيل فجلس ذات يوم في مجلس ابن خطاب وحوله رجل يهودى يقال له حلبى يزعم انه حبر فقال أبو نوح كالمداعب : أسألك يا يهودى عن ثلاثة مسائل فان اجبت عنها فانت حلبى وان لم تجب فانت خلبى . احداها رجل ضرب عنق نفسه فابانها متى قتل نفسه افي حال حياته أم في حال موته ؟ والثانية الراكب في السفينة بماذا يطلب الراحة والسكون لا يمكنه على حال ؟ والثالثة رجل رمى رجلا بسهم فمات الرامى قبله ثم مات المرمى بعده اقتله حيا أم ميتا ؟ فبهت اليهودى فلم يجد جوابا . فقال له ابن خطاب تفضل علينا يا شيخ بالجواب ، قال نعم اما الذى ضرب عنقه فابانها فانه قتل نفسه في حال الموت بما فعل في حال الحياة . واما الذى في السفينة فلا يخلو من الحركتين حركة نفسه وهى اكتسابية وحركة السفينة وهى اضطرارية ، فلو كانت الحركتان اكتسابيتين أمكنته الراحة بالكف عنها ، واما الرامى فانما قتل المرمى في حال الموت بما فعل في الحياة كالمسألة الاولى .

- وممن انتفع بصحبة ابى نوح وظهرت عليه بركته سريعا المعيز بن فضالة المراغنى ، فانه صاحب أبا نوح من قنطنار الى سوف وابو نوح راكب على بغلة والمعيز ماش على رجليه ، فلما وصلا سوف جعل ابو نوح يئن ويشتكى ألم السفر ، حتى كان من قوله ليس في بدنى عظم الا وهو واجد ألما . فقال المعيز لكنى لا اجد ألما ، ولا أحسه . فقال

له ابو نوح اما اذا كنت هكذا فقد وجب عليك الحج من وقتك ، قيل فتلقت هذا الكلام منه أذن واعية ، فتاب وتنحى عن الامور الدنيوية من فوره ، وباع من عقاره ما قضى من ثمنه صداق امرأته ، واستعد للحج حتى قضاه ورجع ونفذ وصيته حيا ثلاث مرات ، وكان يختلف الى مجالس الذكر حتى مات على هذا الحال الزكي فضرب به المثل : (من كان تائبا فليتب كتوبة المعيز بن فضالة) .

« ذكر شيء من أخبار أبي مسور بن وجين اليراسني وابنه أبو زكرياء رحمهما الله »

ابو مسور وابنه زكرياء اليراسنى

كان أبو مسور أول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم والفضل وكان تعلمه بجبل نفوسة قرأ على ابي معروف وابي زكرياء يحيى بن يونس السدراتي رحمهما الله وكان حينئذ مقلا من المال . فكابد من ضيق العيش في صبر وكتمان ما لم يكابده غيره ، كان ربما أخذ شعيرا فطلب من الصبيان من يقليه له ، فيقتات به . فان لم يجد من يقليه صره في طرف ثوبه ، ثم رشه بالماء حتى يبتل فيقتات به ، وكان ياوى الى خربة قرية فيأكل فيها ذلك الشعير في خفاء ، لئلا يطلع على حاله احد ، ومكث على هذا حينا من الدهر لم يفطن به احد ، وكان اذا جاء الى مجلس المشائخ قعد في آخر المجلس لحداثة سنه ، فيلازم الجلوس والناس يقومون فكلما قام احد ممن بينه وبين الشيخ تقدم هو ، حتى اذا لم يبق أحد بينه وبين الشيخ ، فيصير بين يديه ، فلا يزال يسأله حتى يقوم من المجلس ، فلم يزل كذلك الى ان كان ذات يوم بمجلس مع الشيخ وقد انصرف الناس فلم يبق معهما ثالث ، فجعل

يجمع بين عناء الفقر وعناء الطلب

يسأله كالعادة ، حتى هم الشيخ بالقيام فقام أبو مسور لقيامه ، وكان الشعير مصرورا فى طرف ثوبه ، فانحلت عقدة الصرة وتبدد الشعير على الحصير ، فنادى الشيخ يا معشر نفوسة ما ترفعون من رفعه الله ؟ فجاءت جماعة شيوخ سمعوا نداءه مسارعين وكل منهم مشفق ان يسبقه الآخر الى البركة التى دعاهم اليها الشيخ فتنازعوا فيها اليه . تسارعوا حتى آثروا أحدهم بان يكون متكفلا بابى مسور ، فيقوم بمؤونته . فلما كفي مؤونة المعيشة تفرغ للطلب ، فضاعف الاجتهاد ولازم القراءة حتى حصل من العلم ما قدر له ، ولما اراد المسير الى أهله اشتغل بانتساخ الكتب فمر به شيخه ابو معروف وهو ينسخ . فقال له هذه تجارة بائرة «يا يسجا» . فقال نعم لمن ضيع دراستها واتكل على خزنها ، هذا الذى اراده الشيخ لا انه يذم اقتناء الكتب ، وانما يذم الاعتزاز بها واضاعة الحفظ والمذاكرة

وفى المدة التى عزم فيها على المسير تزوج امرأته النفوسية التى ولد له منها ابو زكرياء ، وكان سبب تزوجه اياها ان شيخا من مشائخ نفوسة من اخوال ابى مسور رحمه الله ، وجه أبا مسور خاطبا اليه فوقع فى نفسها ابو مسور دون مرسله ، واشارت له الى ذلك ، فلما فهمه عنها ابو مسور رجع الى صاحبه فقال انظر لنفسك رسولا اليها ، فقال له الشيخ لعله ارادتك ، اما والله لأخطبها عليك فمضى اليها خاطبا على ابى مسور ، فتزوجها وقدم بها الى جربة ، وقد كانت الجزيرة حينئذ ليس فيها احد الا على مذهب خلف بن السمح ، غير نفر قليل قد تقدم ذكرهم . فدعاهم أبو مسور الى مذهب الوهبية فاجابه منهم من اراد الله به خيرا ، وكان بها حينئذ رجل من زواغة

نكارى يقال له خلف بن احمد ، وكان ذا مال كثير ، وكان متكرما فكان يصنع الطعام ويدعو اليه الناس ويدعوهم الى مذهبه ، فكل من اجاب ابا مسور كان وهبيا ، ومن اجاب خلفا كان نكاريا حتى لم يبق فى الجزيرة احد على مذهب ابن السمح بل صارت كلها تبعا لابى مسور ، أو لخلف بن احمد . فاقام ابو مسور فى الجزيرة تجتمع اليه الجماعات لطلب العلم واخذ السير وانتهاج الطريق ، وبنى ابو مسور المسجد الكبير بجربة المعروف (ببنى يراسن) ومات رحمه الله قبل تكميله ، فكمله بعده ابنه ابو زكرياء فصيل رحمه الله ، فكان به فاتحة كل خير وصلاح وطليعة كل يمن وفلاح ، ولهما بجزيرة جربة وغيرها من المناقب ورفيع الدرجات وعلو كريم المراتب ، ما هو منشور فى الاقطار . ولو سكتوا اثنت عليهم الحقائب .

شهادة المشائخ على فضل ابى مسور وتقواه

سئل الشيخ ابو نوح سعيد بنزنغيل غير مرة عن الرجل المشهور من أهل الولاية اشتهارا فاشيا فى العامة ، من غير ان يثبته عندك الازكياء ، أعليك ان تتولاه دون الاطلاع على احواله ، أو شهادة من ترضى شهادته فى ذلك وأمثاله ؟ فكان جوابه لكل سائل سأله عن ذلك اما مثل ابى خزر فى افريقية ، وابى مسور فى جربة ، وابى صالح فى وارجلان فنعم ، واجتمع ثلاثة من المشائخ الموصوفين بالعلم والدين فمر بينهم ذكر أبى زكرياء فصيل رحمه الله ، فوصفه كل منهم بمبلغ معرفته ، ولا تنكر ان يكون قد وافق كنه صفته ، احدهم ابو محمد عبد الله بن مانوج ، والثانى ابو عمران موسى بن زكرياء ، والثالث ابو عبد الله محمد ابن بكر رحمهم الله ، فكان قول أبى محمد لو كان الوحي ينزل فى زماننا لكان ابو زكرياء اهلا لأن ينزل عليه الوحي

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : ابو عمران لو كانت الامامة في وقتها لاستحقها ابو زكريـاء ، وقال ابو عبد الله لو اجتمعت خلال الخير والبر كلها بيـدك ، واردت ان تزيد منها في أبي زكرياء لم تجد لها فيه موضعا للمزيد لاحتوائه عليها ، قال الراوى رحمه الله اما قول ابى محمد فانه لا يعنى بها التقدم على الله ، وانما يعنى كثرة علمه بالفرائض والفضائل والنوافل كما كان الانبياء في زمانهم صلوات الله عليهم ، وعلى نبيئنا محمد عليـه الصلاة والسلام ، واما ابو محمد فانه لا ينسب اليه جهـل معنى قوله تعالى : (لا تقدموا بين يـدى الله ورسوله) قلت والاعتذار من هذا بوجوه كثيرة ولعل الاختصار من ذكرها أجمل .

قيـل وكان أبـو زكرياء قـرأ بافريقية عـلى ابى خزر رحمه الله وكان شيخه ، حدث غير واحد مـن اصحابنا ان ابا زكرياء وجهه ابوه الى نفزاوة في سنة ممحلة ووجه معه جمالا وبضاعة ليمتار تمرا من بعض قـرى (يزمرتين) فلما وصلهم اجتمعوا واتفقوا ان يعلموه بما عزم عليه من المعاوضة فاقتضى نظرهم ان أوقروا جماله تمرا ، فوجهها من هناك لأبيه ووجه البضاعة اليه ولـم يمسك منها لنفسه شيئا ، وذكر أنه باع عمامته ليستعين بها على طريقه الذى يرومه وهو قصده الى ابى خزر برسم الطلب ، فسافر اليه من هناك ومكث عنده ما قدر اللـه مجتهدا في طلب العلم ، الى ان حصل منه ما شاء الله ، ولما وقـع ذكـر القيام بطلب ثـار الشيخ أبى القاسم كـر أبو زكرياء راجعا الى جربة ليستأذن اباه ، ويوصيه فيما يوصيه ويودع أهله . فلما قضى من ذلك ما كان في نفسه

سأل المحاللة من أبيه فقال انت مني في حل من جميع حقوقي عليك الا واحدة وهي كونك رددت الدراهم من نفزاوة ولم تبقها بيدك تستعين بها على طلب العلم ، ثم ان أبا زكرياء خرج من جربة متوجها الى افريقية نحو أبي خزر ، فلما كان ببعض الطريق سمع بخبر الهزيمة التي تقدم ذكرها فرجع .

ماثر وحكم عن ابي زكرياء فصيل

ومما يؤثر من ورعه رحمه الله وتحرجه ما بلغنا ان عاملا من عمال السلطان خرج على بني يراسن فوظف عليهم خراجا كبيرا ، فقال ابو زكرياء للعامل انهم غير قادرين على هذا القدر ، فقال له وعلى كم تراهم يقدرون ؟ قال يقدرون على كذا وكذا . فسمى له عددا فاقتصر العامل على القدر الذي ذكره ابو زكرياء فقبضه منهم ، ثم بعد ذلك راجع نفسه أبو زكرياء فندم على ما فرط منه ، ثم تصدق بقدر ما قبض مما وظف ، وأخرجه من مال نفسه للفقراء والمساكين . وقد قيل انه غرم ذلك الخراج كله من مال نفسه ورأى انه كان الذي اوجب عليهم غرم جميع ذلك المال ، وهذا هو الصحيح ، ومن تحرجه أيضا ما بلغنا ان رجلا غريبا كان نازلا بجربة تاجرا بها ، فاخذه عامل من عمال السلطان فسجنه ليغرمه مالا ، فشفع فيه أبو زكرياء عند العامل ، فشفعه واطلقه ، فلما كان بعد ذلك بمدة اذا بالتاجر قد اهدى اليه قميصا مستعملا ، فأبى أن يقبضه ، فقال له التاجر ادفع الي رأس مالي واترك لك قيمة الخياطة فأني خيطته بيدي ، فامتنع من قبوله اصلا . ومما يؤثر من كلامه انه قال : اذا قحطت الارض فان الجنة تنال بقبضة من الطعام ، واذا قحط الاسلام – يعني مسه ضعف – فان الجنة تنال بكلمة حق ، وقد اجتمع القحطان

في وقتنا هذا على ان قحط الاسلام اشد من قحط الارض ، وله امثال كثيرة حكيمة منتشرة في الناس يقتدون بها في أمورهم ، حتى ان بعض المشائخ قال لو ان الالفاظ الحكيمة التي يلفظ ابو زكرياء تثبت وتحضر في الدواوين لضاقت عنها . وكانت له بديهة حاضرة في كل فن فلا يجوز عليه مكر ماكر ، ولا احتيال محتال .

~ وبلغنا ان أهل الجزيرة وغيرهم من قبائل زواغة ضمهم بالجزيرة محفل كبير عظيم لاهل المذهبين في مهم ، قد عناهم ، وحضر المحفل العظيم المذكور ابو زكرياء . وحضره شيخ من شيوخ النكارة ودعاتهم فأراد النكارى ان يستنزل ابا زكرياء في ذلك المحفل العظيم مما يتوقع اللبس على العامة ، ويدخل الوهم على ذوي العقول الضعيفة . فقال له النكارى بعد كلام طويل يا ابا زكرياء نحن وانتم كلنا نكار ، فانا منكرون ما كان من تحكم الحاكمين بصفين : أبو موسى. وعمرو ، ففطن أبو زكرياء في ابتداره وقال : اما انا فلست بنكاري ، فخاب سعي الخصم ، ولم يجز توهمه على ابي زكرياء . وهذه احد مكائد القوم . أرأيت لو سكت ابو زكرياء وصدقه في مثل ذلك المحفل ؟ أليس ذلك موقعا في مسامع الحاضرين . ومشيعا في الغائبين عن ابي زكرياء غير ما هو عليه ؟

الوسواس وما يخطر في القلب لا يفسد الايمان

قيل وكان في زمانه بجربة شيخ من أهل الصلاح والاجتهاد مع البله وكان يكنى ابا محمدفمرض هذا الشيخ في آخر عمره ، فدخلت عقله وسوسة ـ وربما كان ذلك الخوف من هرمه أومالنخوليا لمرضه ـ على ان الاولياء محفوظون ، فعاده في هذا المرض ابو القاسم يونس بن أبي زكرياء ، فقال له يا يونس ان الشيطان قد استفزني

وكادني ، حتى كاد ان يهلكني ، ويفسد علي توحيدى واخلاصى ، بما يلقيه فى خاطرى من الوسواس ، وانى لأخافه على نفسى لما انا فيه من ضعف الجسد ، وضعف العقل لكبرى ، فبادرنى بابيك ليعالجنى ويداوى علتى قبل ان يدركنى الموت وانا على الحال ، فابتدر ابو القاسم الى ابيه فاخبره بخبر الشيخ ، فجاء مسرعا فتارة يمشى ، وتارة يجرى وهو فى ذلك كله يبكى حتى قدم عليه ، فقال له الشيخ هلم يا طبيبى ، فان الشيطان اولع بى واستفزنى على ضعفى ويخيل لى كانه يقول لى : كيف ربك ؟ ويخطر ببالى ما اخشى ان يصيرنى الى الهلاك . فقال له ابو زكرياء اعلم يا شيخ ان كل ما يخطر ببالك ويتمثل فى وهمك ويحضره عقلك ويبلغه ذهنك فانه خلق من خلق الله تعالى ولا يخطر بالبال الا ما تدركه الحواس أو شبيه بما تدركه والله عز وجل متعال على الاشباه والانداد والاضداد ، واعلم ان نفي هذه الخواطر عن الله هو من محض الايمان واخلاص التوحيد ، فقال له الشيخ قد داويت علتى وشفيت علتى آجرك الله يا ابا زكرياء ، يا بني .

ادخال السرور على قلب المؤمن افضل عبادة

ان احكى فى هذه الحكاية (1) ان ابا زكرياء كانت به علة تعتاده وكان مما يهيجها عليه لحم العنز لا سيما ان كان بائتا باردا ، فكان يجتنب اللحم العنزى واللحم البائت البارد ، فلا يكاد يقدم عليه ، ومتى استعمله يوما ثارت عليه علته ، فحضر فى هذا اليوم مجيبا دعوة ابى محمد كما تقدم وكان صائما صوم تطوع ، فناوله ابو محمد قطعة من لحم بارد عنزى بائت ورغب اليه ان يأكلها ، فقال له يا شيخ ان هذا آخر النهار ، وانا صائم ، وأيضا فان بى

(1) كذا بالنسخ ولعل صواب العبارة هكذا : وبعد ان حكى هذه الحكاية ذكر ان ابا زكرياء الخ

علة لا تكاد تخفى عليك ، فقال له سألتك بالله العظيم الا ما اكلت فلم يمكنه الا مراقبة قلب الشيخ ، وموافقته ، فتناول اللحم وأكل منه ما قدم له. فمنذ أن أكل ذلك اللحم شفاه الله من تلك العلة . ثم لم تعد له حتى لقي الله . قيل وانه أتاه بعد ذلك آت فى منامه فقال له : اعلم ان موافقتك لقصد ابى محمد وتطييب نفسه وادخال السرور عليه افضل من عبادتك سنة ، قيل وانه من ذلك اليوم يأكل المآكل التى ذكرناها ولا يجد لها الما .

ومن شكره لنعم الله تعالى ان امرأة معدمة جاءته تسأله شيئا من الزيت لتدهن به رأسها.وقد أضربها الشعث.فأخذ أبو زكرياء اناء ليملأه لها زيتا ففض خاتم خابية من خوابيه ، ونظر وفكر فيما وسع الله عليه من الرزق ووهب له من الخير ، ففاضت عيناه بكاء ، وهو يقول اللهم لا نسب بينى وبينك استوجب به الخير دون كثير من خلقك ولكن بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين ، ودموعه تقطر على الزيت . ومن اطراحه حظ النفس ما ذكرنا انه خرج مرة فى بعض حاجته فجنه الليل وهو بمقربة من منزل موسى بن الارب ، فقصده وسأل عن موسى فاعلم انه غائب ، فخرجت اليه امرأة موسى ولم تكن تعرفه ، فقالت له من انت ؟ فقال انا ضيف . فقالت ما اسمك قال فصيل ، فانكرت الاسم . الا انها قالت له ان الاضياف ثلاثة منازل فيما يقرون به ، فضيف يقرى باللحم فاما عقيرة واما ذبيحة ، وءاخر يتأدم بالزيت وءاخر بغير ادام ، ولا ادرى أى الثلاثة انت ؟ قال اجعلينى ممن يتادم بالزيت ففعلت فلما كان بعد ذلك قدم بعلها فاعلمته ، وقال ويحك فان ضيفك ابو زكرياء فقبح عليها ما قابلته به واستعظمه .

يحفظ الوديعة ويدفع زكاتها من ماله

ومن تحرجه ايضا ما بلغنا ان رجلا من أهل صفاقس دخل جربة تاجرا ثم اراد الخروج وبيده بضاعة فاراد ان يضعها فى امانة ابى زكرياء فامتنع ابو زكرياء من قبول وديعته فلم يزل يلح عليه حتى قبلها وكان قبوله بعد ان قال لا افعل الا ان تهبها لى حينا ففعل . وسافر الصفاقسى فاخرج ابو زكرياء البضاعة وعدها ، وعلم كم جملتها . فلما حال الحول اخرج عنها الزكاة من ماله ، وهى موفرة ففعل ذلك سنين عديدة كل ذلك ينتظر قدوم الصفاقسى فلم يقدم ، وطالت غيبته الى ان سمع بان مجاعة عظيمة فى صفاقس مهلكة ، فقال ابو زكرياء فى نفسه يمكن ان يكون صاحب الوديعة فى شدة احتياج اليها ، وان المانع من وصوله اليها عدم القدرة ومتى خاطرت فان نجانى الله احييت نفسا واديت امانة ، وان هلكت الوديعة غرمتها من مالى ، قيل وكان ذلك فى فصل لا يمكن فيه ركوب البحر لاضطرابه وكثرة أهواله . فأخذ البضاعة وركب البحر فسلمه الله عز وجل فطاب الى ان وصل صفاقس فسأل عن دار صاحب الوديعة ، فدل على داره فقصده فوجده فى حال شديد ، بحيث لا يعرف من يخاطب ولا ما به يخاطب ، فخرج ابو زكرياء الى السوق فاشترى طعاما بقدر ربع دينار ، وبادر صاحبه فجعل يعلله فيأكل شيئا بعد شىء حتى انقذ من الهلكة وكان على شفا منها ، فلما ذهب ما به من الضر فتح عينيه فعرف ابا زكرياء فقال له ما الذى اقدمك فى هذا الحال يا شيخ ؟ فقال اقدمتنى وديعتك ، هاهى هذه فخذها فرغب اليه ان يقتسمها فامتنع ابو زكرياء من ذلك وتضجر ، فدفعها له ورجع الى جربة موفور الثناء والحسنات الا انه ربما ذكر هذه القصة بعد ذلك فيقول لو لا انى

تبرعت بدفع الزكاة من مالى لكان لى ان اخرجها من تلك

تحنث الشيخ وعبادته

البضاعة ، ومن جهاده لنفسه يذكر ان الموضع الذى كان يصلى فيه الصبح هو موضع معروف لا يتحول عنه فذكر لنا ان الموضع المذكور متى آتاه آت بعد انصراف الشيخ من صلاة الصبح وجد ذلك الموضع كأنما توضأ فيه لكثرة بكائه وخشيته وذكر ذلك أيضا لابنه زكرياء ، ولما مات رحمه الله وكان ذلك ليلة من رمضان ، كان ابنه زكرياء حينئذ يصلى فى المحراب بالناس قيام رمضان ، فلم يكن عند احد علم بموته حتى سمعوا امته تصيح وتقول : مات سيدى يا سيدى زكرياء . فدهش الناس كلهم وخرجوا من صلاتهم وذهلت عقولهم الا زكرياء ، فان الله ثبته فتمم صلاته ، فاضطربت الجزيرة تلك الليلة وكانما قامت قيامة على أهلها ، وبلغنا ان عاملا من عمال السلطان دخل جربة فسأل عنه ، فاعلم بموته فقال دلونى على قبره لازوره ،

مات امرؤ عالم انه سيموت

واتبرك به . فلما وقف على قبره قال : عاش حميدا ومات فقيدا ، اللهم ارحمه واعد على بلده وأهل بيته . وقال فيما قاله حينئذ مات امرؤ عالم ان سيموت . وقال ابنه زكرياء انما مثل ابى كمثل حمولة حملت حملا ثقيلا موقرا ، وقد رأت المكان الذى يحط به عنها حملها فاسرعت لطلب الراحة ، قلت هذا من احسن الامثال التى تضرب فى مثل ابى زكرياء يريد بالحمل الثقيل هذه الحياة ، لان الدنيا سجن المؤمن وبالاسراع العمل بعد الموت ، وهذا شان من احب لقاء الله عز وجل .

ذكر جمل من اخبار أبي عبد الله محمد بن بكر رحمه الله ، وترتيبه الحلقة وتبيينه حدودها وتأسيسه قواعدها وتحريره قوانينها

كان أبو عبد الله من أكثر الناس علما وورعا وله السبق في أنواع كثيرة من الفضائل وهو أول من ألهم سلوك الطريقة التى حفظ الله بها هذا المذهب، فرسم المهمل ، وقيد الشارد ، فامتاز طريق الصلاح من طريق الفساد ، ووضح طريق الغي وطريق الرشاد قرأ على كلا الشيخين أبى نوح سعيد بن زنغيل وأبى زكرياء بن أبى مسور وغيرهما ، رحمهم الله ، وكانت لكل واحد منهما به عناية ، وله فيه حسن نظر .

يتوسم فيه شيخه الخير والصلاح

وبلغنا انه فى ايام قراءته على ابى زكرياء نظر اليه ذات يوم فرأى اجتهاده وحسن سياسته ، وتمسكه بخلال الخير ، فقال ان أصاب خرصى ولم تخطأ فراستى فان هذا الفتى يحيى الله به دينه . فصدق تفرس الشيخ ولم يخب ما نظر بعين البصيرة ، فبلغنا انه لما مات أبو نوح وقد عمت بركته على ابى عبد الله ، وحصل من العلوم خيرا كثيرا ، الا ان بضاعته من علم اللسان كانت مزجاة ، لم ير أن يتعاطى من العلوم حتى يحصل الكفاية من علم الفصاحة فقصد مدينة القيروان ، وأقام بها مدة يتعلم اللغة والنحو ، حتى اكتفى من علم الفصاحة فصدر عن القيروان ، وبعد ذلك دارت عليه الحلقة .

مبدأ تأسيس الحلقة

وسبب ذلك ومبدأه ان الشيخ ابا زكرياء وجه ولديه زكرياء ، ويونس ، وابن أخيه أبا بكر بن يحيى ، وغيرهم من اقاربه فى جماعة ، وقال لهم اطلبوا ابا عبد الله

فحيثما وجدتموه فلازموه ، واقرأوا عليه ، وحيثما كان فكونوا معه ولو في شغل دنياه، فخرجوا من جربة حتى اذا كانوا فى جبال تمولسة ، وكانت حينئذ ليس فيها احد من أهل الدعوة ، فانهم تغيروا ، وبدلوا الا « يصليتين » عم الفقيه ابى الربيع سليمان بن يخلف ، ونساء واطفال ، قيل ، فعدل الطلبة عنها جانبا وقصدوا الموضع المعروف « بأمدر » ، فسمع يصليتن بقدومهم وعدولهم عن موضعه فساءه ذلك ، وأقبل اليهم ، ورغب كل الرغبة ، وسأل منهم الرجوع الى « تموسلة » فلم تكن منهم اجابة ، واعتذروا بكونهم عاجلين ، وكونهم خلفوا منزله ، وانه لا يلزمه تضييفهم ، ولا تعلق به من هذا نقيصة ، فلما رأى يصليتن امتناعهم من اجابة سؤاله ، قال لهم اما ان فعلتم ما فعلتم فانى لم يبق لى ولا لمن معى رجاء يعلق به ، وسأرجع الى الموضع فآخذ بأيدى النساء والاطفال ونرجع كلنا الى أهل الخلاف . فلما سمعوا ذلك منه اجابوا سؤاله ووافقوه فى الرجوع الى تمولست فأقاموا بها لديه فى كرامات بليغة اياما ، وكلما حضر الطلبة عنده على كرامة واجتمعوا فى وقت ، حظ النساء والاطفال فقال لهم : هذا دينكم (I) وهؤلاء أهل دينكم ، كل ذلك ليتمسكوا ببعض دينهم ويكونوا على ثقة من مذهبهم ، فكانوا على ذلك حتى تيسرت لهم الطريق .

فخرجوا متوجهين الى الجهة التي يرجون ان يجدوا بها ابا عبد الله وهم فى ذلك لا يعلمون له مستقرا ، فلما وصلوا تقيوس وافق وصولهم اليها قدومه من القيروان ، وقد حصل ما كان يفتقر اليه من علم اللسان ، وهو يروم

(I) كلمة الدين تطلق لمعانى عدة ، حسب استعمالها اللغوى ، منها المذهب ، والطريقة ، والسيرة ، وما يعبد به الله .

المسير الى الشيخ ابى عمران موسى بن زكرياء «بتاجديت» ليزيد عليه ما لا بأس به من علم الفروع ، فقصرت عليهم الخطا ، وقرب الله عليهم ما كانوا يظنون انه بعيد . قالوا ما اعتقدنا الا ان الله عز وجل يسر علينا ببركة الشيخ يصليتن ، وموافقتنا اياه ، وادخالنا السرور عليه وعلى من معه . فلما ألف الله شملهم بابى عبد الله ، اعلموه بما جاءوا في طلبه ، والقوا اليه ما فارقوا عليه جزيرة جربة ، وما وصاهم عليه الشيخ ابو زكرياء ، وأكد عليهم في ان يكون ، ورغبوا اليه في ان يجلس لهم ويرتب لهم الحلقة ، فامتنع كل الامتناع . ومكثوا اياما يراودونه على ذلك ، ويلحون عليه في الطلب ، ولم تكن منه الاجابة . فلما كان يوما من الايام وهو بمسجد المنية والطلبة يكررون الرغبة الى ابى عبد الله ، اذ خرج رجل من تقيوس متوجها الى الحامة ، وخرج معه صاحب له فشيعه ، فلما افترقا نادى احدهم الآخر : ان يا فلان فاصغوا اسماعهم الى صوته . فقال له الآخر لبيك ، فقال له اجعلها لله لا تخب ، أو قال افعل فعلتك لله فلا تضيع ، قيل فلما سمعوا هذه المقالة تفاءلوا بها واقاموا بها الحجة على ابى عبد الله ، فاوجب حينئذ على نفسه واجاب ، وعطف عليهم بما سمع ، الا ان اجابته كانت على شرط ان لا يسئلوه عن مسئلة ، ولا يجيبهم حتى تمضى أربعة أشهر فتأسست الحلقة في مسجد المنية ولبثوا مدة على الحالة المشترطة ، والاقامة لم يعقدوا عليها نياتهم ، وانسداد السبيل ينقص عن الحركة عزماتهم ، فان ذلك كان في العام الذى قامت به زناتة على صنهاجة ، من ناحية طرابلس ، ويعرف ذلك العام بعام هزيمة الابراج، فكثرت الزلازل وامتلأت الارض

خوفا ، والشيخ فى اثناء ذلك يستخير الله فيما يقدمه من أموره ، حتى فتح الله عليه برأي فشــاور اصحابه فقال لهم ان هاهنا ناســا رقــاق القلوب ارجــو ان ينتجع فيهم الاسلام ، ويتلقوا ما نحن عليه بالقبول ويكونوا لهذا الخير أهلا وهم : مغراوة ريغ،فما رأيكم فى الانتقال الىجهتهم ؟ قالوا فى رأيك اليمن والبركــة ، فسروا بذلــك سرورا عظيما ، واغتبطوا أى غبطة . فلما اتفق رأيهم على الانتقال «الى ريغ» قدم ابو عبد الله رسولا الى أبى القاسم يونس ابن ويـزكن الويليلى ، وكتب اليه يعلمه بما عزم عليه هو وتلامذته من التوجه ، والعمل برسم دراسة العلوم ، واكد عليه فى ان يهيىء غارا تجتمع فيه التلامذة يأوون اليــه ويحلقون فيــه ، وتكون فيه دراستهم وانفرادهم ليتسنى عــزمهــم واجتهادهــم ، فأخــذ أبــو القاســم فى عمــل الغــار ، وفيــه ييسر ما يصلــح شــأن الحلقــة ، فما قدم ابو عبد الله وتلامذته الا وقد تيسرت أمورهــم بلطف الله عز وجل ، فاقاموا عند بني ويليل مدة ، ثــم انتقل أبو عبد الله وتلامذته الى « تِينِيْبَسْلي » فرتب بهــا الحلقة ، وشيد من كريم البنيان ما يتشبه بها العزابــة ويتشبهون به الآن ، وان كان الناس قد فسدوا ، وفســد الزمان فهذا سبب قعود الحلقة المباركة الصادرة عن اكرام مشاركة بين الشجرتين الطيبتين المسورية والبكرية بخطبة واجابة كانتا فى الله ، فتولدت بينهما هذه الانوار البهية فلنذكر لمعا من الآداب التى جعلها قوانين ، وصيرها مهيعا لسالك سبل العلم والدين ، وكان انتقال الشيخ ابى عبــد الله الى زيــغ سنة (409) تســع واربعمائة فلذلك يسمى الغار الاول المذكور التسعي نسبة الى هذه السنة .

ذكر لمع من سير الحلقة وما ينبغي لاهل طريق العزابة ان يلتزموه وان يعلموه ويعنموه مما رتبه الشيخ أبو عبد الله محمد ابن بكـر رحمه الله

كان مما رتبه أبو عبد الله من سير الحلقة فبقى رسما يقتدى به أن جعل للعزابى الذى نظمه هذا الاسم فى سلك المتدينين ، واعتزل عن دناءة الاجلاف الدنيويين علامات ، ليعرفوا بسيماهم ، ويتميزوا من سواهم .

هيئة لباس العزابة من أهل الحلقة

فمنها انه أول ما يتجرد من طريقة أهل الدنيا بحلـق شعر رأسه ثم لا يتركه يطول ابدا ، فالعزابة من شأنهـم عدم الشعور ، ومنها ان لا يلبس ثوبا مصبوغا الا البياض ولا بأس بعلم الطرفين والطراز ما لم يتفاحشا ، ثـم ان اقتصر على عباءة أو ملحفة لم يشنه ذلك ، ولم يعبه بل ذلك به أليق ، وان لبس ذلك على قميص كان أكمل ، ما لـم يكن مبتدئا ، ولا سبيل على اقتصاره عـلى قميص ، أو قميص دون اشتمال أو التحاف أو ارتداء ، وان اعتـم فالتلحى على ما جاء فى الاثر ، وليس لبس العمامة بضربة لازب ، بل لا بأس باستغنائه عنها ، فان اقتصر على العباءة أو اللحاف غطى رأسه والقى الطرف الاعلى من هدب حاشية الجانب الايمن على العاتق الايسر لا يلقى الهدب كله على العاتق الايسر ، فان ذلك مود الى انكشاف العورة .

اعضـاء الحلـقة ومهامهم

وأهل الحلقة صنفان آمر ومأمور على ما يأتى تفصيله ان شاء الله ، فالآمر اثنان : شيخ الحلقـة أو مستنابه ، والعريف ؛ فالعريف اثنان منفرد وغيرمنفرد فالمنفرد اثنان عريف أوقات الختمات والنوم ، وعريف العرفاء ، وهم من

حملة القرآن يكون منهم من يكتب عليه طلبة القـــرآن ألواحهم ، ويصححونها ويحفظونها على حسب ما يأتى بيانه فهؤلاء لا يحصون عددا ؛ والعريف على أوقات الدراسـة ربما كان واحدا وربما اكثر فهو على قدر الاحتياج اليـه ونحو ذلك ، والمأمور ثلاثة ؛ طبقة القرآن ، وطبقة فنون العلم ، والعاجزون ، ولجميعهم أوقات ، لما يختص به كل وقت منها .

المهام التى يتولاها الشيخ

– فالشيخ يتعلق به اشياء منها الجلوس لطلبة فنون العلم فى وقت معلوم ليأخذوا عنه فيه الدرس ، ومنها الجلوس بأثر الختمات للجواب على الاسئلة فى أى فن كان ، ويذاكر تلاميذه فيما حصلوه قبــل ذلك ، فيستفيدون ويستفيد من حضر ، وتختص غداة الجمعة بزيادة ذكر شىء من الوعظ ان امكن ، ومنها الاستفتاح وهو قيامه فى الثلث الأخير من الليل أو فى الربع الاخير منه فيأتى الى موضع الاستفتاح فستعيذ ويبسمل ، ويقرأ فاتحة الكتاب ، ويبتدا من حيث انتهى مجلس الاستفتاح من القرآن فى الليلة التى قبلها فيهب كل نائم فمنهم من يصير معه فى المجلس ومنهم من يخرج فيدرس وحده ، لا يخرجون باجمعهم ولا يصيرون الى المجلس باجمعهم ، بل كيفما تيسر ، فيقرأون القرآن حتى يؤذن مؤذن الصبح ، فيقطعون القراءة ويدعــون كالعادة من بعد صلاة العشاء الى وقت أذان الصبح ، ومنها ان يجمعهم فى يوم الجمع؛ وذلك يوم الاثنين والخميس ، فيعظ ويذكر ويحذر ، ويورد امثالا حكيمـــة وحكايات زهدية ، ثم يمحص جميــع من حضر فيسأل عن أحوالهم واحدا فواحدا ، ويفقد العرفاء فمن حمدت احواله حمد الله وشكره على فوزه، ومن عيب شىء من احواله فان كان

صغيرا أقيم الى زاوية معروفة بان تكون موضعا لتأديبهم ، ثم اجتهد في عدد ما يجلد تأديبا والكبير الى الخطة والهجران ومنها اذا قدم قادم من بلد قريب أو بعيد ، فلا يخلو اما أن يكون عابر سبيل أو طالبا للاقامة والدخول في زمرة أهل الحلقة فيشاور الشيخ في كلا النوعين ويستأذن في شأنهم فان كان عابر سبيل كان له حظ فيما فتح الله عليه من المأكول غير المدخر ، فيفتح ذلك ولا يحفز (1) عليه في ملازمة الاوقات ، ولاحظ له في شيء من الفتوح التي تدخر لا من طعام ولا من غيره وان كان يريد الدخول في الحلقة استأذن الشيخ في شأنه فيكشف الشيخ عن احواله ، وما كان عليه في الموضع الذى قدم منه ، فان اطلع على صلاح احواله أذن له في الدخول لا غير . فيكون من أهل الحلقة له ما لهم وعليه ما عليهم ، وان اطلع على نقيصة ، وأحوال ذميمة طرده لا غير ، وان تعذر لبعد داره الاطلاع على الاحوال أو اختلفت في صلاحه وفساده الاقوال توقف حتى يستبرىء ويستعلم حميدها من ذميمها ، وصحيح الاقوال من سقيمها ، فان اطلع على الخير الحقه بأهله ، وان اطلع على شر أفضاه الى نوعه وشكله ، وحكمه في مدة الاستبراء حكم المسافر عابر السبيل في عونه ، لاحظ له في المقتسم من الفتوحات المدخرات ، والمعين ، وكونه لا يحفز عليه ، وكونه لا يمنع المأكول فان كان تائبا مبتدا أذن له . ومنها ان عليه تولية عرفاء الاوقات والاذن له فيما يشرى أو يباع ، ويدخر من الاقوات . ومنها الاذن في قسمة ما يفتح الله من رزق مما يدخل عليهم ، أو مما هو من اغتلالات الاوقاف ،

(1) من حفزه عن الشيء : دفعه اليه واعجله .

ومتى يقسم وعلى من يقسم ، ومنها الحكم بين المختلفين والمختصمين من التلاميذ فيأخذ المظلوم من الظالم وينصف المحسن من المسيء .

المهام التى يقوم بها العريف

والعريف المكلف بالختمات وأوقات النوم يتعلق به ارتصاد حزب الغدو في المجلس الذى تكون فيه المذاكرة، فاذا كمل الحزب أو كاد دعا جميع من فى المجلس ويؤمنون على دعائهم فيدعو أسنهم ويدور الدعاء ، فان انقضى الدعاء وتخلف احد فالخطة . فاذا كان الضحى نادى بنوم الهاجرة فينامون فاذا ناموا وتكلم أحد أوتحرك بحيث يؤذى النائمين فالخطة بل ان ابى ان ينام بغير عذر وكان تركه النوم ذريعة الى امتناع القيام بالليل حتم عليه نوم القائلة ، فان امتنع فالخطة . ثم اذا كان عند غروب الشمس نادى بالختمة فيجتمعون على أكبرهم فيدور معه من يليه في السن والمعرفة رجالا ان قلوا فثلاثة ، وان كثروا فعشرة ، لايجاوزونها ، والوسط بين التحديدين اعدل . فان استداروا ذكروا الله وقرأ قارئان آيات من القرآن ثم يدور الدعاء كالعادة ، ويؤمن من خلفهم ، ومن تخلف فالخطة . ثم اذا صلواالعشاء وقرأوا من القرءآن ما يسر الله وحان وقت النوم ما لم تكن منليالى الاحياء نادى بالدعاء ، وهى ختمة ليست بأكيدة في أكثر الاقطار ، والمتعارف ان حضروها على الكفاية ، فيدعون دعاء خفيفا فاذا دعوا فالمستحب الذى وضعه الشيخ أبو عبد الله ان يكون أفصحهم بيده كتاب ان كان في الوعظ فهو أولى والا ففيما اتاح الله تعالى، فيقرأ فيه قليلا بحيث يستمعون مجتمعين أو لايجتمعون ثم يدعو وينادى بالنوم، فاذا ناموا وتكلم أحد ، أو تحرك فالخطة ، الا ان يكون فى

مطالعة كتاب بعيدا عن النائمـين فما على المحسنين مـن سبيل .

عليهم ان يلتزموا آدابا فى اكلهم

والعريف المتكفل بأوقات الطعام له حدود يقف عندها وأشياء متسع فيها ، وذلك ان الطعام لا يخلو ان يكون فى موضع مألفهم ، أو خارجا ، فما كان خارجـا لا يخلو ان يكون فى محل عزابى أو فى محل دنيوى فان كان فى محل دنيوى حفز عليهم كل الحفز فى ملازمة التحفظ وأفراط الحذر ، وجعل الشعار بينهم من القول : « حسان » وربما قال : (حسان بن ثابت) أى حسنوا آدابكم واخلاقكم ، وهى كلمة يقولونها مهما يدخل فيهم غير الصنف تحذيرا ان يطلع على ما ينتقد منهم ، وان كان فى محل عزابى لم يتحفظوا كل التحفظ بل يميلون الى ضرب مـن الادلال ، وينبسطون بعـض الانبسـاط ، ويحسنون الظنـون ، ولا يحتشمون فى اقتراح طيب الطعام أو زيادة الأدام ، ونحو ذلك ، فالمتعلق بالعريف فى كلا المجلسين أن يرتب جلوسهم فان غاب احدهم فى عذر ذكرهم بان يستوصوا غنه ، وان كان فى غير عذر فالخطة ، فاذا اعتدل جلوسهم استدعى بماء وغسلوا بعد اشتمالهم الشملة المتعارفـة عند حضور الطعام ، وهو ان يخرج طرفي ثوبه على صدره بعد أن يدير كل طرف فوق العاتق الذى يليه ، فتبـرز اليدان ولا ينكشف شىء من الجسد ، ثم يأكلون أكلا معتدلا فمن أكل أكل نهم أو أكل ذى كبر ، عيب عليه فى غير ذلك الموضع ، ونهي وقبح ، وحذر ان يعود ، فان عاد فالخطة ، فاذا طعموا تفقدهم العريف فان وجد منهم من يـده فى الطعام انتظره حتى يقضوا حاجتهم منه . فاذا فرغوا اذن بالانصات الى الدعاء ثم يؤذن اسن من حضر فيدعو وان

كان في مالفهم فلا يخلو ان يكون مما يقدر على ترويحه ومعالجته وحده ، أو مما يحتاج معينا ، فان كان مما يحتاج فيه معينا استعان بمن استحسن ، فان استعان بأحد فامتنع من غير عذر فالخطة . لكن ينبغي ان لا يخص بذلك من يعلم منه كثرة الانقطاع الى المدارسة والمطالعة ، فيضع الشيء في غير موضعه ، (وان كان) مما لا بأس بقسمته قسم على ما جرى به العرف في ذلك القطر . والذى تصلح فيـــه المواكلة فاما متكررا معلوما واما نادرا فالنادر يؤكل بلا شريطة الا اطراح الحرص والشره ، والترتيب في ذلك الى العريف والمتكرر كل يوم (كالتمر) والفاكهة في أوقاتها فترتيب ذلك أيضا الى العريف ، ولها شروط يأتى ذكرها منها ان لها وقتين ، احدهما وقت الضحى بعد استكمـــال اكتتاب الالواح ، وتصحيحها ، والآخر بعد صلاة العصر ، بقدر ما يقرأ فيه قارىء اللـــوح مرة أو مرتـــين ، فاذا استداروا طوائف فان من شروط ذلك الحضور ان يكون في كل طائفة عريف يكون أسنهم أو أنبههم لا تعدو عرافته ذلك الحال ، فيبتدىء فيلقى ثلاث مسائل في أى فن كان ثم كذلك ميامنة ثم على اليمين حتى يتم الدور ، فان وقف أحـــد أمسك المبتدىء يده ومنعه الاكـــل تأديبا وردعا وتحريضا على تحصيل الفوائد ، فان اتى بشىء قبل منـــه ولو بعد حين واطلقت يده ، ومن شأن هذيـــن الوقتين ان يتفقد العريف الالواح واذا صحح آخر لوح منها دعـــا الى الطعام ، وبعد العصر بقدر ما ذكرناه ، فمن اجاب اكـــل ومن تأخر فلا اثـــم عليه ، فانما ذلك على الاختيار الا ان يكون هناك نافلـــة فينبغى للعريف ان يعرف بها تعريفا ، لا يستخفى النطق به ، فقد يكون من العزابة من به شوق

الى تلك النافلة ، فان امتنع بعد هذا ممتنع فلا يتعلق منه بالعريف ذم .

مهام عريف الدراسة

والعرفاء من حملة القرآن ترتبط بكل واحد منهم جماعة من اصحاب الالواح ، طلبة القرآن يملي عليهم ويصحح الواحهم ، ويأخذهم بالحفظ عن ظهر ، فالجماعة التى ترتبط بكل حافظ يكون اكثرهم عشرة واقلهم اثنين وهذا بحسب الاختيار وفى الامر الاشهر العام . واما مع الضرورات وعدم الرجال فلا حد لكثرتهم ولا لقلتهم . فاذا كان وقت الضحى وتأهبوا للكتب كان لكل جماعة نقيب من أنفسهم يحفز على أصحابه ويجمعهم ، ويستدعى العريف فاذا حضر استاذنه ميامنة فى حفظ ما كتب أمس ، ثم يحفظون على اليمين فان حفظوا كلهم استاذنوه فى الاستملاء وأملى عليهم ، وان توقف أحدهم دون الحفظ ، فان كان مبتدئا أقيل له خمس عشرات ، وان كان فوقه الا انه فى أول قلم أقيل له ثلاث وان كان فى الاعادة فعشرة واحدة ، فمن زاد فعلى ما يجتهد فيه العريف ، والمعروف الاشهر انه ان كان صغيرا فالزاوية والجلد ؛ وان كان كبيرا فالخطة والطرد، فاذا ارتسم احد بعريف فليس له ان ينتقل عنه الى غيره الا باذنه ، وان تخلف احدهم بغير عذر حتى يحفظ أصحابه ويكتبوا سطرا أو بعض سطر فالتأديب قد تقدم تفصيله ، وان كان قبل ذلك وبخه العريف ثم صفح عنه وعليه ان يختبرهم احسانا فيما قد حفظوه ليعلم كنه اشتغالهم ورغبتهم واجتهادهم ، فان وجد حفظا ركيكا فان كان ذلك لعلة فى فهم التلميذ وضيق باعه ، وعلم ان ذلك الامر كان سماويا عذره، وأمره بالاعادة، وان كان التلميذ ذكيا فهما وعلم أن كان لحب البطالة وترك الدراسة اجتهد

فى تعزيره ، ولذلك يسأله الشيخ حين التمحيص يـــوم الاجتماع فـــلا ينبغى له ان يقول الا ما علم من حال كل واحد منهم .

واما عرفاء أوقات الدراسة فيتفقدون أصحاب الالواح بين الظهر والعصر فان ابطأ احدهم ابطاء لا يعـــذر فيـه فالخطة ، وان اشتغل بما يلهيه عن قراءة لوحه فالخطة ، وان سمعه العريف يقرأ خطأ وكان مـع ذلك لاهم له بتصحيح لوحه فالخطة ، وبين المغرب والعشاء ، فان ابطـأ او غـاب أو اشتغل بما يلهيه أو بشغل سواه فالخطة ، وان قام الى الطعام اختيارا أو الى نجوى فالخطة ، ووقت الاستفتاح ان نام او تناوم او اشتغل بغـير الدراسة ولم يكن له عـــذر فالخطة ، وبين صلاة الجمعة والعصر ان غاب عـن الحضور لاستماع قراءة كتاب المواعظ فالخطة . وقد قلنا الا ثلاثة على ما فعلنا فطلبة القرآن يقرأون الواحهم بين الظهــــر والعصر حتمـا . وبعد العصر استحبابا ، وصفة هيئتهم حينئذ ان يشتملوا فلا يظهروا من اجسادهم شيئا ويسندوا الواحهم الى الاساطـين ، ويقابلونها غـــير مستندين ولا مكثرين من الالتفات ، وبين العشاءين فى وسط الساحة غير مستندين ، وقد أبيح لهم الاستناد في غير هذين الوقتين ان شاءوا . والافضل للاصغرين تـــرك الاستناد ، فـلا يتعرضون الى ما ليس بشأنهم ، غير دراسة القرآن الا ما قد عناهم من العبادة وفرائض الاسلام ، كالطهارات والصلاة والصيام ، وما اشبه ذلك . فان امتدوا الى غير ذلك كـره مشى الغراب مع الحمام على انه من كان ذافهم وقلب ذكي ، ومن اعطاه الله قدرة على تحصيل هذا وهذا فـلا باس في الازدياد من الخير .

واما طلبة الادب فان اتفق ان يكـون اصحاب لويحات وصغر في السن فينبغى لهم التأسى بطلبة القرآن فى ترك الاستناد ، واما أصحاب الكتـب فشأنهم استناد الى اركان المسـجد والابواب والى الاساطـين وحيث يستحسن ، واستحسن منهم ولهـم ان يجتمعوا للبحث والمذاكـرة والمناظرة ، ما لم تفض الى توغير الصدور ، ويكون هـذا دأبهم ، ولا بد ان يكون لهم وقت معتاد يكون فيه الميعاد للحضور على الاساتيذ ، ويؤدب من غاب من التلاميذ فيآخذ كل منهم درسه وهى «دولته» على استاذه . ويجعل ما يتلقاه خير ملاذه ومعاذه ، ثم اذا كانت ختمة غداة وحضر الشيخ فان هنالك طرقا كلها حميدة ، وذلك انهم اما ان يتداولوا وضع السؤال فيبتدئون بالسؤال يوما (I) فمن أفضى اليه النوبة وغاب اجتهد فيه ، واما ان يسأل أفصحهم لسانا واكثرهم بيانا . واما ان يسـأل اشدهم احتياجا للسراح فى ضرورة دعت ، أو لنازلة وقعت ، ثم اذا ألـقى السؤال فان كان الجمع حفيلا بدأ فسأل الشيخ ثم على من يمينـه فيعيده الثانى الى الشيخ طلبـا للتخفيف ، والاختصار . وان كان الجمع دون احتفال بينهم سيما ان كانوا لمأثل فانه يدير السؤال أو يحيل كل سائل على ميامنه حتى يـدور السؤال الى الشيخ . فان علم الشيخ ان فى الجمـع أكفى منه فى تلك المسألة أذن له فى الكلام فيها ، والا تكلم بما عنده. وللسائل ان ينبهه اذا غفل ويذكره اذا نسي، ويفتح له ان ارتج عليه ، ويعترض ان احتاج الى زيادة ايضاح . أو علم من الحاضرين ارادة استزادة كشف ، ثم يسأل كذلك من شاء ويبحث كيف شاء . ومن أراد القيام فلا يقوم حتى

(I) كذا بالنسخ والصواب ميامنة

يستاذن من يليه ، فان اذن له قام ، وان لم ياذن له أقام .
واذا حضر غير الصنف فيكره ادارة ما يستشنع من المسائل
الشؤاذ ، التى تضل الغبي : أو تجعلـه ينسب الرشد الى
الغي ، فاذا هم الشيخ بالقيام ولـم يستثقل تشييع مـن
يختص به من طلبته ركع وركع اصحابه ركعات الضحى ،
ويشيعوه تكرما له وتأنيسا به ، وان ثقل عليه ذلك ركع
وركعوا وو دعوه ولم يشيعوه .

القاصرون من التلاميذ ـ واما العاجزون فأنواع فاللـه حسيبهم فيعاقبهم ، أو
يثيبهم . فمنهـم الطرش والعميان والزمنى والهارمون
وذوو الافهام القاصرة ، وربما استعمل مستعمل فألحق
نفسه بهؤلاء وفيه قدرة وعنده لو جد بعض الغناء ، فهذه
الانـواع شانهم الاصغاء والاستماع ليحصلوا الطـرق
والاخلاق ، ويظهروا التلهف والاشتياق ، وعليهم حفـظ
السيارات والمحافظة على الطـرق والاوقات ، وان اجهدوا
انفسهم وزادوا ظفـروا ببعض ما ارادوا ، فاما الزمنى
والعميان فقد نطق بعذرهم القرآن واما القاصرو الفهوم
فمنهم القانط التارك للعلـوم ، ومنهم مـن الأياس عنده
معدوم ، وقد شاهدت منهم رجالا فلم اذمهم لاكثرهم حالا.
دخلت حلقة وارجلان حرسها الله وذلك فى ربيع الاخـر
سنة 616 ست عشرة وستمائة فى أول ما وجب علي الصوم
والبال خال من الهم ، وكنت اعجب ممن ينفرد فلا يجتهد ،
ممن يمكنه الورود فلا يرد ، ومن يخلـو بالمفيد ، كيـف
لا يستفيد . وكان لى اذ ذاك فهم بزة الى ان اشتغل البال ،
وتحولت الاحوال، وكنت ازدرى بأكثر اولائك وذلك لسنى
فاستغفر الله من ذلك ، فمنهم رجل يسمى ابو دوناس من
بعض قراء نفزاوة سبقنى الى الحلقة باعوام والغالب على

ظنى انى وجدت لوحه فى سورة الفيل ومات فى سنة سبع عشرة ولم يستكمل سورة اخرى ، ولم يدع من قدرته شيئا وهل سمعتم بابى يزمر المصعبى كنت اسمع به قبل دخولى وارجلان وما رزق من الاجتهاد مع فهم غير قليل ، فوجدته فى وارجلان وفى لوحه « أو أمر بالتقوى » يكررها اياما كثيرة حينئذ ترسخ فى صــــدره آية او لا ترسخ فيعيدها وأقمت بوارجلان حرسها الله حولين كاملين وشهرين ثــم انفصلت وتركت لوحه فى « والضحى والليل اذا سجى » وهو فى اثناء ذلك لم يال جهدا ، وقد سبقنى الى الحلقـــة بستة أعوام أو بثمانية أعـوام لشك منى ، وهل سمعت بسلمان بن حريز لم يزل يكرر ويعيد سورة الانبياء طول اقامتى بوارجلان ، وخرجت وتركت لوحه فيها ، وبلغنى انه لم يزل كذلك يكررها منذ ثمان وعشرين سنة قبل ذلك فاما هــذا ففـير بعيد أن ينسب الى التقصير والتضييع ، والغرض ان اعلمكم ان من لم يال جهدا فهو ما جور وان لم يحصل، وان المتضيع المفرط راض لنفسه بالقوت الحرام واكتساب الآثام ، ومرتكب لسخط العلام ، نسأل الله ان يسلمنا ويختم لنا بخواتم الاسلام ، وينبغى ان تكون خدمة الطعام من هؤلاء الذين لم يفتح الله عليهم ، ولا شرح للعلم صدورهم ، لينفعهم بخدمة اهل الخير ، ويوفيهم اجورهم .

ادب العزابة والطلاب فى العبادة

— «الاوقات والآداب والاحوال قد تقدم ذكر كثـير منها فيما مضى مندرجا فى غـــيره» فاوقات الدراسة قد مضى ذكرها ، ووقت الراحة والتصرف هو آخر النهار ، يتصرف الى المواضع التى لا ينكر التصرف فيها كمواضع الميـــاه ومواضع الاشجار وامثالها من الاماكن التى تنفــرج فيها النفوس وتنفسح فيها الصـــدور ، فان فى ذلك اجماعا

للخواطر ، وجلاء للنواظر ، فلا بأس في ذلك ما لم تكـــن
هذه الاماكن معروفة بان يستقر فيهـــا مصادف الشبهات ،
كالنساء والمساسات فلا سبيل حينئذ اليها ، والاكثار من
التصرف في الطرقات والاسواق يكـــره وان دعت ضرورة
ففي طريق نافذ ، ووقت لا يظن به ريبة ، ووقت الاكـــل
لمعاشهم التي تختص بكل واحد منهم اذا صلى العتمة فامـــا
وحـــده واما مع من توافـــق طبائعهم طبعه ، ويشترط
التخفيف وان لا ينفصل الا بعد الدعاء . ووقت تغيـــير
المنكر متى ظهر لا ينحصر الى وقت ، ويشترط تقدم الشيخ
أو باذنه ، أو تقدم الامثل. والاوقات المستحب فيها التأهب
للصلاة معروفة وهو ان يكون بمقدار ما يستبرىءويتوضأ
ثم يدرك صلاة الجماعة. ويشترط بعد الاثر واعداد المدر،
وأوقات نوافل الصـــلاة ليلا ونهارا معروفة فلا يحتاج الى
زيادة ، فان احتيج فخمس تسليمات بالليل ومثلها ضحى،
هذا الافضل فان زدت فلك ، وان نقصت فلا ذنب عليك ،
ولصلاة الليل شروط من اطالة القرآن والخلف في اسرارها
واعلانها ، قيل الاعلان أفضل اذ فيه ايقاظ الناس وقيـــل
الاسرار أفضـــل لبعده من رياء المخلوقين ، وهذا بحسب
الاحوال. والاولى اخفاء العبادات . والركعات التي تصحب
الفرائض معلومة وأوقات الصوم المستحب كيوم الجمعة ،
ويوم قبله ، وتاسع ذى الحجة ، ويوم عاشوراء والثلاثـــة
البيض من كل شهر وما شـــبه ذلك ، ومن آداب الطريق
واحوالهم ان لا يتكبر على متواضع ولا يتواضع لمتكبـــر ،
ولا يخالط أهل الدنيا ولا يجالسهم الا ان دعـــت ضرورة
لا يوجد منها بد، ويجلسون لكي يستفيدوا مصلحة لدينهم
من علم أو عمل ، والكبير أعذر في مخالطتهم من الحدث ،

فان الكبير أهل لأن يهديهم والحدث أهل لان يضل . ومن نهى عن الاكثار من ذلك فلم ينته فالخطة . وينبغى ان يعلم ان المؤاخذة على العثرات والزام الذنب على الخطيئات انما هى بحسب أصحابها وهم طبقات ، فالكبير المبتهل حسن به الظن ، وحسن معه العبارة ، وأدمج له تفسيح زلته فى اللطف قوبل باللطف اشارة (I) ، ومن دونه فان كان فى الطريق راسخ القدم وشامخ القدر أخذته على الكبيرة والصغيرة واستعظمت نقيره من الخطايا وقطميره ، وان يكن غير ذلك تجاف عن النقير والقطمير ، واستكثرت من حسناته الشيء الحقير ، وسلكت معه مسلك التأنيس لا التنفير ، فرب قبيح من ذلك هو من هذا حسن . وكثيرا ما رأيت المشائخ يشبهون الصنفين بالماء واللبن ، ومما ينبغى لشيخ الحلقة ان يتفقد أحوال التلاميذ ، فمن كان منهم موسرا نظر له فيمن يخدم ما يقتات به من الطعام ، ومن كان مقترا نظر له فيمن يتبرع له بالخدمة والاطعام ، ولو استقصينا ذكر جميع الحدود وقع السأم دون بلوغ الغاية وفيما ذكرناه كفاية ان شاء الله .

ومن أخبار الشيخ ابى عبد الله رحمه الله :

خروج ابى عبد الله سنويا الى مزاب

ما بلغنا ان ابا عبد الله كان يخرج للحلقة فى اوان الربيع الى بوادى بنى مصعب لمآرب ، منها انه كان يطلب بذلك راحة خاطره وخواطر التلاميذ ، واستصلاحها ، وتدبير قوى اجسادهم واستصلاحها ، فانه علم ما فى بلاد ريغ من رداءة الهواء وقلة طيب الماء ، وأيضا فان بنى مصعب كانوا واصلية فعمت عليهم بركته ، فرجعوا الى دين الحق ، والطريقة المرضية ، وذلك كان اكثر قصده فى

(I) كذا فى النسخ ، ويظهر فى العبارة خلل .

انتجاعهم وحلول رباعهم ، وكان يبين لهم طرقا يتبعونها ويضرب لهم أمثالا حسنة يعملونها .

ذكر ان سائلا منهم ساله ما تقول فى حلال خالطه الحرام أيوكل منه ؟ قال ما ترى فى جحر دخله جربوع ودخلته حية كلاهما بمرأى منك ، أتدخل فيه يدك طلبا للجربوع ؟ قال لا افعل ، مخافة الحية ، قال وكذلك ما سألت عنه ، وله معهم انواع من هذه الاجوبة .

توجهه الى قسطيلية

وبلغنا ان أبا عبد الله توجه الى قسطيلية فى جماعة من أصحابه فاجتمعت عليه جموع من الناس واشتهر ذكره حتى خاف ان يقال انما يحاول أمرا ، من قيام أو نحو ذلك ، وكان حينئذ عازما على المسير الى ناحية طرابلس فلما رأى من الامر ما يفضى الى المكروه وكان أهل الموضع على غفلة ، أمر بعض اصحابه بان يخرج البغلة من طريق ، وأمر آخر أن يخرج السرج من طريق ثم خرج هو من طريق آخر. وخرج أصحابه متوافقين من أبواب شتى وسلكوا طرقا شتى حتى اجتمعوا فى مكان تواعدوا على ان يجتمعوا فيه ، فشدوا سرج البغلة فركب الشيخ وسار ومن معه من أصحابه حتى صاروا بقرب تملوسة ، فاذا بالفقيه أبى الربيع سليمان بن يخلف ،

احتفاء اهل تملوست بابى عبد الله

ومحمد بن عيسى بن ابراهيم الهوارى قادمين من البادية ، من موضع يقال له (أضريكم) ولهما به أهل وأنعام ، وذلك فى فصل الربيع ، فلما كانا قريبا من البلد تأملا السيارة فعرفوا بغلة الشيخ ، فما كاد أن قصداه مسرعين ، فصافحاه وصافحا اصحابه ، وفيهم عيسى بن ابراهيم والد محمد بن عيسى المذكور ، فمالا بهم الى حيث اهلوهما نازلون فاحتفلا فى ضيافتهم ، فدخل اهل الحي سرور

عظيم بحلول هذه البركة فيهم ، فلما اكتفوا مـن الطعام ، وصلوا،أطاف التلامذة بالشيخ وأطاف بهأهل الحي يسألون عن مسائل دينهم، حتى مضى وقت من الليل وقضوا حاجتهم من السؤال والجواب ، وغلب عليهم النوم ، فتفرق مجلس الرجال واجتمعت نسوة الحي فاطفن بالشيخ يسألنه كما كان الرجـال يسألونه ، والشيخ يجيب ، قيل وكان فى النسوة امرأة تسمى أم اليخت ، تنتحل قراءة الكتب وطلب مسائل الفقه ، وتجيد السؤال ، ومعها أخت لها قريب منها فى هذا المعنى فما برحتا وصاحبتاهما يسألن الشيخ ، وهو تارة يتكلم فى الفقه ، وتارة يتكلم فى المواعظ حتى طلع الفجر ، ولم يكل الشيخ عن الجواب ولا غشيه نـوم . ذلك فضل الله يوتيه من يشاء ، فقالت حينئذ لابى الربيع وهى ابنة خاله لاجل هذه الفوائد طالت غيبتك عنا يـا سليمان تعنى ملازمته شيخه أبا عبد الله اذ كان يقرأ عليه . ولما جـاء تكتيس بن سيد سلم على الشيخ وصافحه ، فسـأل الشيخ من هذا فعرف انه تكتيس وكان تكتيس حينئذ قد تحولت صفته مما كان يعرف منها الشيخ ، فقال أهـو صاحبنا قبل هذا ؟ فقال وانا صاحبكم الى الآن . فقال نعم لكن أنت فى واد ونحن فى واد ، قيل ثم تقدم أبو الربيع وتكتيس الى لماية يبشرونهم بقـدوم الشيخ وأصحابـه فبشرهم . وتأهب المشائخ من لماية وغيرهم للمسير ليتلقوا الشيخ وأصحابه ، فساروا وفيهم الشيخان ابو محمد عبد الله بن الامير وأبـو محمد وارسفلاس بن مهدى ، وكان وارسفلاس عالما كبيرا ، فكان الشيخ فى مدة اجتماعهم اذا سئل عن مسألة أحال على عبد الله بن الامير ، وكان قليل الجوابوذلك بمحضرالشيخ هيبة له،فيقول له وارسفلاس :

أجب الناس يا شيخ فليس لك عند أبي محمد جواب ، وكان الشيخ يجيب عن المسائل . ولما دخلوا جربة أسرع الشيخ حتى قدم المسجد الكبير على بني يراسن فصافحهم ، واقام فيهم ما شاء الله ، ولم يزل كل من هنالك بين مفيد ومستفيد ، حتى عزم الشيخ على الرحيل ولما اراد الخروج مسافرا قربت اليه دابته ليركب فابتدر الناس ركابه ليمسكوه له وابتدر صالح بن أبي صالح ليمسك ركابه ، فأبوا عليه ، وقال لهم الشيخ دعوه فأمسك ركابه حتى ركب ، وتذكر عند ذلك أيام شبابه وخدمته حينئذ لمشائخه وبره اياهم وما كان يجد لذلك من لذة وارتياح ، فتمثل بقول الشاعر :

لله أيام الشباب وعصره
ولو استعير جديدها فيعار

ما كان أقصر ليلها ونهارها
وكذاك أيام الشباب قصار

قيل ، ولما خرج من الجزيرة وكان طريقة «بتبا جالت» اجتازوا على الشيخ عمروس فأنزلهم للضيافة ، فنزلوا ، فذبح لهم شاتين من أحسن ما يمكن ان يكون ، ولما حضر الطعام جعل احد التلامذة يختار للشيخ أطيب اللحم ، وأسمنه فنظر الشيخ الى سمن ذلك اللحم ، وقال كيف يكون قلب من يأكل هذا من ماله ؟ فكيف من مال غيره .

ثم كر راجعا الى جهة ريغ ورجع معه أصحابه وكلهم لا يعدو موافقة قلب الشيخ . فبلغنا ان عبد الله بن الامير قال حينئذ: عجبا لهذا الشيخ وأصحابه انما مثلهم كمثل الحواريين لعيسى بن مريم ، وبلغنا ان أبا عبد الله توجه

الى وارجلان فدخل على الشيخ ابى عبد الله محمد السدراتي الذى كان أهل وارجلان قلدوه أموره قبل . دخل عليه وقد كبر وتنحى عن أمورهم ، ولزم بيته ، فقال السدراتي للبكرى (1) يا محمد ألستم تقولون خير الرعاة راع ساوى بين القوية والعجفاء من غنمه ؟ فسكت عنه فقال السدراتي أو الستم تقولون ان الناس يصطحبون على المكروه لئلا يفترقوا ؟ فقال له ففيم ، أفى امور الدنيا أم فى أمور الدين ، أم مطلقا ؟ فقال له السدراتي الى هاهنا انتهى علمى ، وليس عندى زيادة ، فما عندك انت ؟ قال انما ذلك فى أمور الدنيا كنزول المسافرين ورحيلهم ، وحسن المعاشرة وسيئها ، وصغائر الهفوات ، وأما فى أمور الدين فلا ، ولو كان يسع ذلك فى أمور الدين لما فارق السلف ولاتهم ، ان فارقوهم فى الدين حتى اسرعوا بانفسهم الى الموت ، فماتوا فى مواطن شتى ، كاصحاب ابن وهب وأصحاب ابى بلال ، وعبد الله بن يحيى الكندى والمختار بن عوف وغيرهم ، انما ماتوا اذ لم يروا المقام والصبر على يأتون وهم يأبونه ، رحمة الله عليهم أجمعين ، ثم قال له الشيخ لا تركن الى كثير ممن يدخل عليك فانهم يقولون عليك ما لا تقول ، فقال له من أتانى زائرا فاجره على الله ، ومن قال على ما لم اقل فحسابه على الله . قلت انما اوردت هذه الحكاية فى هذا الموضع لما ذكر فيها الشيخ أبو عبد الله رحمه الله فى الصبر والمعاشرة على المكروه ، وما تبين فيها من الفرق بين المكروهين وقوله انما ذلك فى أمور الدنيا واما أمور الدين فلا ، لا أقول انه الآن قال مطلقا ، بل على حسب الاستطاعة ومصداق

لايسع السكوت عن الباطل خوفا من التفرقة

---

(1) يعنى ابا عبد الله محمد بن بكر .

قولی قد مضی برهانـــه فيما تقدم من اخبار الشيخين ابی خزر وأبی نوح فی هذا الكتاب لما لم تبلغ بهما الاستطاعة الى أكثر من بذلهما الطاعة لمن يدينان بالبراءة منه لينالا المعافاة فی أنفسهما ، وينالاها من وراءهما ، فوجدناهما قد عاشرا الشيعة وصبرا على المكروه فی الدين تقية ، ثم معاذ الله ان أجعل هذا التشبيه تزييفا لقول الشيخ رحمه الله ولا انه جهـل هذا او اغفله ولعله أومأ اليه حينئذ فنسيه الحاكی عنه ، أو ضرب عنه .

ورع الشيخ واخلاقه الكـريمة

ومما يذكر من نزاهته ما بلغنا انه ولد له مولود فسر الناس بذلك قريبا وبعيدا ، وهمـــوا باهداء الهـــدايا والاحتفال بالولائم ، فمنعهم عن ذلك ونهاهم عنه ، فانتهوا مراقبة له . فقالت امرأة أبی القاسم يونس بـن ويزكن . أو نحن أيضا يا شيخ تمنعنا عمـا منعت الناس وتقيسنا بغيرنا ؟ وتكلمت كلام مدل بالاخوة مات بالصداقة القديمة فقال : والله لا أجد يدی هی العليا فأردها هی السـفلی . يريد قوله صلى الله عليه وسلم : (اليد العليا خير من السفلى) أی المعطی والمعطى وهو مفسر فی الحديث. ونحو ذلك ما ذكر محبوب بن أبی عبد الله السدراتی ان الشيخ ابا عبد الله وصل ايفران من قری وارجلان ومعه أصحابه ، فاهتبلوا بتضييفهم ، فلما حضر الطعام وقربت الموائد نظر الشيخ فرأى على المائدة التی قدمت اليه زيادة اختص بها ايثـارا فحدثته نفسه ان غيره ممن حضر على تلـك الاطعمة ربما قصر فی حقه عن ذلك ، وكانت الجفنة التی قربت للشيخ عليها ورك شاة ، فقال الشيخ لبعض من يليه تأمل الجفان لترى هل هی كهذه أم لا ، فتأمل فاعلمه انها دونها وليس فيها مثلها ، ولا قريب منها ، فنهض الشيخ عن الطعـــام

وانصرف ولم يأكله ، ونحو ذلك ما بلغنا انه قدم (تين ابى مطوس) فاهديت له لفائف وجمار ، فرد اللفائف وقال ما نحن والهدايا ، فرجع ذلك الى مهديه ، واما الجمار فأكله ومن ذلك انه وجه محبوبا وابا بكر بن محمد من (تين يسلى) الى وارجلان حرسها الله ليشتريا له آمة فلما ساماها من بائعها وعلم انها للشيخ ابى عبد الله حط عنهما من الثمن خمسة دنانير ، فقدما بالآمة الى الشيخ فاعلماه بما كان من بائعها فلم يأخذها ، وأمر بردها تحرجا وعفة . وأخبار ما يؤثر من كراماته سيأتى ذكرها فى المناقب ان شاء الله فذلك موضعها ، فلذلك لم اضعها هنا والله أعلم.

(ذكر شيء من اخبار نجباء تلامذته)

زكرياء ويونس ابنا ابى زكرياء فصيل

وان كانوا كلهم نجباء فضلاء أخيارا ما منهم الا من عمت عليه بركته ، وأينعت فى العلوم ثمرته ، ولكن نذكر هنا من حاز قصب السبق وكان عليه الاعتماد فى الفتق والرتق ، وكان له الاثر الكريم ، واستحقاق درجة التقديم ، فمنهم زكرياء ويونس ابنا الشيخ ابى زكرياء رحمهم الله كان زكرياء ويونس من أفضل أهل زمانهما علما وورعا وخلقا وكرما ، وكانا قد قرءا على الشيخ أبى عبد الله حتى برعا فلهما اخبار مأثورة فى كل فن ، نذكر منها ما تيسر .

ومنها ما بلغنا انهما توجها الى الحج ، فلما كانا ببعض الطريق وقد أضربهما السير ولواهما السفر نام زكرياء فتخلف عن الرفقة ، فلما انتبه من نومه وجد نفسه فى بيداء منقطعا عن الركب ، فدعا الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء.فقال : (اللهم يا صاحب كل غريب.ويا مؤنس كل

وحيد . ويا قريبا غير بعيد . اجعل لى من سفرى هذا فرجا ومخرجا) . ثم رفع رأسه فنظر ، فاذا عمود من نور ساطع فى الهواء فيتممه فسار نحوه حتى أدرك الركب فوجـــد اصحابه متحيرة خواطرهم ، ذاهلة قلوبهم ، ذاهبة عقولهم من اجله ، فذهب عنهم ما كانوا فيه من القلق ، ونـــام يونس مرة أخرى فى طريقهما ذلك فما استيقظ الا وقد فاته اصحابه فسار فى اثر الركب فمر بجماعة من أهـــل الركب قد كانوا غشيهم النوم وتخلفوا ، فوجد فى نفسه قوة ونشاطا لم يجده فيهم فخلفهم ، فسار مجدا فلم يــزل يخلف أواخر الركب ناسا بعد ناس حتى من برجل قـــد أدركه العياء فتخلف عن أصحابه ، وقـــد ورمت قدمـــاه وانتفخت رجلاه ، واشرف على الهلاك وقنط من الحياة ، ومعه صرة فيها دنانير فنظر الى يونس فتوسم به الخير، فقال له انه قد أصابنى ما ترى ، ومعى هذه الصرة فخذهـــا . فانت أولى بها من غيرك ، فتناولها من يده وسار حتى لحق باصحابه ، ثم ان أهل الركب نزلوا فلم يزل صاحب الصرة يتبع الاثر يمشى ساعة ويستريح أخرى حتى لحق بالركب فبات ، فلما ارتحل الركب وارتحل الرجل ووجد فى نفسه قوة تذكر صرته فجعل يتأمل الناس ويـــردد بصره فى وجوههم ، ويكشف عن خبر صرته ، ويبحث فنظر اليـــه يونس فعرفه ، واذا هو قد ضمر وتغير لونه وتحول جسمه فقال له ما بالك ؟ فقال له من قصتي كيت وكيت ، فقال له يـــونس : أعطيتـــه اياها هبـــة أم أخـــذها منـــك غصبـــا ؟ فقـــال بـــل اعطيتـــه اياها هبـــة ، قـــال أتعرفـــه ؟ قـــال لا الا انـــه جســـيم طـــويل مثلـــك فقال له أتعرف الصرة اذا رأيتها ؟ قال نعم ، فاخرج اليه

الصرة فدفعها اليه وجعل يرفع صوته يقول : والله ما هو الا مسلم ، يكررها ، وباتا ليلة فى طريقهما تلك وقد اشتمل زكرياء على سيوفهما فغشيتهم السلابة فانتهبوا فصاح يونس بأخيه ان تناولنى السيف ، فناداه مرارا فلم يجبه فوضع يونس يده بين رجلى زكرياء فامكنه الله من قائم السيف فسله وقام يدافع عن نفسه وماله فضرب الذى قابله من السلابة بالسيف وقده نصفين فلم يتجرىء عليه احد منهم ، وبلغنا ان الشيخ ابا القاسم يونس هذا قد كان عود نفسه القيام بالليل للتجهد فى المسجد الكبير، وكان منزله بعيدا من المسجد ، فخرج من منزله ذات ليلة يريد المسجد فمر على مقبرة فى طريقه فأحس خلفه حسا ، فالتفت فاذا صورة لا يعرفها فاقشعر جلده ، ثم مضى ولم يكثرت فلما قرب من المقبرة ناداه ذلك الشخص يا ابا القاسم الى متى ننتظرك ، ولم تاتنا ، فمضى الى المسجد الكبير باكيا حازنا ولما وصل المسجد أخذ فى الصلاة ، كما كان يفعل قبل ذلك ، الى ان طلع الفجر فصلى الصبح وتقدم الى الحلقة ، فلما اخذوا فى القراءة أخذ يقرأ معهم والدموع تسيل على خديه ، وعلى لحيته ، حتى طلعت الشمس ، فلما ختموا سأله بعض من معه فى الحلقة فاخبرهم بالقصة وقال لهم ما اظن اجلى الا قد اقترب . فأخذ فى تنفيذ وصيته ووداع اخوانه ولم يعش الا اياما يسيرة رحمة الله عليه .

«ومنهم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتى رحمه الله»

ابو الربيع سليمان بن يخلف

كان ابو الربيع قد قرأ على الشيخ ابى على ، واتقن عليه علم الاصول ، والنظر ، وبلغ فى ذلك مبلغا عظيما ، ثم انتقل الى جربة ليقرأ بها علم الفروع على فقهاء بنى يراسن

أبى محمد ويسلان بن ابى صالح وابى زكرياء وزكرياء ويونس ، وأبو بكر بن يحيى فوافاهم فى وقت اشتغالهم باسباب لا يجدون بدا من مباشرتها ، ثم قالوا فيما بينهم لا ينبغى لنا ان ندع مثل هذا وحده ، عاطلا من القراءة وقد علمنا انه قاصد الينا ، وعلمنا فيما قصد لكن نقعد له يوما بعد يوم . فلا هو يتعطل ، ولا أشغالنا ، فاذا تفرغت اشغالنا تفرغنا لصاحبنا . فصار يقرأ عليهم يوما يوما فكان على خير ، واستفاد حتى تفرغوا . واجتمع التلامذة وقصدوا ابا محمد ويسلان ورغبوا اليه فى ان يجلس لهم ليقرأوا عليه الفروع ، وسألوه ان يرتبوا عليه الحلقة ، فاجاب ، وجلس لهم ، وكانوا يقرأون عليه الفقه فلما ترتبت الحلقة كثرت الطلبة ، وجلهم ممن تقدمت له قراءة علم الاصول والنظر على الشيخ ابى عبد الله محمد ابن بكر.وانما انتجعوا جربة لقراءة الفروع كأبى الربيع المذكور ويعقوب بن يعدل ومصالة بن يحيى وغيرهم ، واجتمع أيضا تلامذة من بلاد شتى يريدون علم الكلام ، وكانوا يأخذون الدرس على ابن الشيخ ابى زكرياء ، وعلى ابى بكر بن يحيى ، وكان طلبة علم الكلام ناحية عن طلبة علم الفقه ، وتسامع الناس فى الجهات بجلوس حلقتين ، فجاءوا من كل مكان رغبة فى العلم فكثر طلبة علم الكلام فرغب مشائخ بني يراسن الى تلامذة أبى عبد الله المذكورين أبى الربيع وأصحابه فى الجلوس لاقراء طلبة علم الكلام، فقالوا لهم انما جئنا لنتعلم الفروع ، فكيف نعلم غيرنا الاصول ؟ .

اعتناء ابى الربيع بطلبته

وكان ابو الربيع تنصل من مخالفة الشيوخ فلما رجع الجواب بهذا الى الشيوخ قالوا للطلبة جدوا واجتهدوا والله

معينكم ، ويمثل لهم بقول القائل : ان لم يخفرونى فسيخفرونى ، فأخذوا فى الاجتهاد فلم يعدموا من شيوخ بنى يراسن معونة على طلب العلم بالافادة ورفع الكلف والمؤونة . وكان جلوس هاتين الحلقتين بالموضع المعروف «يأتيجان» من الجزيرة وهناك شجرتان من الخروب عظيمتان فكان جلوس طلبة الفقه عند الشجرة القبلية منهما وطلبة الاصول عند الجوفية ، فاقاموا على هذا مدة ، ثم انتقلوا بجملتهم الى المسجد الكبير ، لما كثر طلبة علم الكلام ، فلما رأى أبو محمد ويسلان قلة عدد التلامذة الذين يقرأون عليه الفروع انتقل بهم الى بيته قبالة المسجد الكبير ، فكانوا يأخذون الدرس هناك، ثم انتقل ابو الربيع بتلاميذه الذين يقرأون علم الكلام الى موضعه « بتمولسة » وكانوا هناك فى عريش عملوه عند عيون تمولسة ، فكثروا واجتهدوا وحسنت احوالهم ، وكانت زنزفة ، ولماية ، ومزاتة ، ومما حولهم من القبائل يبذلون الجهد فى معونة الطلبة بالهدايا ، والتحف ، والعطاء واللطف ، فكانوا فى أبر حال الا انهم لحقهم خوف من العرب ، فان الموضع الذى هم به هو ممر لاعراب اذا رحلوا من طرابلس الى افريقية أو متى رجعوا . والطلبة بهذا فى حذر ، فبلغ الشيخ أبا القاسم يونس بن زكرياء ما هم فيه من الخوف ، فقال نحن فى أمان وسليمان واصحابه فى خوف ؟ فوجه اليهم رسولا يعلمهم بانه يحجر عليهم المقام بذلك الموضع فلم يسعه المقام مع نهي الشيخ ، فتفرقوا فى بلاد لماية وزنزفة ، ثم اجتمعوا على شيخهم بعد ذلك ، فقصد بهم جبل زنزفة ويعرف بقلعة أبى على ، وكان اجتماعهم للدرس فى غار هناك ، ثم كثر الطلبة فضاق عليهم الغار ،

ابو الربيع سليمان يؤلف كتابا فى الاصول

فانتقلت منهم جماعة الى غار آخر ، فكان الشيخ ليلة عند هؤلاء وليلة عند هؤلاء ، حتى استفادوا خيرا كثيرا ، والذى صح من اخبار أبى الربيع انه لم يتصدر حتى تبصر فى الفقه ، فحينئذ جلس للحلقة ، قيل ثم ان ابا الربيع وتلامذته ومن هناك من المشائخ أرادوا زيارة أهل الدعوة ليفيدوا ويستفيدوا ، وسيأتي ذكر الزيارة بعد هذا مستقصيا ان شاء الله تعالى ، وكانت سنة الزيارة سنة 449 تسع واربعين واربعمائة فلما رجعوا الى جبل زنزفة ، ولم يبق مع ابى الربيع الا تلامذته انتقل بهم الى تمولسة ثم انتقلوا الى الجبل ، فكانوا فى اجتهاد عظيم .

...

ثم ان التلامذة رغبوا الى ابى الربيع ان يؤلف لهم كتابا في علم الاصول ليرووه عنه ، فامتنع كل الامتناع وكرروا الرغبة حتى اجاب على كره ، وذكر ان ابراهيم بن ابراهيم وكان أحد تلامذته رأى فى منامه انه واصحابه نظروا بطن ابى الربيع واستخرجوا منه قطعتين مملوءتين عسلا ، فهاله ما رأى وخاف ان يكون ذلك مكروها ينال منهم شيخهم ، فدخل مدينة قابس فسأل عن منامه رجلا مشهورا بانه يعبر الرؤياء فقال ان كان الرجل ذا مال فمال يؤخذ منه كرها ، قال ليس بذى مال ، فان كان عالما فعلم يؤخذ منه كرها ، قال هو . فاعلم التلامذة بذلك فسروا سرورا عظيما فشرع فى التأليف فكان يملى على التلامذة كل يوم بابا فبابا ، فكانوا يعلقون ذلك عنه فى ألواح حتى تمم التأليف ثم عرض الالواح على ترتيبها ، فاثبت وأسقط ، وزاد ونقص ، وصحح وبدل ، حتى لم يبق فيها اشكال وحتى صحت عنده كلها فاستنسخها وجعلها ديوانا فى مجلدين ، الاول والثاني وعرضهما بعد ذلك على أبى عبد الله محمد

بن سودرين فلم يزد فيهما الا حرفين ، ومكث الشيخ بتمولسة ما شاء الله ، ثم انتقل الى موضع بالجبل يعرف « بتونين » ، ورتب فيه الحلقة فصار مأوى للعزابة وموضعا للدرس معروفا بالبركة ، مخصوصا هو وأهله بالخير ، والصلاح ، واليمن ، الى يومنا هذا . فلقد سمعت من غير واحد من المشائخ ان قراءة شهر بحلقة تونين تقوم فى تحصيل الفائدة قيام أشهر فى غيرها فهو منبر من منابر الدعوة ، فى الافاق مذكور ، وبالعلم والدين مشهور ، لم تخل قط من جماعة مجتهدين ، فى تحصيل علوم الدين وجماعة موفقين ، بحفظ طرق المتقين ، وجماعة من وراءهم موهلين بخدمة الحلقة بالمال والنفوس والاهلين ، أيد الله الجميع وقواهم وآتاهم تقواهم .

« كمل بحمد الله ما يقابل الجزء الاول من كتاب الشيخ أبى زكرياء رحمه الله ، والحمد لله رب العالمين . ويتلوه ذكر الطبقات وسيرهم ومناقبهم ان شاء الله تعالى والله ولى التوفيق » .

كمل الجزء الاول من كتاب الطبقات

ويتلوه الجزء الثانى

وهو جزء التراجم

فهرس العناوين والموضوعات
الواردة في الجزء الاول

فهرس الاماكــن الواردة فى الكتــاب

فهرس الاعلام واسماء القبائل